NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

II



ترجمة: محمد الناجي

أفريقيا الشرق



انسان مفرط

في انسانيته

كتاب العقول الحرة

HUMAIN TROP HUMAIN
Collection Folio Essais
Editions Gallimard 2001

المؤلف ـ نيتشه

ترجمة ـ محمد الناجي

عنوان الكتاب

انسان مفرط في انسانيته

ج II

رقم الإيداع القانوني 1999 / 1043
ردمك ISBN. 9981-25-139-3

أفريقيا الشرق ـ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف 04 95 25 022 - 13 98 25 022 ـ فاكس 80 00 44 022
البريد الإلكتروني: E-Mail: **afriqueorient@iam.net.ma**

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان

ص. ب. 3176 - 11



نيتشه

انسان مفرط في انسانيته

كتاب العقول الحرة

الجزء الثاني

أفريقيا الشرق

مقدمـــة

- 1 -

لا ينبغي أن نتكلم إلاّ إذا كنا لا نستطيع الصمت، وبالتحديد الكلام عما تجاوزناه، أما كل كلام عـدا ذلك فهو ثرثرة وتصنع واستخـفاف. تتحدث كتبي عن انتصاراتي فقط، فهي لا تضم «سواي» وكل ما كـان عدوي، تضم هويتي أنا، وبكل مباهاة أقول إنها تضم هويتي أنا فقط . لقد أصبح في جعبتي الكثير من الأشياء، ولكني كنت دوما في حاجة إلى الوقت والشـفاء والمسافة والتراجع لكي تتولد لدي الرغـبة في القيام، من أجل المعرفة، بتعرية واستغلال وكشـف و«عرض» كل ما جعلتني الحياة أجربه وأتجاوزه، سواء كـان إنجازا أو قدرا شخـصيا . تتحـدث كتبي دائما عـما خلفته «ورائي»، مـاعدا كتاب واحد منها، بل إن بعضهـا، مثل الاعتبارات اللاراهنة الثلاثة الأولى ترجع إلى ما قبل ظهور كتاب نشـرته سابقا (وهو ميلاد التراجيديا، مثلـما قد يتنبه إلى ذلك ملاحظ دقـيق وقادر علـى المقارنة). لقـد خـفف عني هجـومي العنيف، في الكتـاب الأول من الاعتبـارات اللاراهنة، على توتونية * وسهـولة وانحطاط لغة دافيـد شتراوس العـجوز، خفف عني بعض الكـآبة التي أرهقتني بها الشقافة الألمانيـة وماديتهـا الثقافـية أيام كنت طالبا (إني أزعـم كـوني أول من أطلق تعبـير «مادي الثـقافة» الـذي يفرط الناس الآن في استعماله). وما قلته بصدد «المرض التاريخي» قـد قلته باعتباري رجلا كان يتعلم كيف يُشفى منه ببطء ومـشقة دون أن ينوي التـخلي عن «التاريخ» بسبب مـا عاناه منه فـيـما مضى. حين عبرت بعد ذلك، في الكتاب الثالث من الاعتبارات اللاراهنة، عن إجلالي لمربي الأول والوحيد، أرثر شوبنهاور العظيم، وسأعبر عن ذلك الآن أيضا بشكل أقوى، حينها كنت في أوج شكـي وتقصفي الأخلاقي، أي مهـتما بالنقد وبتعـميق الحالة التي كان عليهـا التشاؤم حتى ذلك الحين، كـما أني أصبحت حـينها لا أومن «بأي شيء»، كما يقول العامة، حتى بشوبنهـاور نفسه : في تلك المرحلة بالذات ظهر للوجود كتاب أخفيـته «يتناول الحقيـقة والكذب خارج مفـهومهمـا الأخلاقي». حتى احتفـالي بفاغنر

* يقصد أن شتراوس يستعمل لغة الجرمانيين القدماء.

بمناسبة النصر الذي أحرزه في بايروث سنة 1876 (وهو أعظم نصر قد يحرزه فنان ما)، ذلك الكتـاب الذي اكتسى مظـهرا بارزا جدا من مظـاهر «الراهنية»، قـد كان في واقع الحال اعتـرافا بالجميل للحظة من لحظات حـياتي الماضية، وكـذلك لأخطر هدوء،عرفه البحر أثناء عبوري له... كان في واقع الأمر بادرة انفصال، كان وداعاً.(أيكون فاغنرقد أخطأ فـهم قصدي ؟ لا أعـتقـد ذلك. ما دمنا نحب فـإننا لا نقوم بـرسم تمهيـدي لهذه اللوحات، فـي هذه المرحلة لا نكون قد بلغنا مـرحلة «التأمل» ولا نتـرك المسافـة اللازمة بيننا وبين موضوع تأملنا. «إن في التأمل تضاداً غامضـا، وهو الرؤية النقيضة»، كما نجد ذلك في الصفحة 46 من ذلك الكتاب وقـد صيغ بنبرة خـائنة وكئيبة كانت موجـهة فقط لآذان قليلة.) لم يأتني الصفـاء اللازم الذي يمكنني من الحديث عن سنوات طويلة من التحول، سنوات كـانت كلها وحدة وحرمانا داخليين، إلا مع كتـاب إنسان مفرط في إنسانيتـه الذي سأقدمه ثانية بهـذه المقدمة التشفـعية. كتاب «خاص بالعـقول الحرة» يحتـوي شيئا من هـدوء عالم النفس، هدوء لا يخلو مع ذلك من مرح وفـضول، هدوء يسجل لنفسه ويثبت مجموعـة من الأشياء المؤلمة التي تغلب عليها وتجاوزها. فلا غرابة أن يجد عالم النفس، أثناء قيامه بعمل شائك مثل هذا، بعض الدم على رؤوس أصابعه، وليس دائما على رؤوس أصابعه فقط؟...

- 2 -

لقد أصـدرت «آراء وحكم مختلطة» وكذلك «المسـافر وظله» في كتـابين منفصلين أول الأمر، وكان كل واحد منهـما تتمة وملحقا لهذا « الكتاب الخـاص بالعقول الحرة» السـالف الذكر، أعني «إنسـان مفـرط في إنسانيـته» الذي يعـتبـر في ذات الوقت تتـمة وتكرار لعلاج ثقافي، لعلاج تلقائي من الرومانسية وصفته لي فطرتي التي ظلت سالمة، ذلك أنها قد ابتكرته من قبل لتعالج به نفسها حين أصابتها الرومانسية في أشد أشكالها ضرراً. والآن وقد مـرت ست سنوات على شفائي أقدم إليكم هذه الأعمـال في كتاب واحد هو الجزء الثاني من «إنسان مفرط في إنسانيته» ، فلربما تستطيع وهي مجموعة أن تنقل إلى الناس تعـاليمـها بقـوة ووضوح أكـثـر، تعاليم تـتعلق بالصحة ستوصي ذوي العقول المتطـلبة من أبناء الجيل الصاعد بـالإمتثال الطوعي لها. إن الذي يـتحدث إليكم هنا هو متشـائم غـالبا ما ينسلخ من جلده، لكنه دائما يعود ليندمج فيـه، هو إذن متشائم ميال إلى التشاؤم، وهو بذلك غير رومانسي بالمرة : وأي عيب في ذلك ؟ ألا يحق لعقل قد انغمس مثل الأفعى في فن تغيير الجلد أن يعطي درسا لمتشائمي الوقت الراهن الذي لا يزال خطر الرومانسية يترصدهم؟ وأن يبين لهم على الأقل كيف يفعلون.

- 3 -

لقد حان في تلك الآونة موعد انصرافي، وسرعان ما توفر لدي الدليل على ذلك. لقد انهار فاغنر الذي كان في أوج نجاحه، والذي هو في واقع الأمر رومانسي يائس وسائر في طريق التدهور، انهار فجأة عاجزا ومُحَطَّماً عند أقدام الصليب المسيحي... أيمكن أن لا يكون أي ألماني قد تنبه لذلك المشهد البشع، أن لا يكون قد شعر بعطف عليه في قرارة ضميره ؟ هل أكون أنا وحدي الذي عانيت بسببه؟ لقد لاح لي من خلال ذلك الحدث غير المتوقع ما يشبه بارقة ضوء أنارت لي المكان الذي غادرته – كما شعرت بذلك الرعب الاستعادي (rétrospectif) الذي يشعر به أي إنسان تعرض، وهو لا يعلم، لخطر كبير. حين انطلقت في طريقي وحيدا من جديد كنت أرتعش، بعد مضي وقت قليل أصبحت مريضا، بل أكثر من مريض، أصبحت ضَجِراً، ضجرت من الخيبة الشديدة التي يبعث عليها كل ما تبقى لنا نحن الرجال المُحْدَثون من بواعث الحماس التي مصدرها تلك القوة الهائلة، والعمل الكثير، والأمل الكبير، والشباب، والحب الذين يتم تبذيرهم في كل مكان، ضجرت من اشمئزازي من الجانب الأنثوي في تلك الرومانسية ومن تحميسها الجامح، من كل تلك المثالية الكاذبة ومن خور الوعي اللذين ظفرا مرة أخرى بواحد من أغلى رجالنا؛ ضجرت في النهاية ضجرا كبيرا من الشك العنيد الذي كان يتأكلني، وربما أكون قد حُكِمَ علي أن أعيش، بعد هذه الخيبة، في حذر وازدراء ووحدة أكثر من أي وقت مضى. أين صارت تكمن مهمتي الآن؟ ألا يبدو أنها قد تخلت عني الآن، أنه لن يكون لي، ولمدة طويلة، أي حق فيها؟ فماذا عساي أن أفعل كي أتحمل حتى النهاية هذا الحرمان، هذا الحرمان الكبير؟ بدأت بأن حرمت على نفسي، بشكل قطعي ومبدئي، كل موسيقى رومانسية، ذلك الفن المبهم، الطنان، الخانق، الذي يَحْرم العقل من صرامته وحيويته كي يرهقه بكل أشكال الحنين الغامض والشبق المبهم. لازلت وسأظل أنصح بالحذر من الموسيقى كل من لديه من المروءة ما يكفي كي يحرص على بعض الصدق في أمور العقل، فهذا النوع من الموسيقى يصيب أعصابنا بالتوتر ويصيبنا نحن بالوهن، يؤنثنا، تجذبنا «الأنوثة الأبدية» فيه... إلى الأسفل!... إن الموسيقى التي كانت موضع شكي حينها وأثارت حذري على الفور هي الموسيقى الرومانسية، ولئن كنت أنتظر من الموسيقى شيئا فعلي أمل أن يجود علينا الزمن بموسيقي جسور، بارع وفظ، من سكان أوربا الجنوبية، يتمتع بصحة جيدة، لينتقم من هذه الموسيقى انتقاما خالداً.

- 4 -

وهكذا، وقد أصبحت وحيداً يملأني الحذر الماكر من نفسي، انحزت إلى كل ما كان يؤذيني أنا فقط ويضر بي بالغ الضرر ووقفت ضد نفسي، وهو شيء أثار ضغينتي: آنذاك اهتديت إلى سبيل ذلك التشاؤم المقدام الذي هو نقيض الأكذوبة الرومانسية كلها، عرفت السبيل إلى «أنا» نفسي، إلى مهمتي. ذلك الشيء الخفي الملحاح الذي نعايشه مدة طويلة دون أن نعرف أي اسم نطلق عليه إلى أن يتبين في النهاية أنه هو مهمتنا، -ينتقم هذا الجبار الحميم ببشاعة من كل محاولة نقوم بها لنتجنبة أو لنفلت منه، ينتقم من كل تهيؤ مبكر محاولة للتواضع، ذلك التواضع الذي قد يجعلنا في مستوى واحد مع أولئك الذين لسنا منهم، ينتقم من كل نشاط مهما تكن مكانته رفيعة ومهما يكن إبعاده لنا عن هدفنا الأساسي ضعيفا، بل ينتقم من أية فضيلة قد توفر عنا قساوة مسؤوليتنا الشخصية. كلما دَاخَلَنَا الشك بشأن حقنا في أن تكون لنا مهمة خاصة، وكلما شرعنا في جعل مهمتنا سهلة في كل شيء، يكون المرض هو الجواب. إنه لشيء غريب ومرعب في نفس الوقت أن تكون التسهيلات التي نوفرها لأنفسنا هي التي نؤدي مقابلها ثمنا فظيعا ! وإن أردنا بعد ذلك استعادة صحتنا وجب علينا أن نتحمل من المصاعب ما لم نتحمله قط من قبل...

- 5 -

آنذاك شرعت في ممارسة ذلك الكلام المتوحد الذي لا يتقنه إلا الصموتون والمعانون أشد المعاناة : في غياب الحاضرين، أو بالأحرى غير مبال بهم، كنت أتكلم كيلا أعاني من الصمت، أتكلم عن أشياء لا يهمني أي شيء منها، لكني كنت أتصنع عثوري فيها على منفعة ما. آنذاك تعلمت فن إظهار نفسي مَرِحاً، موضوعيا، فضوليا، وبالخصوص متمتعا بصحة جيدة وفظا، - وذلك ما يبدو لي أنه هو «الذوق السليم» لدى المريض؟ رغم ذلك، فإن ما قد يشكل سحر هذه الكتب لن يخفى على العين المفترسة [من الفراسة]، وعلى الشعور المرهف بالتعاطف، ذلك لأن الرجل الذي يعاني ويتألم هنا يتكلم كما لو كان يجهل ماهية الحرمان والعذاب. هنا نجعل من الحفاظ على التوازن واجبا، بل من الحفاظ على عدم التألم، هنا تسود إرادة قاسية، أنوفة، متنبهة ودائمة اليقظة، قد جعلت مهمتها هي الدفاع عن الحياة ضد الألم والقضاء على أصل كل الاستنتاجات التي عادة ما تُوَلِّدُ الألم والخيبة والاشمئزاز والوحدة وضحول المستنقعات كالقُطر السام. قد يكون هذا اقتراحا مني لمتشائمينا باتباع الاختبار الشخصي، لأنني توصلت في ذلك الحين إلى انتزاع هذه الحكمة من نفسي : «لا يكفي أن نعاني كي

يكون لنا الحق في التشاؤم!» آنذاك حاربت في نفسي محاربة طويلة وصبورة ذلك الميل الأساسي واللاعلمي الموجود في كل رومانسية متشائمة، واستنتجت من بعض التجارب الشخصية، بعد تضحيتها، أحكاماً عامة، إن لم أقل إدانة للعالم... باختصار،آنذاك جعلت بَصري يقوم بجولة كاملة. إنه تشاؤم يكون هدفه هو استعادة الصحة كي يكون لي الحق يوما في أن أصبح متشائما مرة ثانية - هل تفهمون هذا؟ مثلما الطبيب يضع مريضه في وسط غريب عنه تماما كي يبعده عما كان يشكل وسطه «حتى ذلك الحين» من هموم وأصدقاء ورسائل وواجبات، وكذلك حماقات الذاكرة وآلامها، ليعلمه كيف يمد يديه وحواسه إلى طعام جديد، إلى شمس جديدة، إلى مستقبل جديد، كذلك أنا قد فرضت على نفسي، جاعلا من نفسي الطبيب والمريض في الآن نفسه، مناخا جديداً غير الذي ألفته، أذكر منه بالخصوص السفر إلى الخارج والرحلة إلى عالم أجهله تماما والسعي بدافع الفضول إلى معرفة كل ما أجهله.وقد نتج عن ذلك تيه طويل دفعتني إليه الرغبة في الاستخبار والتغير، نتج عنه نفوري من كل تعلق ومن كل بلادة في النفي أو الإثبات، كما نتج عنه نظام وسلوك مُوَجَّهين ليسهلا على العقل السباقات الطويلة والتحليقات العالية، خاصة تلك التحليقات التي تتم إعادتها. نتج عنه في الواقع حد أدنى من الحياة، تحرر من كل الأطماع غير اللائقة، استقلالية وسط كل أشكال النكبات الخارجية، لكن مع الافتخار بقدرتي على العيش ضمن تلك النكبات؛ نتج عنه شيء من الكلبية (Cynisme) ولاشك، شيء قليل من «التدحرج»، وكذلك كثير من السعادة والمرح العجيبين،من الطمأنينة والنور، وبساطة دقيقة وتحمس خفي - الحاصل أنه قد نتج عنه في نهاية المطاف تجدد كبير في قوتي الفكرية، ازدياد رغبتي في الصحة وازدياد تمام صحتي. الحياة نفسها تكافئنا على تشبث إرادتنا الصلبة بالحياة، على مثل تلك الحرب الطويلة التي خضتها في نفسي ضد التشاؤم الذي مرده إلى الضجر من الحياة، تجازينا عن كل نظرة متأنية وعرفانية نلقيها على كل هداياها مهما تكن صغيرة أو رقيقة أو عابرة. في مقابل ذلك، نحصل في نهاية المطاف على هداياها الكبيرة، وربما على أكبر هدية يمكن أن تمنحها لنا، إنها مهمتنا التي أعيد تكليفنا بها.

- 6 -

أتكون تجربتي - وهي قصة مرض وشفاء، لأن مدار الأمر كله على الشفاء - مجرد تجربة شخصية فقط؟ أتكون فقط ذلك الجزء «الإنساني، المفرط في إنسانيته» في شخصي؟ قد أميل اليوم إلى اعتقاد العكس. إنني واثق أن كتبي التي تتناول الأسفار لم

أؤلفها لي وحدي، كما قد يبدو أحيانا... هل أستطيع الآن، بعد ست سنوات من الإقتناع المتزايد، أن أعطيها انطلاقة جديدة، أن أجازف بمحاولة أخرى؟ هل أنصح باستعمالها أولئك الذين يصيبهم «ماض» ما والذين يملكون من العقل ما يكفي لمعاناتهم حتى من عقل ماضيهم ؟ إني أنصحكم بقراءتها أنتم الذين كان حظكم من الحياة قاسيا، أيها النادرون، أنتم المهددون بشكل كبير والشجعان الذي بلغوا أعلى مراتب العقل، أنتم الذين وجب أن تكونوا ضمير الروح المعاصرة وأن تمتلكوا منها العلم بصفتكم تلك، أنتم الذين يجتمع فيكم كل ما قد يعرفه الوقت الحاضر من مرض وسم وخطر، أنتم الذين شاء قدركم أن تكونوا مرضى أكثر من سائر الأفراد لأنكم لستم «مجرد أفراد»... أنتم الذين عزاؤكم هو أن تعرفوا. آه! وأن تسلكوا سبيل صحة جديدة، صحة المستقبل، أنتم المهيأون سلفا، أنتم الظافرون، أنتم قاهروا الزمن، أنتم الأقوى والأكثر قداسة، أنتم الأوربيون الصالحون!

- 7 -

أود في الختام أن أصوغ مرة أخرى معارضتي للتشاؤم الرومانسي، أي لتشاؤم المحبطين والناقصين والمهزومين : تعتبر إرادة المأساة والتشاؤم علامة على الصرامة وقوة الذكاء (قوة الذوق والإحساس والوعي). حين تكون هذه الإرادة في قلبنا فإننا لا نعود نخشى الأشياء المرعبة والمريبة في هذا الوجود، بل إننا نسعى إليها. وراء مثل تلك الإرادة نجد الشجاعة والأنفة، والرغبة في أن يكون لنا عدو كبير. ذلك هو منذ البداية منظوري المتشائم. وهو منظور جديد على ما يبدو لي؟ ولا يزال اليوم منظورا جديدا وغريبا؟ ومازلت متعلقا به حتى الآن سواء حين يكون لصالحي أو حين يقف ضدي أحيانا... أتريدون الدليل على ذلك؟ وأي شيء تكون هذه المقدمة الطويلة قد قدمت الدليل عليه؟

سلس ماريا
الأونغادين العليا
شتنبر 1886.

الكتاب الأول
آراء وحكم مختلطة

1. إلى الذين خيبت الفلسفة ظنهم.

إن كنتم حتى الآن قد آمنتم بالقيمة القصوى للحياة، والآن ترون أن أملكم قد خاب، فهل تجعلون ذلك داعيا لأن تجعلوا ثمنها أبخس الأثمان ؟

2. فاسد.

قد يحدث أن يفسد وضوح الأفكار صاحبه، وكم تكون مملة آنذاك معاشرة أولئك الأفراد المبهمين، الضبابيين، الذين كلهم مطامح واستشعارات! كم يكون مضحكا، لكن دون أية متعة، ذلك الأثر الذي تخلفه رفرفتهم السرمدية، وسعيهم الجشع دوما، هم العاجزون عن التحليق وعن الصراع !

3. الطامعون في الواقع.

إن الذي يتنبه في نهاية الأمر إلى أي حد وكم من الوقت كان مغفلا يعانق، بفعل التحدي، الواقع الأكثر بشاعة، بحيث أننا نجد، إذا اعتبرنا مجرى العالم كله، أن أفضل الطامعين كانوا دوما من نصيب الواقع البشع، ـ لأن هؤلاء الأفاضل كانوا هم من يتم خداعهم دائما بشكل أفضل ولمدة أطول.

4. تقدم الفكر الحر.

إننا لن نستطيع أن نميز الفرق بين الفكر الحر بالأمس والفكر الحر اليوم إلا إذا تذكرنا تلك الجملة التي تطلب الأمر جرأة القرن الماضي كلها كي يتم فهمها وإعلانها، والتي، إذا ما قارناها مع المستوى الحالي للمعرفة، فإننا سنصنفها في صف السذاجة غير المقصودة، ـ أعني جملة ڤولتير: « صدقني يا صديقي، حتى الخطأ له قيمته. »

5. خطيئة الفلاسفة الأصلية.

لقل انتحل الفلاسفة، على مر العصور، أطروحات علماء النفس (الأخلاقيين) وأفسدوها بأخذهم لها بشكل مطلق، وبإرادتهم البرهنة على ضرورة ما لم يكن في ذهن أولئك العلماء سوى إشارة تقريبية أو حقيقة صالحة لعقد من الزمن في هذا البلد أو ذاك، ــ وهم يتصورون أنهم بذلك يتجاوزون أولئك الأخلاقيين رفعة. وهكذا سنجد في أساس نظريات شوبنهاور الشهيرة حول أسبقية الإرادة على الذكاء، حول ثبات الطبع، حول سلبية اللذة ــ في أساس كل النظريات، كما يعنيها، والتي هي عبارة عن أخطاء ــ، سنجد مفاهيم الحس المشترك التي وضعها الأخلاقيون. إن كلمة «إرادة» هذه التي عدلها شوبنهاور ليجعل منها التسمية المشتركة لعديد من الحالات الإنسانية، والتي أدخلها في فجوة من فجوات اللغة، لصالحه بما أنه كان أخلاقيا ــ مادام الحديث عن «الإرادة»، مثلما فعله باسكال، قد صار متعلقا به منذ ذلك الحين ــ، إن تلك «الإرادة» قد تحولت في يد الذي ابتكرها، بسبب ذلك الغيظ الفلسفي الذي نجده في التعميم، لتصير شؤما على الفلسفة: لأننا نجعل منها مجازا شعريا حين نؤكد أن لكل الأشياء التي هي في الطبيعة إرادة. وفي الأخير، وبقصد جعل تلك الكلمة تخدم كل أشكال الغباوة المجازية، فقد استعملوها بشكل تعسفي بمعنى تمدية (réification) مزيفة – وكل الفلاسفة يكررون ذلك طبقا لذوق العصر وهم يعلمون بيقين كبير، على ما يبدو، أن لكل الأشياء إرادة وحيدة، بل أكثر من ذلك، أن الأشياء هي تلك الإرادة الوحيدة (وهو مايعني، حسب ما توصف به تلك الإرادة الواحدة والكونية، قدرما نعنيه لو شئنا قطعا أن نسمي الإله شيطان الحماقة).

6. ضد العقول الغريبة الأطوار.

ينفي الغريب الأطوار الحقيقة التي تخصه هو، أما الكذاب فينفي الحقيقة التي تخص الآخرين فقط.

7. كراهية النور.

إذا أفهمنا شخصا ما أنه لن يتمكن أبدا من الحديث عن الحقيقة بكل دقة، بل فقط عن الإحتمال وعن درجاته، فإننا عادة ما نكتشف، لفرط ما تبدو فرحة مستمعنا الذي نورناه بذلك، إلى أي حد يفضل الناس اللايقين الفكري لديهم ويكرهون أشد الكراهية الحقيقة بسبب دقتها.ــ هل يرجع ذلك إلى خوفهم السري من أن نسلط عليهم نور الحقيقة ذات يوم بقساوة بالغة ؟ أم إلى كونهم يريدون الظهور وكأنهم أشخاص

مهمون، وبالتالي لا ينبغي لنا أن نعرف بالضبط من يكونون ؟ أم فقط هي خشية النور الساطع الذي لم تتعود عليه روحهم الغمقية التي تنبهر بسهولة بحيث أنها لا تملك إلا أن تكرهه ؟

8. شكوكية المسيحي.

يروق للناس اليوم أن يقدموا بونتشي بيلاطي كمدافع عن المسيح، وكذلك سؤاله الشهير: ما الحقيقة ؟ لكي يجعلونا نشك بأن كل المعارف المكتسبة والممكن اكتسابها ظاهرية فقط، وليرسوا الصليب على ذلك الأساس المرعب أساس استحالة معرفة أي شيء.

9. «القانون الطبيعي» صيغة الخرافة.

حين تتحدثون بافتتان كبير عن انتظام قوانين الطبيعة، أو حين تقرون حتما بأن كل الأشياء الطبيعية تتبع قانونها الطبيعي بمقتضى خضوع حر وتلقائي ـ وهي حالة تعجبون فيها إذن بأخلاقية الطبيعة، أو حين يكون ما يفتنكم هي فكرة الصانع المبدع الذي صنع أدق ساعة وزينها بالكائنات الحية التي تدب فيها، ـ فإن عبارة « التقيد بالقوانين » تضفي صبغة أكثر إنسانية على لزومية الطبيعة وتجعل منها واحدا من آخر ملاذات الوهم الأسطوري.

10. الخضوع لسلطة التاريخ.

يصاب الفلاسفة الذين ينشغلون بحجب العالم وإخفائه، أعني كل الميتافزقيين المرهفي الحس أو الأفظاظ، بألم في عيونهم، في آذانهم وفي أسنانهم بمجرد ما يبدأ لديهم الشك في أن هناك شيئا من الحقيقة في الأطروحة القائلة بأن الفلسفة كلها قد صارت خاضعة لسلطة التاريخ. ومن اللائق، بسبب المعاناة التي يكابدونها، ألا نؤاخذهم عن الأحجار والقاذورات التي يرمون بها من يتحدث على هذا النحو: إلا أن ذلك قد يلوث هذه النظرية يوما وينقص من قيمتها وبذلك تفقد تأثيرها.

11. متشائم الذكاء.

إن صاحب العقل المتحرر حقا سيفكر كذلك بحرية في العقل نفسه ولن يخفي عن نفسه بعض الملامح التي تهم مصدره واتجاهه. وسينعته الآخرون بالعدو اللدود للفكر الحر وسيطلقون عليه اسم «متشائم الذكاء»، وهو اسم مهين ومرعب: لكونهم قد اعتادوا على تسمية الأشخاص ليس بحسب قوتهم وبسالتهم البارزتين، بل حسب ما يرونه فيهم غريبا جدا.

12. إملاق الميتافزيقيين.

إننا لانملك ما نجيب به كل الذين يتحدثون بتضخيم عن التطلع العلمي لميتافزيقاهم : يكفي أن نزعزع الصرة التي يخفونها وراء ظهورهم وهم قلقون، وإن نجحنا في فتحها فستبدوا فوضى نتائج ذلك الطبع العلمي واضحة للعيان : رب بسيط وطيب، خلود جميل، وربما شيء قليل من الأرواحية* (spiritisme)، وعلى كل حال فهي لفيفة متشابكة من الضيق البئيس ومن الكبرياء الفريسي.

13. المضرة العرضية في المعرفة.

إن المنفعة التي نجدها في البحث اللامشروط عن الحقيقي قد تمت البرهنة وإعادة البرنهة عليها كثيرا بحيث يجب حتما أن نرحب بجانب نادر ودقيق فيها وهو الجانب المضر الذي يعاني منه بعض الأفراد. إننا لا نستطيع أن نحول بين الكيميائي وبين ما قد يصيبه من تسمم أو حروق أثناء قيامه بتجاربه. ـ إن ما ينطبق على الكيميائي ينطبق كذلك على حضارتنا بأكملها، وينجم عن ذلك بوضوح ضرورة تزودها بمراهم للاستعمال في حالة الإصابة بحروق وبعُدة دائمة من الترياق المضاد للسم.

14. حاجة مادي الثقافة.

يظن مادي الثقافة (philistin) أنه في أمس الحاجة إلى مزقة من الأرجوان، وإلى عمامة من الميتافزيقا، ويأبى كل الإباء أن ينضو ذلك الثوب عنه : ولو أنه تخلى عن تلك البهرجة لبدا أقل إثارة للسخرية.

15. المتزمتون.

كل ما يقوله المتزمتون في صالح إنجيلهم أو معلمهم إنما يدافعون به عن أنفسهم، بالرغم من هيأة القضاة (وليس المتهمين) التي يتخذونها، لأن كل اللحظات، إلا قليلا، تذكرهم تلقائيا بأنهم استثناءات عليها أن تبرر وجودها.

16. كل جيد يمنح الرغبة في الحياة.

كل الأشياء الجميلة تحث بقوة على الحياة، وكذلك يفعل كتاب جيد كتب ضد الحياة.

17. سعادة المؤرخ.

«حين نسمع الميتافزيقيين البارعين والمغرمين بالماوراء يتكلمون نشعر أننا نحن هم الفقراء من حيث العقل، لكننا نشعر كذلك أن مملكة التغير الأبدية ملك لنا، بفصولها

الأربعة، وهم يملكون الماوراء، بضبابه وظلاله اللامحدودة، الباردة والرمادية.» ـ كذلك كان رجل يحدث نفسه وهو يتجول ذات صباح مشمس، رجل لايكف قلبه، وليس عقله فقط، عن التغير من جراء معاشرته للتاريخ، وهو سعيد، عكس الميتافزيقيين، بضمه بين جنبيه ليس فقط « روحا واحدة خالدة » بل كثيرا من الأرواح الفانية.

18. ثلاثة أنواع من المفكرين.

هناك منابع معدنية تسيل بغزارة، ولها مصفاة تصفي الماء قطرة قطرة، وتقابلها ثلاثة أنواع من المفكرين. يقدرها الجاهل حسب كمية الماء، أما العارف فيقدرها حسب محتوى الماء، أي حسب ما ليس ماء فيها.

19. لوحة الحياة.

إن مهمة رسم لوحة الحياة، مثلما عرضها الشعراء والفلاسفة في أغلب الأحيان، ليست خلوا من المعنى : لكن ما رسمه كبار المفكرين ـ الرسامين لم يكن أبدا سوى لوحات ولويحات مستمدة من حياة واحدة هي حياتهم ـ وكل شيء ماعدا ذلك مستحيل إجمالا. في خضم شيء هو في إطار الصيرورة لا يمكن لشخص في إطار الصيرورة هو الآخر أن يعكس نفسه في صورة ثابتة ودائمة، في صورة «هذا».

20. لا تريد الحقيقة آلهة بجانبها.

يبدأ الإيمان بالحقيقة بالشك في كل الحقائق التي كنا نؤمن بها حتى ذلك الحين.

21. ما نطلب كتمانه.

حين نتحدث عن الفكر الحر وعن جولة شديدة الخطورة عبر المَجْلدات وبحار الجليد فإن أولئك الذين لا يريدون أن يسلكوا تلك الطريق يشعرون بالإهانة وكأننا قد لمناهم على خجلهم وضعفهم. إن الصعاب التي نشعر أننا لسنا في مستوى مواجهتها لا نريد من الناس أن يلمحوا إليها ولو مجرد تلميح أمامنا.

22. الإساءة إلى التاريخ.

المحاكاة الساخرة الأكثر جدية التي سمعتها حتى الآن هي هذه : «في البدء كان العبث، والعبث كان هو الإله ! وكان الإله (بشكل رائع جداً) هو العبث.»

23. الزَّمِن.

المثالي عصي على الإصلاح : لو جعلناه يهوي من علياء سمائه إلى الجحيم لاستعد لأن يجعل من الجحيم مثالاً. لنخيب أمله ولترووا ما سيحدث ! إنه سيعانق خيبته بحماس لا يقل عن الذي كان إلى عهد قريب يعانق به الأمل. وبما أن ميله هو من طراز ميول الطبع الإنساني الكبيرة المزمنة، فإنه قد يقود نفسه نحو مصير مأساوي ويصير لاحقا موضوع تراجيديات تهتم بالضبط بكل ما هو زمِن، محتَّم، وقاتل في مصير الطبع الإنساني.

24. التصفيقات استمرار للعرض.

عيون براقة وابتسامة عطوفة هما نوع التصفيقات التي نقوم بها إثر انتهاء ملهاة العالم أو ملهاة الوجود ـ ولكنها تعتبر ملهاة غرضها جلب المشاهدين الآخرين إلى تصفيق ودي.

25. الجرأة على الإزعاج.

الذي لا يملك الشجاعة لأن يكون مزعجا، هو وعمله، ليس بكل تأكيد مفكرا من الطراز الأول، سواء في الفنون أو في العلوم. ـ المتهكم الذي يكون، بشكل استثنائي، مفكرا، يستطيع حين يلقي نظرة على العالم وعلى التاريخ أن يضيف : « إن الرب لم تكن له تلك الشجاعة، لقد أراد أن يجعل كل الأشياء تبدو مفرطة الأهمية، وقد فعل ذلك. »

26. مستخلص من أشد تجارب الفكر حميمية.

من الصعب على المرء أن ينظر إلى الشيء مجردا، أي أن يراه شيئا بالضبط وليس شخصا، بل يمكننا أن نتساءل ما إن كان بإمكانه، بشكل عام، ان يوقف، ولو للحظة قصيرة، غريزته التي تشكل الأشخاص وتبدعهم. ألا يعامل الافكاربدورها، حين تكون أكثر تجريدا، كما لو كانت افرادا يجب ان نصارعهم، ونرتبط بهم، ونرعاهم، ونعالجهم، ونغذيهم ؟ لنرقب ولنراقب أنفسنا بأنفسنا في تلك اللحظات التي نسمع فيها أو نجد فيها اقتراحا جديدا علينا. فربما لا يعجبنا ذلك الاقتراح بسبب كونه مستفزا ومتسلطا، وبطريقة لا شعورية نتساءل إن كان بوسعنا ان نواجهه باقتراح مضاد يكون بمثابة عدو، أن نضيف إليه كلمة «ربما» أو كلمة «أحيانا»، وعلى «وجه الاحتمال» القليلة الشأن التي من شأنها أن تبعث فينا شعورا بالرضى، وذلك لكونها تكسر الاستبداد الشخصي للمطلق الذي يزعجنا. وإن جاء ذلك الافتراح، على العكس، في

شكل ملطف، متسامح ومتواضع وشبه متناقض،فإننا سنجرب محاولة أخرى لسلطتنا: ألا يكون بإمكاننا نجدة ذلك المخلوق الضعيف، ومجاملته وتغذيته وإعطاؤه قوة وصحة، أن نضفي عليه حتى الحقيقة، بل مزية اللامشروط ؟ ألا يمكننا التصرف معه وكأننا والداه، وان يكون موقفنا منه موقف شهامة ورأفة ؟ أو حين نرى حكما هنا وحكما هناك يظلان بعيدين واحدهما عن الآخر، دون أن ينظرا الى بعضهما، ودون أن يتجه أحدهما الى الآخر : آنذاك تخامرنا فكرة معرفة ما إذا لم يكن هناك زواج ينبغي إتمامه، أو خلاصة يجب استخلاصها، ونستشعر أنه إن نتج شيء عن تلك الخلاصة فإن الذي سيشرفه ذلك ليس هما الحكمان اللذان وحدهما الزواج فقط بل كذلك الذين زوجوهما. فإن لم نستطع، رغم ذلك، أن نسيطر على الفكرة التي خامرتنا لا عن طريق الاستفزاز وروح التخريب ولا عن طريق الإرعاء (إن اعتبرناها صحيحة) فإننا نستسلم ونؤدي لها التحية كما نؤديها لقائد أو لدُوق، نمنحها مقعدا شرفيا، ونتحدث عنها بمباهاة وافتخار، لأن بريقها يشع فينا. والويل لمن يريد إقبارها، إلا إذا بدت لنا هي ذاتها يوما ما مثيرة للشك : ــ آنذاك سنقوم، نحن «صانعو الملوك»(King makers) * في تاريخ الفكر، بخلعها بسرعة عن العرش وتنصيب عدوها بحرارة مكانها. لنزن هذا ولنتفكر قليلا: لن يتحدث أي منا آنذاك بكل تأكيد عن «غريزة المعرفة في ذاتها» ! ــ لماذا يفضل الإنسان الصحيح على الخطأ في صراعه الخفي مع أولئك الأشخاص الذين هم الأفكار، في زواج الأفكار ذاك، في دولة الأفكار تلك، في تربية الأفكار تلك، في ذلك الإنجاد العمومي للأفكار وتلك العناية الصحية، في ذلك كله الذي يظل خفيا أغلب الوقت ؟ للسبب نفسه الذي يجعله يكون عادلا في معاشرته للأشخاص الحقيقيين : اليوم بدافع العادة، والوراثة والتربية لأن الصحيح (وكذلك المنصف والعادل) أكثر نفعا وتشريفا من الخطأ، لأن القوة والسمعة اللتين ترتكزان على الخطأ أو على الكذب، في عالم الفكر، لا تتعاضدان جيدا. إن الشعور بأن مثل ذلك الصرح قد ينهار يوما ما يشكل إهانة لوعي المهندس، بل يخجل من هشاشة مواده، ويود، وهو يضفي على نفسه أهمية أكثر من التي يضفيها على بقية العالم، أن يكون ذلك الصرح أدوم من كل المباني التي سيشيدها. إنه في طموحه نحو الحقيقة إنما يعانق الإيمان بالخلود الشخصي، أي الفكرة الأكثر تكبرا والأكثر استفزازا على الإطلاق، نظرا لقرابتها مع الفكرة القائلة أن العالم يفنى بينما أظل أنا في صحة جيدة ! لقد صار عمله هوأناه، وهو نفسه يصير شيئا خالدا يتحدى الكون. كبرياءه المغالي هو الذي يريد أن يشتغل الآن فقط بأفضل الأحجار، وأصلبها، بالحقائق أيضا، أو بما يعتبره حقائق. لقد كان الناس على صواب حين سموا الكبرياء، على مر العصور، «رذيلة العالم»، ــ لكن

لولا قوة تلك الرذيلة لكان حال الحقيقة وحال امتيازها حالا يرثى له على وجه الأرض. إننا حين نخشى أفكارنا ومفاهيمنا وكلماتنا، وكذلك حين نحترم أنفسنا فيها، حين نزودها لا شعوريا بقوة قادرة على تعليمنا، على ازدرائنا، على مدحنا وذمنا، فإننا بذلك نتعامل معها كما مع الكثير من الأشخاص الأخلاقيين الأحرار، من القوى المستقلة، يدا ليد، ثمة يكمن جذر تلك الظاهرة الغريبة التي أسميتها « وعيا ثقافيا ». ـ هكذا إذن يكون ذلك أيضا جذرا أسود قد تفتح على هيأة ازهرار أخلاقي لعرق متفوق.

27. الظلاميــون.

الشيء الأساسي في سحر الظلامية* الأسود ليس هو سعيها لتعتيم العقول، بل سعيها لتشويه الصور التي لدينا عن العالم، لأن تُظلم الفكرة التي نكونها عن الوجود. ولا شك أنها غالبا ما تستخدم لهذا الغرض الوسيلة التي تقتضي منع العقول من التفتح على المعرفة، لكنها أحيانا تلجأ إلى عكس هذه الوسائل تماما، من خلال جعل الذكاء دقيقا جدا، إلى إثارة الإشمئزاز من ثماره. فالميتافزيقيون الخالصون، الذين يمهدون للشكية، والذين، بفطنتهم المفرطة، يثيرون الريبة بخصوص كل فطنة، هم أدوات جيدة لخدمة ظلامية دقيقة. ـ هل يمكن أن يتم استخدام كانط نفسه لهذا الغرض ؟ بل أكثر من ذلك، هل يمكن أن يكون قد أراد، حسب تفسيره الشهير، شيئا مماثلا ولو بشكل مؤقت : إطلاق عنان الإيمان مع فرض قيود على العلم ؟ وهو شيء لم ينجح في بلوغه لاهو ولا الذين اقتفوا أثره على طريق الظلامية الملطفة ،الخطيرة جدا، بل أخطر الظلاميات كلها؛ لأن السحر الأسود يبدو هنا مغلفا بالنور.

28. الفلسفة المؤدية لخراب الفن.

حين ينجح ضباب فلسفة ميتافزيقية وصوفية ما في جعل الظواهر الجمالية عصية على الرؤية فإنه ينتج عن ذلك استحالة تقدير تلك الظواهر بمقارنة بعضها مع بعض، وذلك لأن الواحدة منها تصير مستحيلة التفسير بمعزل عن الأخريات. وإذا لم يعد ممكنا مقارنتها بغرض تقييمها فإنه ينتج عن ذلك في نهاية الأمر غياب كلي للنقد، ينتج عنه غض الطرف بشكل أعمى وبالتالي نقص في المتعة التي يمنحها الفن (الذي لا يمكن تمييزه إلا بواسطة ذوق وتمييز دقيق ينبعان من تلبية فظة لحاجة ما). والحالة أنه كلما نقصت المتعة، كلما عادت الرغبة في الفن، بشكل استعادي، شهية مبتذلة، يسعى الفنان إلى خداعها بأغذية تزداد فظاظتها.

29. في الجثمانية.

أشد الكلمات إيلاما التي يستطيع المفكر أن يوجهها إلى الفنانين هي :« ألا يمكنكم أن تسهروا معي ساعة؟»

30. في الحرفة.

في مقابل البعض الذي يجد لذة في حل ربطة الأشياء وفك نسيجها نجد آخرين كثيرين (كل الفنانين والنساء مثلا) يعملون على إعادة ربطه وتعقيده باستمرار، جاعلين مما كان مفهوما شيئا غير مفهوم، وإن أمكن، شيئا يستحيل فهمه. أيا تكن نتيجة ذلك فإن المادة التي تم نسجها وعقدها ستظل وسخة شيئا ما لأن الكثير من الأيادي تعمل فيها وتتجاذبها.

31. في بيداء العلم.

تظهر للعالم أثناء جولاته المتواضعة والمتعبة، والتي تكون في الغالب أسفارا قسرية في البيداء، تظهر له بعض من تلك الشهب اللامعة التي يسمونها «أنساقا فلسفية»: إنها تظهر له حل كل الألغاز وأعذب جرعة من إكسير الحياة الحقيقي قريبين جدا، وذلك من خلال قوة سحرية في الوهم. يكاد وهو متعب، والنشوة تملأ قلبه، يبلغ بغيته من وراء كل الآلام التي تحملها بعناد من أجل العلم بحيث أنه يمضي قدما بشكل لا شعوري. وأما ذوو الطباع الأخرى فإنهم يتوقفون كما لو أن السراب الجميل قد أذهلهم : تلتهمهم البيداء فيموتون من أجل العلم. وآخرون، وقد عرفوا تلك المواساة الذاتية، تستولي عليهم ولا شك ضغينة شديدة ويلعنون الملوحة التي يخلفها في الفم ظهور تلك الشهب، والتي تولد ظمأ شديدا ـ دون أن يقتربوا مع ذلك، ولو خطوة واحدة، من أي نبع كان.

32. «الواقع الحقيقي» المزعوم.

حين يصف الشاعر مختلف أنواع المهن، كمهنة قائد الجيش مثلا، أو نساج الحرير، أو البحار، فإنه يتظاهر بأنه يعرف هذه الأشياء حق المعرفة وأنه ماهر فيها، بل أكثر من ذلك، إنه يتصرف، حين يمر إلى تفسير أفعال الإنسان ومصيره، كما لو أن نسيج العالم قد تم نسجه وبسطه أمامه، وهو بهذا المعنى دجال، وهو دجال يخدع جمعية الجهال، وذلك بالضبط هو سبب نجاحه : يمدح أولئك الناس معرفته الأصلية والعميقة ويدفعونه في نهاية الأمر إلى أن يتصور أنه يعرف الأشياء جيدا مثله مثل من خبرها ومن يصنعها، بل مثل العنكبوت الكبيرة ناسجة الكون نفسها، ليصير في نهاية المطاف صادقا يؤمن

بصـدقه. بل إن الأشـخاص المرهفي الحس يقـولون له في حضـوره بأنه يمتلك الحـقيـقة والصـدق السامـيين، وذلك لأنه يحـدث لهم أن يملوا الواقع فيـستقـبلون حلم الشاعـر كاستراحـة، كليل مريح للرأس والقلب. ويبدو لهم ما يظهره ذلك الحلم ذا قيمـة كبيرة لأنهم يجدون فيـه، كما أسلفنا، راحة كبـيرة : والناس دائمايعتقـدون أن المظاهر الغالية تكون حقيقـية وواقعية. أما الشعراء الواعـون بقوتهم فيسعون عن قصد إلى أن يعـيبوا ما اعتاد النـاس تسميته بالواقـع، إلى وسمه بالمشكوك فيـه، بالخادع، بالمزيف، بأنه كله إثم ومعـاناة ووهم. إنهم يستـفيدون من كل الشـكوك التي هي على تخوم المعـرفة،من كل مبـالغات الشكوكية، كـي ينشروا على الأشياء حُـجُبَ اللايقين، وهم يفترضـون، بعد ذلك الحَـجْبِ، أن الناس يرون في شعـوذتهم وفي سـحرهم النـفسي، دون أن ينتبهـوا لذلك، طريق «الحقيقة الحقة»، طريق «الواقع الحقيقي».

33.إرادة أن تكون عادلا وقاضيا.

يقـوم شوبنهـاور، الذي لم تعـان حدة ذهنه الكـبيـرة بخصـوص المسـائل الإنسانيـة والمفرطة في الإنـسـانية ولا واقـعيتـه الأولية من فـرو الفهد المبـرقش الذي يغلف فلسفـته الميـتافـزيقيـة (ينبـغي البدء بتـجـريده منه كي نكتـشـف تحتـه عبـقـريا أصيـلا في ميـدان الأخلاق)، يقـوم بالتمييـز التالي الذي يجعله على صـواب بقدر أكبر من الذي يعـترف به : «إن مـعرفـة اللزوم الدقيق في الأعـمال التـي يأتيهـا الإنسان هي الخط الفـاصل بين العقول الفلسـفية وماعداها من العـقول.» إلا أنه كان يناقض تلك المعرفة الأسـاسية التي توصل إليها عبر مراحل، كان يناقضها في ذاته بذلك الحكـم المسبق الذي كان يتقاسمه مع الناس الأفاضل (وليس مع الأخـلاقيين) والذي يقدمـه بطريقة بسيطة جدا وسـاذجة كـما يلي :«يجب حـتمـا أن يرتبط آخـر وأصح وعي بخصـوص جوهر الأشـياء كلهـا ارتبـاطا وثيـقـا باكـتـشـاف المدلول الأخـلاقي للسلوك الإنـسـانـي»، ـ وهو شيء ليس باللازم إطلاقـا، بل تدحضـه الأطروحـة السـالفـة التي تقول بـلزوم الأعمـال التي يأتيهـا الإنسـان، أي بغيـاب الحرية واللامـسؤوليـة المطلقتين للإرادة. فـما سـتتـميـز به العـقول الفلسفية عن الأخرى إذن هي شكوكيتها بخصوص المدلول الميتافزيقي للأخلاق : وهو مـا قد يفـصـل بينهـمـا بهاوية لا تكـاد الهاوية التي تـشتكي منهـا كـثيـرا والفـاصلة بين «المثـقـفين» و«غير المثـقـفين»، مـثلمـا هي الآن، لا تكاد تعطينا ولـو فكرة عن عـمقـهـا السحيق. لا بد، بكل تأكيد، من الإقرار بلاجدوى كثير من الأبواب الخفية التي اختص بها ذوو «العقول الفلسفية» أنفسـهم، مثل شوبنهاور نفسـه : لا تؤدي أية منها إلى الهواء الطلق، إلى هواء حـرية الاختيـار. لقد كانت كـل واحدة من تلك التي كانوا يـتسللون

منها حتى الآن تظهر دائما خلفها حائطا برونزيا لامعا، إنه حائط القدر : إننا في سجن، ولا يسعنا إلا أن نحلم لا أن نحرر أنفسنا. إن مواقف أولئك الذين لا يزالون يقفون في وجه تلك المعرفة ويستمرون في خوض الصراع ضدها وحركاتهم البهلوانية اليائسة والغريبة تظهر أنه لا يمكن التمرد على تلك المعرفة طويلا. ـــ هذا هو، على وجه التقريب، ما قد وصلوا إليه الآن :« هكذا إذن، ليس هناك أحد مسؤول عن أفعاله؟ وكل الناس خاطئون وآثمون ؟ لكن الآثم لا بد أن يتواجد في مكان ما : إن لم يعد الآن ممكنا ولا مسموحا به اتهام الفرد ومحاكمته، ذلك الفرد الذي يعتبر موجة صغيرة في خضم تدفق الصيرورة اللازم، فليكن، وسيكون التدفق ذاته، ستكون الصيرورة هي الآثمة، وهنا تكمن حرية الإختيار، وهنا يمكننا أن نتهم، أن نُدين، أن نؤدي الثمن وأن نُكَفِّر : ليكن الإله هو الآثم والإنسان هو مخلصه، ليكن تاريخ العالم خطأ وإدانة للذات وانتحاراً، ليتحول المجرم إلى قاضي نفسه، وليتحول القاضي إلى جلاد نفسه.» هذه المسيحية بالمقلوب (وأي شيء غير هذا ؟) هي آخر طعنة توجهها العقيدة الأخلاقية المطلقة وعقيدة الغياب المطلق للحرية، ـ ولو أن تلك الطعنة لم تكن سوى تكشيرة منطقية، سوى حركة بذيئة من حركات العقل الباطن (subconscient)، لو كانت أكثر من ذلك لكان شيئا فظيعا، شيئا مثل التشنج القاتل الحاصل في قلب يائس في بحثه عن الخلاص، قلب يهمس له الجنون :«انظر، أنت الحمل الذي يحمل خطيئة الإله.» ـ الخطأ لا يكمن فقط في هذا الشعور :« أنا مسؤول »، بل كذلك في نقيضه: «لست مسؤولا، ولكن يجب أن يكون هناك شخص مسؤول، أيا كان.» ـ وهذا بالضبط ليس صحيحا : على الفيلسوف إذن أن يقول مثل المسيح :«لا تحكم أبدا !»، والفرق الأخير بين ذوي العقول الفلسفية وبين ما عداهم هو كون الأوائل يريدون أن يكونوا عادلين، بينما الآخرون يريدون أن يكونوا قضاة.

34. تضحية.

أتظنون أن ميزة العمل الأخلاقي هي التضحية ؟. اسألوا أنفسكم إن لم يكن كل عمل نقوم به بتبصر عملا ترافقه تضحية سواء كان عملا سيئا أو حسنا.

35. ضد من يسبرون عمق الأخلاقية.

يجب أن نعرف أحسن وأسوأ ما يقدر عليه المرء، من حيث الفكر ومن حيث العمل، لكي نحكم على مدى قوة طبعه الأخلاقي وعلى مدى القوة التي صار عليها. والحال أن معرفة ذلك عن تجربة شيء مستحيل.

36. الدفاع عن النفس.

إننا لا نعرف ما إن كنا سنهب للدفاع عن أنفسنا أو لا إلا حين يدوس أحد ما على كرامتنا. أما المرأة أو الأم فستقولان : قبل أن يسيء أحد إلى حبيبي، إلى طفلي. إن غياب بعض التجارب يحدد طبعنا أكثر مما تحدده التجارب التي نقوم بها.

37. الخداع في الحب.

ننسى أشياء كثيرة من ماضينا ونطردها من ذهننا عمدا : وذلك يعني أننا نريد لصورتنا، التي يشع علينا بريقها من عمق الماضي، أن تخدعنا، أن تجامل كفاءتنا، ــ إننا نعمل باستمرار على جعل أنفسنا تعيش هذا الوهم. ــ والآن تعتقدون، أنتم الذين تتحدثون كثيرا عن «نسيان الذات في الحب» و«اندماج الأنا في شخص آخر»، وتمدحونهما، أن ذلك شيء مخالف تماما ؟ إننا نكسر المرآة، نتخيل أنفسنا وقد حللنا في شخص نحن معجبون به، نستمتع آنذاك بصورتنا تلك، نطلق عليها في ذات الوقت اسم الشخص الآخر، ــ وتزعمون أيها الغريبو الأطوار أن تلك الظاهرة ليست وهما نمارسه على الذات، أنها ليست أنانية ! ــ إنني أعتقد أن أولئك الذين يخفون جزءا منهم عن أنفسهم وأولئك الذين يخفون أنفسهم كلها عن أنفسهم سواء، وذلك لكونهما يسرقان من كنز المعرفة : إننا نستخلص من ذلك بشاعة الجريمة التي تحذرنا منها قولة : «اعرف نفسك بنفسك».

38. إلى من ينكر غروره.

إن الذي ينكر غروره عادة ما يكون فيه غرور فظ جدا بحيث أنه يغض عنه الطرف فطريا حتى لا يزدري نفسه.

39. كيف يصير البلداء في الغالب أشرارا.

يواجه قلبنا اعتراضات الخصم التي يعجز عقلنا عن استيعابها بإثارة الشك حول أسبابها.

40. فن الاستثناء الأخلاقي.

مثلما نشتري من الفجر شيئا من حين لآخر ونحن نخشى أن يسرقوا منا أكثر مما نربح، كذلك لا ينبغي لنا أن نولي اهتماما لفن يبرز الحالات الاستثنائية في الأخلاق ويمجدها، تلك الحالات التي يصير فيها الخير شرا والجور عدلا.

41. استعمال وعدم استعمال السموم.

إن ما منع الناس بشكل حاسم، عبر العصور، من تحسي السم ليس كونه يقتل، بل لأن له ذوقا لا يستساغ.

42. العالم خاليا من الإحساس بالذنب.

لو أن الناس لم يرتكبوا من الأعمال إلا تلك التي لا تورث إحساسا بالذنب لاستمر عالم الناس يبدو شريرا وبئيسا، لكنه لن يبدو مرضيا ومثيرا للشفقة مثلما يبدو الآن. ـ لقد عاش في كل العصور كثير من الأشرار الذين لا ضمير لهم : والمتعة التي تمنحها راحة الضمير تنقص الكثير من الناس الطيبين الكرماء.

43. أصحاب الضمير الحي.

تريح الناس طاعتهم لضميرهم أكثر مما تريحهم طاعتهم لذكاءهم : ذلك لأن الأولى تحمل في طياتها العذر والمواساة في حالة الفشل، ـ كما أن هناك دائما عددا أكبر من ذوي الضمائر الحية مقارنة مع الأذكياء.

44. طرق متعارضة لتفادي المرارة.

هذا يجني فائدة من قدرته على تخفيف غيظه بالكلمات : إنه يهدئ نفسه بالثرثرة. وآخر يؤدي به إفصاحه بحرية إلى طفاح المرارة، ويجدر بمن يريد أن يكون ممتنا له أن يبتلع شيئا منها، إن الإكراه الذي يمارسه هؤلاء الناس على أنفسهم أمام أعدائهم أو رؤسائهم يصلح طبعهم ويمنع اللذوعية والغيظ من التسرب إليه.

45- لا تفرطو في حمله محمل الجد.

إن إنسلاخ جلدنا من فرط تمددنا في الفراش شيء مزعج، لكنه لا يصلح برهانا ضد جودة العلاج الذي من أجله وصف لنا الطبيب لزوم الفراش. فالذين عاشوا طويلا خارج أنفسهم ثم عانقوا حياة فلسفية داخلية ومنزوية يعرفون أن هناك جروحا تصيب الروح والعقل من لزومهما الفراش. ليس ذلك إذن دليلا شاملا نقدمه ضد أسلوب الحياة الذي اخترناه، لكنه هو الذي يجعل، مع ذلك، بعض الاستثناءات البسيطة والانتكاسات الظاهرة ضرورية.

46. «الشيء في ذاته» الإنساني.

الشيء الأكثر قابلية للإنجراح، والأكثر استعصاء على الانهزام، هو الغرور الإنساني : حتى الجراح تزيد قوته التي قد تبلغ في نهاية المطاف حجما هائلا.

47. هرجة (Farce) أغلب العاملين.

إنهم ينتهون، بواسطة الإفراط في العمل الشاق، إلى أن يكون لهم وقت فارغ لا يعرفون ما يصنعون به سوى عد ساعاته في انتظار مرورها.

48. التلذذ كثيرا.

لا شك أن الذي يلتذ كثيرا هو رجل طيب، لكنه قد لا يكون أذكى الناس، وإن كان يملك بالضبط ما يطمح إليه أذكى الرجال من وراء ذكائه.

49. أمام مرآة الطبيعة.

ألا نكون قد وصفنا إنسانا بدقة متناهية حين نقول بأنه يحب التجوال وسط حقول القمح الناضجة، بأنه يفضل في الغابات والأزهار ألوان الخريف الباهتة والذاوية على ما سواها لأنها توحي له بجمال أكثر من الذي توحي به الطبيعة، بأنه يشعر وهو يمشي تحت أشجار الجوز الكثيفة الأوراق كأنه بين أقرب أقاربه، بأن فرحته الكبرى حين يصعد الجبل هي العثور على تلك البحيرات الصغيرة النائية التي تبدو كأنها تنظر إليه بعيون الوحدة ذاتها، بأنه يحب الهدوء الرمادي في الضباب الغسقي الذي ينسل، عند بداية أمسيات الخريف والشتاء، إلى النوافذ ويخنق كما لو كان تحت ستار من فرو كل الأصوات التي لا حيوية فيها، بأنه يشعر وكأن الصخور الخام هي آثار شاهدة تدل على غابر الأزمنة التي تسعى إلى البوح،بأنه يبجلها منذ طفولته، وأخيرا بأن البحر غريب عنه وسيظل غريبا عنه بجلده المتحرك مثل جلد الحية وبجماله الذي يشبه جمال السباع ؟ ــ أجل، إن ذلك يصف شيئا من ذلك الإنسان بكل تأكيد، لكن مرآة الطبيعة لا تعكس ما قد يكون في هذا الإنسان نفسه، بكل إحساسه الغزلي (وليس بالرغم عنه)، من أنانية، من شح ومن غطرسة. لقد وضع هوراس، الذي كان بارعا في تلك الأشياء، أرق مشاعر الحياة البرية في روح مراب روماني وعلى لسانه بقولته الشهيرة : ما أسعد من لا تشغله الأعمال.

50. قوة بدون انتصارات.

المعرفة الأقوى (معرفة تبعية الإرادة الإنسانية) هي الأكثر فقرا، رغم قوتها، من حيث الإنتصارات : لأن لها دائما عدواً أقوى هو الغرور الإنساني.

51. المتعة والخطأ.

هذا يحسن إلى أصدقائه اضطرارا بإبداء كينونته ذاتها لهم، وآخر يحسن إليهم طوعا من خلال قيامه ببعض الأعمال. مهما تكن الطريقة الأولى في الإحسان هي

الأنبل فإن الطريقةالثانية وحدها هي التي يتم ربطها براحة الضمير وبالمتعة، بمتعة تبرير المرء لسلوكه من خلال أفعاله، تلك المتعة المبنية على الإيمان بحرية الإحسان أو الإساءة كما نشاء، أي على الخطأ.

52. من الجنون أن نسيئ للغير.

يصعب علينا تحمل الأذى الذي تسببنا فيه للغير أكثر من تحمل الذي تسبب له فيه شخص آخر (ليس لأسباب أخلاقية بكل تأكيد)، فالقائم بالفعل هو الذي يعاني دائما من فعله، مهما يكن قليل التأثر سواء بتبكيت الضمير أو بملاحظته أنه يستعدي المجتمع ضده بفعله ذاك فيجد نفسه معزولا من جرائه. وهكذا، على المرء أن يحترس من ظلمه الناس أكثر من احتراسه من التعرض للظلم، حتى وإن لم يكن ذلك سوى لمصلحة سعادته الداخلية، أي لكي لا يحرم نفسه من رفاهيته، وذلك بمنأى عن كل تعاليم الدين والأخلاق : لأنه في حالة تعرضنا للظلم تواسينا راحة الضمير، يواسينا أمل في الإنتقام، أمل في إشفاق العادلين علينا ورضاهم عنا بل في إشفاق ورضا المجتمع كله الذي يخشى الشرير، هناك كثير من الناس يتقنون المكر بأنفسهم، وهم على قدر من اللؤم يسمح لهم بتحويل ظلم اقترفوه إلى ظلم اقترفه الغير، ويحتفظون لأنفسهم، بغية التبرؤ مما اقترفته أيديهم، بالحق الإستثنائي في الدفاع عن النفس، كي يتمكنوا بذلك من حَمْلِ عبئهم بسهولة.

53. الحسد المعلن والخفي.

عادة ما يشرع الحسود العادي في الصياح بمجرد ما يحقق المحسود نجاحا ما : لأن ذلك يخفف عنه ويهدئه. غير أن هناك حسدا أعمق : فالحسود من هذا الصنف يلتزم صمت القبور، ولكن غضبه يزداد أكثر فأكثر حين يرى أن الأفواه التي تمناها أن تلزم الصمت لم تفعل، مما يعني أن الحسد الخفي ينمو وسط الصمت.

54. الغضب جاسوس.

يغترف الغضب من أعماق النفس ويكشف مكنوناتها أيضا. فإذا لم نستطع أن نرى بوضوح ما يدبره الناس ضدنا وما يظنونه بشأننا فإنه يجب علينا أن نسعى إلى إغضاب كل محيطنا بما فيه من أصدقاء وخصوم بغية التوصل إلى معرفة ذلك.

55. الدفاع أصعب أخلاقيا من الهجوم.

إن أروع عمل بطولي يقوم به الإنسان الطيب ليس هو مهاجمة القضية مع استمراره في محبة الشخص، بل هو الدفاع عن قضيته هو دون أن يتسبب أو يريد التسبب في

معاناة مريرة وعميقة للشخص الذي يهاجمه، وهذا شيء شديد الصعوبة. سيف الهجوم عريض، وسيف الدفاع ينسل عادة مثل إبرة.

56. صادق مخالف للصدق.

الرجل الذي يكون صادقا مع نفسه أمام الملأ يجني الغرور من ذلك الصدق : لأنه يعرف جيدا لماذا هو صادق، ــ إن سبب صدقه قد يجعل شخصا آخر يفضل الحيلة والموارية.

57. جمار.

إن إغراق شخص آخر بجمار الندم غالبا ما لا يقوم على أسس صلبة ويساء فهمه، لأن ذلك الآخر يعرف هو بدوره أنه على حق ويكون قد فكر من جانبه في تكديس الجمار.

58. كتب خطيرة.

يقول أحدهم :«هذا كتاب ضار، إني أرى ذلك من خلال تأثيره علي.» فلينتظر قليلا، ولربما سيعترف يوما بأن ذلك الكتاب نفسه قد أسدى له خدمة كبيرة بأن أخرج إلى النور مرض قلبه الذي كان خفيا. ــ فتغيير الرأي لا يغير شيئا (أو شيئا قليلا جدا) من طبع الشخص، لكنه يسلط الضوء على بعض الجوانب من شخصيته التي ظلت في منطقة الظل حتى ذلك الحين، مبهمة، ومتبنية آراء مخالفة.

59. شفقة مصطنعة.

نتصنع الشفقة حين نريد أن نبدو متعالين عن الشعور العدائي : لكن ذلك عادة ما يكون دون جدوى. وإننا لا نتنبه لذلك دون أن يعاودنا ذلك الشعور بقوة.

60. آثار التناقض المفتوح التوفيقية.

في اللحظة التي يخبر فيها شخص ما الجمهور بالأسباب العقائدية التي تفصله عن معلم أو زعيم حزب مشهورين، فإن كل الناس يعتقدون أنه يحقد حتما على المعلم أو على الزعيم. أحيانا، مع ذلك، تكون تلك اللحظة بالضبط هي التي يكف فيها عن الحقد عليه : إنه يتجرأ على الوقوف جنبا إلى جنب مع المعلم أو الزعيم ومن ثمة يجد نفسه وقد تخلص من عذابات الحسد المكبوت.

61. رؤية المرء نوره يسطع.

في حالة مظلمة بفعل البلية والمرض والإحساس بالإثم نحب أن نرى أننا نضيء على الآخرين أيضا ونحب أن يروا فينا الجانب المضيء من القمر. بهذه الحيلة نساهم في ملكة الإنارة التي لدينا.

62. فرحة مشتركة.

تتصور الحية التي تلدغنا أنها تؤذينا وتفرح لذلك، إن الحيوان، مهما يكن وضيعا، يستطيع أن يتصور الألم لدى الغير. لكن تصور فرحة الغير ومشاركته إياها يعتبر مزية كبرى لدى الحيوانات الراقية، لكن النخبة منها هي وحدها القادرة على ذلك. فهو إذن فعل إنساني نادر : وإن كان هناك بعض الفلاسفة الذين أنكروا الفرحة المشتركة.

63. حمل متأخر.

إن الذين ينتجون أعمالهم الأدبية ومآثرهم دون أن يعرفوا كيف حصل ذلك يعرضونها، كالبضائع وقت إنتاجها، ليبرهنوا بذلك، بعد فوات الآوان، على أنها نتاجهم وليست نتاج الصدفة.

64. قاس بسبب الغرور.

مثلما يكون العدل في الغالب قناعا يحجب الضعف كذلك فإن لجوء الناس العاديين الضعفاء إلى الإخفاء أحيانا يكون بدافع الغرور، ويكون الغرض من تصرفهم بظلم وقسوة أمام الملأ هو إعطاء انطباع بأنهم أقوياء.

65. إذلال.

لو وجد أحدهم في كيس من المنافع مثقال ذرة من الإذلال فإنه لن يتحمل تلك المنافع.

66. الدرجة القصوى للتبحر في العلم.

قد يكون هناك علماء متبحرون يحرقون المعابد التي أقيمت خصيصا لتعبد فيها تماثيلهم.

67. عالم اسم التصغير.

إن كون الضعف والبؤس يخاطبان القلب يخلق لدينا عادة التعبير بأسماء تصغير وبعبارات ناقصة عن كل ما يخاطب عقلنا، أي : عادة اعتباره، فيما يخص إحساسنا، شيئا ضعيفا وبئيسا.

68. نوع رديء من الشفقة.

ترافق الشفقة بذاءة خاصة : بما أنها تريد أن تغيث الآخرين فإنه لا شيء يحرجها، لا وسائل الشفاء ولا طبيعة المرض وسببه، لذلك تنقض بمرح، بعلاجاتها التي تشبه علاجات امرأة مسنة، على صحة مريضها وسمعته.

69. تطفل.

هناك أيضا تطفل بخصوص الكتب، ودخول المرء، وهو مايزال شابا، في علاقة حميمة مع أشهر الأعمال الأدبية على الإطلاق ليفلدها مع رفع الكلفة يعتبر دليلا على غياب تام للحياء لديه. ـ وهناك آخرون يتطفلون بدافع الجهل : فهم لايعرفون من يواجهونه، ـ مثلما هو الحال بالنسبة لفقهاء اللغة الشبان والشيوخ في علاقتهم مع الأعمال الأدبية الإغريقية.

70. الإرادة تخجل من الذكاء.

إننا نقوم، ببرودة كاملة، بمشاريع معقولة ضدا على أهوائنا، ولكننا نرتكب بعد ذلك أفدح الأخطاء في حق هذه المشاريع لأننا غالبا ما نخجل، لحظة تطبيق ما صممناه، من تلك البرودة المتروية التي صممناه بها. وهكذا نكون قد وقفنا ضد العقل من خلال تلك المروءة المغضبة التي يحويها كل هوى.

71. لماذا لا يعجب الشكوكيون الأخلاق.

إن الذي يمتلك فكرة مغالية وعنيدة عن أخلاقيته يستشيط غضبا ضد المتشككين في الأخلاق : لأنه يفهم ،هناك حيث يستخدم كل طاقته، بأن الناس سيندهشون وليس أنهم سيتحرون ويشُكون. ـ هناك أناس يشكل الإيمان بالأخلاق آخر البقايا في طباعهم، وهم يتصرفون بنفس الطريقة مع المتشككين، وربما بانفعال أكبر.

72. خجل.

كل الأخلاقيين خجولون، وذلك لأنهم يعلمون أن الناس يعتبرونهم جواسيس وخونة بمجرد ما يدركون ميلهم، بعد ذلك يصيرون واعين تما بأن النشاط في العمل ينقصهم، لأنهم حين يكونون منهمكين في العمل فإن دواعي تصرفهم تكاد تصرف أشباههم عن العمل.

73. خطر على الأخلاقية العامة.

الرجال الذين يجمعون بين الشهامة والصدق يتمكنون من تمجيد كل شيطنة يثيرها صدقهم ومن تمجيد حركة ميزان الحكم الأخلاقي بعض الوقت.

74. أشد الأخطاء مرارة.

يشعر المرء بإهانة ما بعدها إهانة إذ يكتشف أن الشخص الذي كان يعتقد أنه محبوب لديه لم يكن يعتبره إلا كقطعة من الأثاث، كشيء للزينة يمكن لرب البيت أن يُسَلي به غروره أمام ضيوفه.

75. الحب والثنائية.

الحب هو أن ندرك أن شخصا آخر يحيا ويشعر ويتصرف بطريقة مخالفة لطريقتنا، بل بطريقة مناقضة، وأن نفرح لذلك ؟ لكي يجمع الحب بين النقيضين في الفرح فإنه لا ينبغي له أن يلغيهما وينكرهما. حتى حب الذات يعتبر شرط وجوبه هو الثنائية (أو التعددية) المتعذر اختزالها في شخص واحد.

76. تفسير من خلال الحلم.

إن ما لا نعرفه ولا نشعر به دائما في حالة اليقظة ـ إن كنا نشعر تجاه شخص ما بالذنب أم براحة الضمير ـ يخبرنا به الحلم بوضوح كامل.

77. التبذير.

إن ما يدفع الناس إلى التبذير ليس هو الفرح، بل غياب الفرح.

78. العقاب والجزاء.

ليس هناك شخص واحد يصدر اتهاما دون أن يفكر مسبقا في العقاب والانتقام، حتى وإن كان المتهم هو قدره أو هو نفسه. كل شكوى تعتبر اتهاما، وكل رضى يعتبر إطراء: ففي كلتا الحالتين نحمل المسؤولية لأحد ما.

79. ظالم مرتين.

أحيانا نجعل الحقيقة تتقدم من خلال اقترافنا ظلما مضاعفا، ويكون ذلك حين نرى ونصف، واحدا إثر الآخر، جانبي شيء لا نستطيع إدراكهما مجتمعين، بحيث أننا في كل مرة، ننكر الجانب الآخر أو ننفيه ونحن نتصور أن الجانب الذي نبصره هو الحقيقة كاملة.

80. حذر.

لايتصرف الحذر دائما من تلقاء نفسه بشكل متردد وخجول، بل أحيانا يتصرف وكأنه مغيظ أشد الغيظ : لقد انتشى لكي لا يرتعد.

81. فلسفة حديث النعمة.

إن أردت أن تكون شخصا ذا قيمة ينبغي أن يكون لديك احترام لظلك كذلك.

82. فن الإغتسال.

يجب أن تعرف كيف تخرج من ظروف وسخة وأنت أشد نقاء، وأن تعرف كذلك، حين تدعو الضرورة، كيف تغتسل بالماء الوسخ.

83. إهمال النفس.

كلما أهملت نفسك أكثر، كلما أهملك الآخرون أقل.

84. النذل البريء.

إنه لطريق طويل ذلك الذي يقود خطوة خطوة إلى مختلف أصناف الرذيلة والنذالة. وعند نهاية ذلك الطريق تكون غيوم الإحساس بالذنب الكثيفة قد تلاشت في سماء ذلك الذي يسلكه، فيتجول فيه بكل براءة، وإن كان سافلا.

85. إنجاز التصميمات.

يرافق إنجاز التصميمات وتصور المشاريع شعور كبير بالرضى، فالذي يقدر أن يكون طيلة حياته مصمما جيدا للمشاريع فقط سيكون إنسانا سعيدا، لكن سيلزمه، عند الإقتضاء، أن يستريح من ذلك النشاط، وذلك بأن ينجز واحدا من مشاريعه، وآنذاك سيكدر حياته الغم وزوال الوهم.

86. بماذا نرى المثل الأعلى.

كل إنسان قادر تضله مقدرته وتمنعه من النظر إلى الخارج بحرية. ولو لم يكن له حظه من النقص لما استطاع التوصل إلى أية حرية أخلاقية أو فكرية بسبب فضيلته. إن عيوبنا هي العيون التي بها نرى المثل الأعلى.

87. المدح الكاذب.

الصدق الذي يشوب المدح يخلف، بعد فوات الأوان، ندما أكثر من الذي يخلفه انعدام الصدق في الذم، وربما لهذا السبب وحده نكون، حين نبالغ في المدح، قد عرضنا حكمنا للشبهة أكثر مما نعرضه لها حين نبالغ في الذم حتى نبلغ به حد الظلم.

88. طريقة الموت غير مهمة.

الطريقة التي يفكر بها شخص ما في الموت كلما كان يفيض حيوية وقوة هي ولا شك شهادة بالغة على ما نسميه طبعه، أما ساعة موته وموقفه وهو على فراش الموت فيكادان يكونان غير ذي أهمية بهذا الخصوص. الإنهاك الذي يبلغه الوجود عند نهايته، خاصة حين يكون الشيوخ هم من يموتون، عدم انتظام أو عدم كفاية الدَّم الذي يصل إلى المخ في تلك اللحظات الأخيرة، عنف الألم الذي يكون قويا جدا في بعض الأحيان، الشيء الجديد، الذي لم يتم الشعور به من قبل، في هذه الحالة كلها يكون، في أغلب الأحيان، هو الصدمة، وهي عودة الإنطباعات والمخاوف الخرافية، كما لو أن الموت شيء رهيب يتطلب من المرء أن يجتاز أفظع قنطرة، ـ كل هذا لا يسمح لنا بأن نستخدم الموت شاهدا على الحي. وليس صحيحا كذلك أن المحتضر يكون، بصفة عامة، أصدق من الحي. ويتم جر كل الناس تقريبا، من خلال حالة المحيط الاحتفالية، من خلال الدموع الغزيرة، من خلال الدموع المكبوتة أو المسكوبة علنا، إلى أن يمثلوا ملهاة الغرور تارة بتبصر وتارة بشكل لاواعي. لاشك أن الكثير من المساكين المحتقرين يعتبرون الوقار الذي يعاملون به عند احتضارهم أجمل متعة في حياتهم كلها، وعربونا يتلقونه كتعويض على كثير من الحرمان.

89. العادة وضحيتها.

يرقى أصل العادة إلى هاتين الفكرتين : «قيمة الجماعة أكبر من قيمة الفرد»، و«لا بد من تفضيل منفعة دائمة على منفعة زائلة» اللتين يستخلص منهما أن مصلحة الجماعة الدائمة ينبغي حتما أن تتقدم على مصلحة الفرد، خاصة على رفاهيته المؤقتة، وكذلك على منفعته الدائمة، بل على بقائه. حتى وإن عانى الفرد من مؤسسة تعمل لصالح الجماعة كلها، وإن كانت سبب ضناه، وسبب هلاكه، فإن ذلك لا يهم، إذ لا بد من الحفاظ على العادة، لا بد من التضحية. لكن مثل هذه العقلية لا تنشأ إلا لدى أولئك الذين ليسوا ضحايا، ـ لأن الضحية تروج، من خلال حالتها هي، لكون الفرد قد تكون له قيمة أكبر من قيمة الجماعة، لكون المتعة الحاضرة واللحظة النعيمية قد يقام لهما وزن أكبر من سمعة كئيبة لظروف العيش السهلة والممكن تحملها. إلا أن فلسفة

روح التضحية دائما تسمع صوتها بعد فوات الأوان، وبذلك لا يغادر الناس العادة والأخلاقية، تلك الأخلاقية التي ليست سوى تأثر بمجموع العادات التي تحت إكراهاتها يحيا الناس وتتم تربيتهم ليس بصفتهم أفرادا بل بصفتهم أعضاء كل مجموع، بصفتهم أرقاما ضمن الأغلبية. ـ هكذا يحدث باستمرار أن يزيد الفرد من قيمته بواسطة أخلاقيته.

90. الخير وراحة الضمير.

هل تعتقدون أن كل الأشياء الخيرة كانت عبر كل العصور تستوجب راحة الضمير ؟ ـ لقد ظهر العلم إلى الوجود، والعلم شيء خير بكل تأكيد، دون راحة الضمير هذه، خاليا تماما من كل ما يثير الشفقة، متقدما في صمت، مستعملا حيلا، مغطيا رأسه بخمار أو قناع، مثل مجرم ودوما على الأقل حاملا مشاعر مهرب. إن لراحة الضمير مرحلة تمهيدية هي الإحساس بالذنب ـ ولكن ليس كنقيض لها : لأن كل شيء جميل قد كان في يوم ما شيئا جديدا، يبدأ مخالفا للمألوف، مضادا للعادة، لا أخلاقيا، وينهش كالدودة قلب مبتكره السعيد.

91. الظفر يبرر النوايا.

لايجب أن نخشى اتباع سبيل فضيلة ما حتى وإن تنبهنا إلى أن ما يدفعنا إلى ذلك هو الأنانية، أي المنفعة، الرفاهية الشخصية، الخوف، صحة نريد الحفاظ عليها، السمعة أو المجد. يقولون عن هذه الدوافع أنها خسيسة وأنانية، فليكن، لكن إن حثتنا على فضيلة ما، مثلا على التخلي، على الإلتزام بالواجب، على النظام، على الاقتصاد، على الإعتدال والرزانة، فلنطعها أيا تكن الصفة التي ينعتونها بها ! إن بلغنا الهدف الذي تحثنا عليه فإن الفضيلة التي نبلغها، وبفضل الهواء النقي الذي تمكننا من استنشاقه والاحساس بالرفاهية الأخلاقية الذي تخلقه لدينا، تشرف الدوافع البعيدة لأعمالنا باستمرار، وفيما بعد سوف لن تكون الأفعال التي سنقوم بها هي نفس الأفعال التي كانت نفس الدوافع تحثنا عليها فيما مضى. ـ على التربية إذن أن تخالف الفضائل، قدر المستطاع، حسب طبع التلميذ : وقد تعمل الفضيلة من أجل نفسها أنذاك، وهي صيف الروح المشمس، وتمنحنا علاوة على ذلك نضجا ورقة.

92. مسيحي باللسان لا بالقلب.

أتكون هذه مسيحيتكم إذن! ـ تثنون على « الرب وقديسيه » لتغضبوا الناس، وحين تريدون مقابل ذلك أن تثنوا على الناس تبالغون كثيرا في قولكم بأن الرب

وقديسيه سوف يغضبون من ذلك. ـ أريدكم أن تتعلموا السلوك المسيحي على الأقل مادام أدب القلب المسيحي ينقصكم.

93. صحبة الأتقياء والزنادقة، وصحبة الطبيعة.

الرجل التقي جدا لا بد أن يكون موضع احترامنا : وكذلك يجب أن يكون زنديق صادق ومقتنع بما ذهب إليه. إذا كنا نشعر صحبة رجال من هذا الصنف الأخير كما لو كنا صحبة جبل شامخ، هناك حيث منابع الأنهار الكبيرة، فإننا نشعر ونحن صحبة الأتقياء كما لو كنا تحت أشجار في كامل نموها، أشجار تبسط في هدوء ظلها الوارف.

94. قتل قضائي.

إن أكبر عمليتي قتل قضائيتين عرفهما التاريخ العالمي هما، كي نتحدث دون مواربة، انتحارين تم تمويههما جيدا. ففي كلتا الحالتين كان شخص ما يريد أن يموت، ولذلك ترك، في الحالة الأولى والثانية، يد الظلم الإنساني تقتله بالسيف.

95. «حب».

إن أبرع حيلة تعطي للمسيحية الإمتياز على الديانات الأخرى تتلخص في كلمة: كونها تتحدث عن الحب. وبذلك صارت ديانة غنائية (بينما نجد الديانتين الأخرتين اللتين أتت بهما العبقرية السامية للناس ملحميتين وبطوليتين). إن في كلمة حب شيئا غامضا يخاطب الذكرى والأمل بفصاحة بالغة بحيث أنه حتى الذكاء الضعيف والقلب البارد (froid) يشعران بشيء من هالة هذه الكلمة. إنه يجعل أشد النساء حذرا وأشد الرجال فظاظة يفكران في لحظات العمر الأقل أنانية نسبيا، حتى وإن كان إيروس (Eros)* لم يحلق بهما إلا قليلا. وقد وجد كل أولئك، وعددهم لا يحصى، الذين يعانون من نقص في الحب من طرف آبائهم، من طرف أبنائهم أو محبيهم، وخاصة الأشخاص ذووا الجنسانية السامية، وجدوا في المسيحية ما كان ينقصهم بالضبط.

96. المسيحية الكاملة.

هناك في المسيحية كذلك روح أبيقورية تنبع من فكرة كون الإله لا يستطيع أن يتطلب من الإنسان، وهو مخلوقه وصورته، إلا ما قد يستطيع إنجازه، وبالتالي تكون الفضيلة والكمال المسيحيين في متناول الإنسان وفي غالب الأمر يتحققان فيه. والحال أن اعتقاد الإنسان أنه يحب أعداءه، مثلا، (حتى وإن لم يكن سوى اعتقاد، سوى

تخيل، وليس حقيقة نفسية على الإطلاق، ولو لم يكن حبا)، يجعله سعيدا حتما مادام يؤمن بذلك حقا (لماذا ؟ بخصوص هذا سيكون لعالم النفس وللمسيحي رأيان مختلفان ولا شك). وهكذا قد تصير الحياة الأرضية حياة سعيدة بالفعل من جراء كون الإنسان يعتقد، أعني يتخيل أنه يلبي ليس فقط متطلب حب أعدائه، بل كل التعاليم المسيحية الأخرى، وأنه قد تمثل الكمال الإلهي واندمج فيه فعلا حسب الوصية القائلة « كونوا كاملين مثلما أبوكم السرمدي كامل ». وبذلك قد يحول الخطأ وعد المسيح إلى حقيقة.

97. عن مستقبل المسيحية.

قد نسمح لأنفسنا بالتخمين بشأن اختفاء المسيحية وبشأن المناطق التي تقدمت فيها البروتستانية باندفاع. لقد وعدت، مثلما نعلم، بأن تقدم، مقابل مصاريف أقل، نفس الخدمات التي كانت الكنيسة القديمة تقدمها، وهو ما يعني حذف الصلوات التي تقام للموتى، حذف الحج، حذف البذخ الكهنوتي وأشكال الترف المكلف. وقد انتشرت البروتستانية خاصة بين شعوب الشمال التي غرست جذورها في رمزية وحب أشكال الكنيسة القديمة بعمق أقل من الذي غرستها به شعوب الجنوب: فقد استمرت الوثنية الدينية القوية لدى هذه الشعوب في الحياة ضمن المسيحية، بينما شكلت المسيحية في الشمال نقيضا للدين المحلي وقطيعة معه واتخذت منذ البداية، لهذا السبب ذاته، شكلا مجردا أكثر من كونه ملموسا، ولكنه كذلك، ولنفس السبب، شكل أكثر تعصبا وعنادا في قمة الخطورة. إذا نجحنا في استئصال المسيحية من الفكر فسوف نرى على الفور أين ستبدأ في الاختفاء : هناك بالضبط حيث ستدافع عن نفسها باستماتة. في الأماكن الأخرى سوف تتراجع دون أن تنفصم عراها، سوف تفقد أوراقها ولكن لتنبت مكانها أوراق أخرى، ـ لأن الحواس وليس الأفكار هي التي ستنحاز إلى جانبها هناك. والحال أن الحواس كذلك هي التي تغذي الإعتقاد بأن نفقات الكنيسة الباذخة تخلصنا من الورطة أكثر مما تخلصنا منها موازنة دقيقة بين العناء والأجر : بكم نقدر وقت الفراغ (أو نصف الكسل) حين نكون قد تعودنا عليه ! تجيبنا الحواس بأنه علينا في عالم خال من المسيحية، أن نعمل كثيرا بحيث يكون ربح وقت الفراغ قليلا جدا، إنها تنحاز إلى جانب السحر، ونعني أنها تفضل ترك الإله يعمل عوضا عنها (نحن نصلي والرب يعمل!)

98. الهزل والصدق عند غير المؤمنين.

ليس هناك كتاب يضم بوفرة ما قد يكون عند الإقتضاء نعمة لكل فرد ويعبر عنها بكل بساطة (تلك السعادة الداخلية والمولعة بالعبادة، المتحمسة إلى درجة التضحية

بنفسها والموت من أجل إيمانها ورؤيتها للـ« حقيقة ») مثل الكتاب الذي يتحدث عن المسيح : يمكن لرجل ذكي أن يتعلم منه كل الطرق التي بواسطتها يمكن لكتاب ما أن يصير كتابا عالميا، صديقا لكل الناس، أن يتعلم بخاصة تلك الطريقة الرئيسية في تقديم كل شيء على أنه اكتشاف، وعدم تقديم أي شيء وكأنه سيأتي مستقبلا أو أنه لايقيني. كل الكتب البارزة تسعى لأن تعطي ما يشبه الإنطباع بأن الأفق الثقافي والروحي الأرحب يوجد بين دفتيها وأن كل نجوم الحاضر والمستقبل ينبغي لها حتما أن تدور حول الشمس التي تسبح في ذلك الأفق. ألن يكون لزاما على كل كتاب علمي محض، ولنفس السبب الذي يشكل قوة الكتب السالفة الذكر، أن لا يحدث سوى أثر تافه ؟ أليس محكوما عليه بأن يحيا حياة دونية وسط كائنات دنيا كي يتم صلبه في نهاية الأمر ولا ينبعث أبدا ؟ ألن يكون كل رجال العلم الصادقين، بالقياس إلى ما يعتبره المؤمنون « علمــ » هـم وروح « قدســ » هم، سوى « بلهاء »؟ هل يمكن لديانة ما أن تتطلب التخلي أكثر مما يتطلبه العلم وأن تنزع الأناني من نفسه بلا شفقة أكثر مما يفعله العلم ؟ ــ بهذا الشكل، يكون علينا الدفاع عن أنفسنا أمام المؤمنين، لأنه قلما يكون الدفاع ممكنا دون شيء من الهزل؛ إلا أن لغتنا يجب أن تكون أكثر صدقا فيما بيننا : إننا نعانق هنا حرية لا ينبغي لأولئك، مراعاة لمصلحتهم، حتى أن يفهموها. أف إذن من برنس التخلي هذا ! أف من سيماء التواضع ! إن سمت حقيقتنا أفضل بكثير ! لو أن العلم لم يرتبط بلذة المعرفة، بنفعية الاكتشافات، ففيم كان سيهمنا العلم ! لو لم يكن فيه شيء من الحب، من الإيمان، ومن الأمل ليقود روحنا إلى المعرفة، فأي شيء آخر في العلم كان سيجذبنا ؟ ولئن صح أن الأنا غير ذات قيمة في العلم فإن الأنا السعيدة والمبتكرة، بل أكثر من ذلك، الأنا الصادقة والمثابرة لها قيمة كبيرة في جمهورية العلماء. تقدير أولئك الذين يضفون التقدير على أنفسهم، فرحة الأفراد الذين نريد لهم الخير أو الذين نحترمهم، وربما مجد الشخص وخلوده المتواضع، ذاك هو الثمن الذي قد تدعيه تلك اللاشخصنة، حتى لا نتحدث عن المنظورات والجوائز الأدنى، وإن كان أغلب الناس قد أقسموا من أجلها ولازالوا يقسمون جماعة على الوفاء لقوانين هذه الجمهورية ولقوانين العلم بصفة عامة. لو أننا لم نظل، بأي مقياس من المقاييس، رجالا بلا روح علمية فأية أهمية كانت ستكون للعلم بالنسبة لنا ! إجمالا، ولنقولها بكل وضوح، بصراحة وبدون مواربة : إن المعرفة غير مهمة بالنسبة لعارف محض. ــ إن ما يميزنا عن الناس الأتقياء المؤمنين ليس نوعية إيماننا وتقوانا بل كميتهما : نحن نرضى منهما بالقليل. لكنهم سيصرخون في وجهنا بقولهم كونوا إذن راضين ولتظهر عليكم أمارات الرضى ! ــ وسنرد على ذلك بسهولة : « فعلا، إننا لسنا من غير الراضين ! ولكن أنتم، إن كان إيمانكم يجعلكم سعداء فأظهروا سعادتكم ! ملامح وجوهكم

تسيء لإيمانكم أكثر من حججنا ضده! لو أن بشارة إنجيلكم كانت بادية على وجوهكم لما احتججتم إلى المطالبة العنيدة بأن يؤمن الناس بسلطة هذا الكتاب : إن أعمالكم وتصرفاتكم لا تفتأ تجعل الإنجيل غير ذي جدوى، وينبغي لإنجيل جديد أن يتألف بفضلكم أنتم ! وبذلك يكون لدفاعكم عن المسيحية أصل في نقصان المسيحية لديكم، إنكم بمرافعتكم إنما تكتبون صك اتهامكم. وإن حدث مع ذلك وتمنيتم أن تتحرروا من عدم رضاكم عن المسيحية فخذوا بعين الإعتبار تجربة الألفي سنة، التي نعرضها كالتالي متخذة شكل تساؤل متواضع :« إن كانت نية المسيح هي أن ينقذ العالم فعلا، ألا يكون قد فشل في ذلك ؟»

99. الشاعرالدال على سبيل المستقبل.

ما يزال هناك بين أناس الوقت الحاضر قدر كبير من القوة الشعرية، تلك القوة التي لا ترهق نفسها في صياغة أشكال الحياة، ويلزم أن نحفظ ذلك المقدار، دون أن ينقص منه أي شيء، لهدف واحد،ليس لرسم نسخ عن الحاضر أو لإحياء الماضي وشعرنته، بل ليدلنا على سبيل المستقبل :ــ شريطة أن لا نفهم ذلك كما لو أن مهمة الشاعر هي، على غرار بعض طوباويي الاقتصاد السياسي، ان يعطينا صورا مسبقة عن ظروف عيش أكثر ملاءمة للأمة وللمجتمع، وكذلك عن وسائل تحقيقها. مثلما كان الفنانون في الماضي يعيدون خلق صور الآلهة باستمرار، كذلك سيعيد هو، بما لا حد له، خلق صور الانسان الجميلة، راصداً تلك الحالات التي ما تزال فيها الروح النبيلة والجميلة، دون أدنى خدعة أو رفض أو تهرب، ممكنة وسط عالمنا وواقعنا الحديثين واللذين لا تزال قادرة فيهما على الاندماج مع المواقف المتناغمة والمتوازنة، مستفيدة من ذلك ظهورها للعيان، قدرتها على البقاء، استخدام فضيلتها كقدوة، وبذلك تساعد، من خلال إثارتها للتقليد والرغبة، على خلق المستقبل، وستتميز أعمال هؤلاء الشعراء بظهورها، في الاشياء التالية، محصنة بشكل منيع ضد ريح الاهواء المحرقة : في الغلطة المتعذر إصلاحها، في الحركة التي تحطم عبقرية الانسان الشعرية، في الضحكات الاستهزائية وصرير الأسنان، في المأساوي والهزلي بمعناهما القديم المألوف، وسيجد الناس في تلك الاعمال، بجانب هذا الفن الجديد، تقليدا شاقا للقدامى وتحقيرا بشعا لصورة الانسان وقوة الشخصيات وأفعالها ورقتها وصفاءها ورزانتها الفطرية والتلقائية وتربة واحدة تطمئن القدم وتُبهجها وسماء منورة تنعكس على الوجوه وعلى المشاهد والعلم والفن وقد انصهرا في وحدة جديدة، إقامة العقل دون غطرسة ولا حسد، مع أخته الروح، وطرده الرعاية والجدية، وليس الرغبة في الانشقاق، من المعارضة، ـ كل ذلك سيشكل الجو العام والمحيط، مثل الخلفية الذهبية التي ستشكل عليها أدق فروق المثل العليا

المجسدة للوجه الحقيقي وللنبل الانساني المتنامي باستمرار. كثيرة هي الطرق التي تؤدي من غوته الى شعر المستقبل هذا، لكنها تتطلب روادا جيدين وتتطلب بالاخص قوة أكبر من التي نجدها لدى شعراء الوقت الحاضر، أعني رسامي الحيوان النصفي العديمي التبصر، رسامي نقصان الرزانة والنضج الذي تم الخلط بينه وبين القوة والطبيعة.

100. ربة الفن مثل بونتيزيلي*.

« أفضل أن أموت على ان اكون امرأة لا غواية فيها.» اذا شرعت ربة الفن في التفكير بهذا الشكل فتلك علامة على قرب نضوب فنها، الا ان ذلك قد يكون نهاية المأساة مثلما قد يكون نهاية الملهاة.

101. المنعطف المؤدي الى الجميل.

إن كان الجميل مطابقا (identique) للممتع (وهو ما كانت ربات الفن تغنيه فيما مضى) فان النافع هو المنعطف الضروري الذي يؤدي الى الجميل. وبوسعه رفض التأنيب القصير النظر الذي يوجهه له الرجال المستعجلون الذين لا يريدون الانتظار ويظنون أنهم سيصلون الى كل شيء جميل دون لف أو انعطاف.

102. ليكون عذرا لأكثر من خطأ.

الرغبة الملحة في الإبداع والنظر الدائم الذي يرصد الخارج يمنعان الفنان من جعل شخصه أفضل وأجمل، أي أن يخلق نفسه بنفسه : إلا أن يكون طموحه كبيرا كفاية كي يرغمه على أن يكون دائما، حتى في معاشرته للآخرين، في المستوى الذي يتطلبه جمال أعماله وأصالتها المتناميان. لا يملك، في كل الحالات، سوى قدر محدود من الحيوية، فكيف يمكن لما يبذله منها في سبيل نفسه أن يكون مفيدا لأعماله ؟ وبالعكس.

103. إرضاء النخبة.

حين نكون نحن وأحد الكتب أو إحدى التحف الفنية من طينة واحدة فإننا نعتقد في قرارة أنفسنا أنهما جيدان، ونشعر بالإهانة إن وجدهما الآخرون رديئين، لاذعين ومتشدقين.

104. من طينة واحدة.

حين تقوم بنفس العمل ككتاب أو تحفة فنية ما فإننا نعتقد في قرارة أنفسنا أنه لا بد أن العمل الجيد، ونشعر بالإهانة إن وجده الآخرون رديء، ذوي أصحاب نقدر أنه زائد أو متشدقين.

105. اللغة والمشاعر.

الدليل على كون اللغة لم تُعط لنا لنعبر بها عن مشاعرنا هو كون كل الأشخاص البسطاء يخجلون من البحث عن كلمات تعبر عن عواطفهم الجياشة : إنهم يعبرون عنها فقط بالحركات، وحتى ذلك يجعلهم يحمرون خجلا إذا بدا لهم أن الغير قد خمن دوافع تلك الحركات. لقد حُرم الشعراء، بشكل عام، من ذلك الحياء، وإن أنبلهم ليوجزون، رغم كل شيء، في لغة الأحاسيس ويكشفون فيها عن بعض الإكراه : والحال أن الشعراء الحساسين يكونون أغلب الوقت بلا حياء في الحياة العملية.

106. خطأ بخصوص الحرمان.

الذي لم يهجر فنا ما هجرا طويلا وتاما، وإنما يشعر فيه وكأنه في بيته، لا يستطيع أن يفهم جيدا كم نشعر بالحرمان حين نحيا دون ذلك الفن.

107. ثلاثة أرباع الطاقة.

إذا أراد أحد المبدعين لعمله أن يوحي بصحته فلا بد أن يستخدم فيه ثلاثة أرباع طاقته. أما إذ استخدم طاقته، على العكس من ذلك، إلى أقصى مداها، فإن عمله سيكون مزعجا ومسخطا بسبب توتره. كل الأعمال الناجحة يكون فيها شيء من عدم الإكتراث، مع هدوء الأبقار المستلقية في المرج.

108. الجوع المبعد.

بما أن الطعام اللذيذ لا يشبع الجائع أفضل من الطعام الرديء فإن الفنان العنيد شيئا ما لن يفكر في دعوة هذا الجائع إلى مأدبته.

109. الحياة دون فن كالحياة دون خمر.

مثل الأعمال الفنية كمثل الخمر : من الأفضل الإستغناء عنها والإقتصار على الماء، وتحويل هذا الماء دوما، بتلقائية، بواسطة شعلة باطنية، بواسطة الرقة الباطنية للروح، إلى خمر.

110. العبقرية السارقة.

تظهر العبقرية السارقة في الفنون، والبارعة في تضليل حتى أدق العقول، لدى الشخص الذي يعتبر منذ صباه، وبوقاحة، كل أملاك الغير التي لا يحميها القانون غنيمة له. والحال أن كنوز العصور والعظماء الذين مضوا مطروحة بشكل متناثر دون

حراسة، إنما تسورها وتحرسها فقط خشية موقرة لبعض العارفين بها النادرين : لكن العبقرية السارقة تتحدى مثل هؤلاء، بسبب عدم استحيائها، وتراكم ثروة تولد هي بدورها خشية وتوقيرا.

111. إلى شعراء المدن الكبيرة.

إننا حين نرى حقول الشعر في الوقت الحاضر نتنبه إلى أن بواليع المدن الكبرى قريبة منها : حتى شذى أزهارها يمتزج به شيء يدل على الغثيان والنتانة. ـ إنني أسالكم وأنا أتألم : هل أنتم في أمس الحاجة، معشر الشعراء، إلى دعوة المكر والقذارة ليكونا إشبينيكما في كل مرة يلزمكم فيها أن تُعَمِّدُوا انطباعا جميلا وبريئا ؟ هل من الضروري حتما أن تضعوا طربوش مهرج، وأن تضعوا قناعا شيطانيا على رأس ربتكم النبيلة ؟ لكن ما مصدر هذه الحاجة وهذه الضرورة ؟ إنها إقامتكم قريبا جدا من البواليع.

112. عن ملح الخطاب.

لم يفسر أحد حتى الآن لماذا اقتصد الكتاب اليونانيون اقتصادا كبيرا في استعمال وسائل التعبير التي كان غناها وقوتها الخارقين في متناولهم بحيث أن كل الكتب التي جاءت بعدهم بدت، مقارنة مع كتبهم، صاخبة، مبرقشة ومتحمسة. ـ يروى أنه كلما اقتربنا من القطب الشمالي صار استعمال الملح شحيحا، تماما كما في المناطق الشديدة الحرارة، بينما سكان السهول وضفاف المناطق المعتدلة الحرارة يستعملونه بوفرة. فهل يعود ذلك إلى كون حاجة اليونانيين، نظرا لسببين هما كون ذكائهم أبرد وأصفى من ذكائنا، وكون طبعهم الشغوف في جوهره، على العكس، أكثر استوائية من طبعنا، هل يعود إلى كون حاجتهم إلى الملح والتوابل لم تكن بنفس حاجتنا إليها ؟

113. أشد الكتاب تحررا.

كيف نذكر لورنس شتيرن في كتاب وضعناه خصيصا للعقول الحرة؟ وهو الذي بجله غوته معتبرا إياه أشد العقول تحررا في عصره ! فليرض هنا بأن نسميه الكاتب الأكثر تحررا عبر كل العصور، والذي يبدو كل الآخرين بالقياس إليه متصلبين، غلاظا، متعصبين وأفظاظا. إن ما ينبغي أن نمدحه فيه ليس هو اللحن الكامل والواضح، بل « اللحن اللامتناهي »، إذا شئنا أن نطلق هذا الإسم على أسلوب فني يتم فيه باستمرار تحطيم الشكل الدقيق و تشويهه وتحويله ثانية إلى أشكال غامضة، بحيث يصير معناه دالا على شيئين في ذات الوقت. شتيرن هو سيد الغموض، ـ هذا المصطلح الذي أعطي له، مثلما ينبغي، معنى أوسع من الذي نعطيه له حين نفكر في العلاقة بين

الجنسين. يمكننا أن نعتبر القارئ الذي يريد في كل لحظة أن يعرف بالتدقيق رأي شتيرن في شيء قارئا تائها إذا بدا وجهه أمام ذلك الشيء جديا أو باسما : لأن شتيرن يعرف كيف يعبر عن الجد وعن الهزل بنفس لعبة سيماء الوجه، كما أنه يعرف، بل يريد، أن يكون على صواب وعلى خطأ في ذات الوقت، وأن يزاوج بين العمق وبين التهريج. فاستطراداته هي في الوقت ذاته تتمة للتاريخ وتطوير له، وحكمه يتضمن كذلك سخرية من كل عقل حِكَمي، ونفوره من روح الجد يرتبط بميل إلى عدم تناول أي موضوع بشكل سطحي وظاهر. إنه بذلك يخلق لدى القارئ الجديد بهذا الإسم إحساسا بعدم اليقين فيما يخص معرفة إن كان يمشي أم هو واقف أم مستلق، إحساساً قريباً للغاية من إحساس من يحلق. إنه كاتب مرن للغاية وينقل إلى قارئه شيئا من تلك المرونة. بل أكثر من ذلك، إنه يعكس الأدوار كيفما اتفق، فتجده فجأة قارئا مثلما تجده كاتبا، كتابه يشبه عرضا داخل عرض، يشبه جمهورا أمام جمهور آخر داخل المسرح. يجب أن نخضع لمزاج شتيرن تبعا لإرادته (ولنتوقع إجمالا أن نجده دائما رحيما). — إنه لمن الغريب والمفيد أن نرى كيف رد كاتب كبير مثل ديدرو على غموض شتيرن العام هذا: رد عليه هو الآخر بغموض، هل يكون ديدرو، في كتابه Jacques le fa-taliste، قد قلد شتيرن، وأعجب به، وسخر منه، وحاكاه بسخرية ؟ — يستحيل التأكد من ذلك، وربما يكون ذلك هو ما أراده المؤلف. هذا الشك هو بالضبط ما يجعل الفرنسيين يظلمون عمل واحد من أوائل أرباب الكتابة لديهم (والذي ليس فيه ما يجعله يخجل أمام أي من القدماء أو المحدثين). ذلك لأن الفرنسيين تمنعهم جديتهم المفرطة من تذوق الفكاهة، وخاصة تلك الطريقة الفكاهية في تناول الفكاهة ذاتها. — أيكون ضروريا أن أضيف أن شتيرن يعد، من بين كل الكتاب الكبار، أسوأ نموذج، إنه الكاتب الذي لن يصلح مثلا ليحتذى به، وأن ديدرو قد أدى ثمن جرأته ؟ إن ما أراد الفرنسيون الأصلاء، وبعض الإغريق قبلهم، أن يفعلوه، وعرفوا كيف يفعلونه، في مجال النثر هو تماما ما أراده شتيرن واستطاع فعله: إنه يتسامى كأستاذ فوق كل ما يتطلبه فنانو اليراع من أنفسهم : الإنضباط،وإتمام العمل،والحزم،وثبات النوايا، والوضوح التام،والبساطة في المنهج والعمل. — يبدو، مع الأسف، أن شتيرن الإنسان وشتيرن الكاتب لم تكن تربطهما قرابة كبيرة: كانت روحه السنجابية تقفز من غصن إلى غصن بشغب جموح، وقد عرف كل ما يقع بين السامي والدنيء، لقد شغل كل المواقع التي بينهما وكانت له دائما تلك النظرة الغارقة والمتهكمة، تلك التكشيرات العاطفية. لقد كانت فيه، إن كانت اللغة تجرؤ على مثل هذا اللوم، طيبة لا تعرف الشفقة، وقد احتفظ من البراءة، في مُتع خيال باروكي، بل فاسد، بكل لطافتها الجفولة

تقريبا. إن ميزة الغموض في الروح والجسد، وميزة الفجور المتمكن من كل أعصاب الجسد وعضلاته، ربما لن تكونا قد توفرتا في أي رجل إلى حد أن تصبحا جزءا منه.

114. واقع منقح.

مثلما الناثر الجيد لا يستعمل من اللغة المألوفة إلا بعض الكلمات، بعيدا عن استعمال كل كلماتها، وهو ما يعطيه أسلوبا منقحا، كذلك فإن شاعر المستقبل الجيد سوف لن يجسد في شعره إلا العالم الواقعي، وسيضرب الذكر صفحا عن كل المواضيع المبتذلة التي تكاد تكون مستوحاة بصدق من الغرائبي ومن الخرافة، والتي كان شعراء الماضي يبرزون فيها قوتهم. إنه لن يجسد إلا الواقع، وليس أي واقع، شتان ما بينه وبين ذلك ! ـ بل الواقع المنقح !

115. أصناف الفن.

بجانب أصناف الفن الأصلية، صنف الهدوء الكبير وصنف الحركة الكبيرة، هناك صنف الفن القرف، المصاب بمرض الهدوء، وصنف الفن الهائج : وكلاهما يتمنيان أن نعتبر ضعفهما قوة وأن نخلط بينهما وبين أصناف الفن الأصيلة.

116. البطل يفقد صبغته.

يحب شعراء وفنانو الوقت الحاضر الواقعيون رسم لوحاتهم على خلفية ملتهبة بالأحمر، بالأخضر، بالرمادي وبالذهبي، خلفية من الشبقية الملتهبة، تلك الشبقية التي يبرع فيها أطفال هذا القرن. مهما يكن النظر إلى تلك اللوحات قليلا ، ما يتم من خلال عيون غير عيون هذا القرن فإن سلبيتها هي كون الشخصيات النبيلة التي يرسمها أولئك الفنانون تبدو شيئا ما خافقة، مرتعدة، ومُحَوِّمَة إلى حد أننا نظنها غير قادرة على القيام بأفعال بطولية، بل أقصى ما تستطيع القيام به هو أفعال شنيعة وتبجح يطمحان إلى البطولة.

117. اسلوب منمق أكثر من اللازم.

يظهر الأسلوب المنمق في الفنون بسبب ضعف مَلَكَة الإنشاء الناتج عن تبذير الوسائل والغايات التي يتم السّعي إليها. ـ إن عكس هذا تماما هو ما نجده أحيانا في بدايات الفن.

118. ما أجمل أن يكون الرجال قليلون.

يروي لنا التاريخ والتجربة أن البشاعة في التعبير، التي تثير الخيال بشكل خفي وتذهب به ما وراء الواقعي واليومي، قديمة جدا، وانتشارها في الفن أوفر من انتشار

الجمال فيه، أوفر من عبادة الجمال، ـ وتصير فياضة بمجرد مايتعتم الحس الجمالي. إنها تبدو، بالنسبة للأغلبية الساحقة من الناس، حاجة أسمى من الحاجة إلى الجمال، وذلك لأنها تحتوي على مخدر قوي جدا.

119. أصل تذوق الأعمال الفنية.

لو فكرنا في الأصل الأول للحس الجمالي وتساءلنا عن مختلف أشكال اللذة التي تثيرها أشكال الفن الأولى، لدى الشعوب البدائية مثلا، لوجدنا أولا فرحة فهم ما أراد قوله الغير، يكون الفن هنا نوعا من اللغز يجعل الذي يَفُكُّهُ يستمتع بسرعته في الفهم وبفطنته. ـ بعد ذلك نجد أن العمل الفني الفظ يذكرنا بما كان مفرحا في تجربتنا، ونستمتع به، في حدود ذلك، مثلا في كل مرة يشير فيها الفنان إلى الصيد، إلى النصر أو إلى الزفاف. وقد يصيبنا الموضوع المجسد في اللوحة بالذهول، قد يجعلنا نضطرب، وقد يلهينا كما يحدث حين نرى الإنتقام والخطر ممجدين. في هذه المرة نجد المتعة في الإنفعال ذاته وفي الإنتصار الذي نحرزه على الملل. ـ حتى ذكرى الأشياء التي تثير اشمئزازنا، وإن كنا قد تجاوزنا تلك الأشياء، أو إن كانت تظهرنا مهمين بالنسبة للمستمع وكأننا موضوع للفن (كما حين يصف الشاعر المنشد تقلبات بَحّار مجازف)، حتى تلك الذكرى قد تمنحنا فرحة كبيرة نعزوها آنذاك إلي فعالية الفن. إن كل الخطوط، كل النقط، كل الإيقاعات، هي لذة من نوع مهذب، لأن مثل ذلك التشابه يوقظ فينا الإحساس بنظام الحياة وانتظامها اللذين ندين لهما بكل الرفاهية التي قد نرفل فيها : القاعدة والتناغم هما ما نبجله لا شعوريا حين نبجل التناظر، وهما منبع السعادة التي فرحنا بها، وتكون تلك الفرحة نوعا من الفضل. وفقط حين نبلغ نوعا من الإشباع في هاته الفرحة الأخيرة يتولد لدينا شعور دقيق جدا بأننا قد نجد متعة في قَطع التناظر والانتظام، وهكذا حين ندفع إلى البحث عن العقل في ما يبدو لامعقولا فإن ما يعود بنا إلى ما يشبه نوعا راقيا من المتعة الفنية التي تحدثنا عنها في البداية هو نوع من الفك الجمالي للغز ما. إن الذي يتابع هذا الاختبار سيعرف نوع الفرضيات التي نتخلى عنها هنا مبدئيا لنفسر الظواهر الجمالية.

120. ليس قريبا جدا.

يعتبر تتابع الأفكار الجيدة بشكل سريع جدا شيئا سلبيا، ذلك أن بعضها يحجب البعض. ـ لذلك استعمل الفنانون والكتاب الكبار التعابير العادية كثيرا.

121. عنف وضعف.

لقد اكتشف الفنانون عبر العصور أن في العنف قوة ما وأنه لا يكون عنيفا من يريد أن يكون كذلك، كما اكتشفوا أن بعض أشكال الضعف يكون لها تأثير قوي على الإحساس. وقد استنتجوا من ذلك عددا كبيرا من الطرق الملتوية التي لا يستطيع الإستغناء عنها حتى الفنانون الكبار الشرفاء.

122. الذاكرة القوية.

يفشل أكثر من واحد في أن يصير فيلسوفا لسبب واحد هو كون ذاكرته قوية جدا.

123. التجويع بدل الإشباع.

يتصور بعض كبار الفنانين أنهم قد ملكوا روحا ما وأفعموها بفنهم،والواقع أن فنهم يجعل تلك الروح، وغالبا ما يصيبهم ذلك بخيبة أمل مريرة، أكثر رحابة واستعصاء على الإشباع إلى حد أن عشرة فنانين أكبر منهم قد يندفعون في أعماقها دون أن يشبعوها.

124. الخوف حسب الفنانين.

إن الخوف، الذي قد لا نعتقد أن الوجوه التي يرتسم عليها تستطيع أن تحيا، قد يدفع الفنانين الذين لهم ذوق منحط إلى أن يجعلوا سيماء تلك الوجوه تبدو مثل سيماء معتوه : وعلى العكس من ذلك، وانطلاقا من نفس الخوف، نجد فنانين إغريقيين من العصور الأولى يرسمون على وجوه المحتضرين والمجروحين جراحا بليغة تلك الإبتسامة التي يعلمون أنها أكبر علامات الحياة، ـ دون أن يأبهوا لتلك الأشكال التي تخلقها الطبيعة في مثل تلك الحالات من الحياة التي تمتد طويلا، الحياة التي لم يعد لها وجود.

125. لا بد من إتمام الدائرة.

الذي يتتبع فلسفة ما أو شكلا من أشكال الفن حتى نهاية مدة عمله ويحيط بهما يفهم من خلال تجربة داخلية سبب انصراف المعلمين والأساتذة بالتوالي عن هذه الطريق، بشيء من الإزدراء في الغالب، ليواصلوا المسار على طريق أخرى. لا بد من رسم الدائرة، هذا شيء أكيد، ـ لكن الفرد، حين يكون هو الأكبر، يجلس بتصلب عند نقطته من محيط الدائرة، بعناد لا يعرف الشفقة، وكأنه يريد منع الدائرة من أن تكتمل يوما.

126. الفن القديم وروح العصر.

بما أن كل فن يصير أكثر فأكثر قادرا على التعبير عن الحالات النفسية المتقلبة والرقيقة والمضطربة والإنفعالية، فإن الأساتذة المتأخرين، الذين أفسدتهم هذه المناهج، يشعرون بعدم الإرتياح أمام أعمال العصر الذهبي كما لو أن القدماء كانت تنقصهم بالضبط وسائل جعل روحهم تعبر عن نفسها بوضوح، بل ربما بعض التقنيات البدائية، ويعتقدون أن من واجبهم إصلاح ذلك، ـ لأنهم يؤمنون بتساوي كل الأرواح، بل بتطابقها. لكن روح أولئك الأساتدة القدماء كانت مخالفة تماما في الواقع، ربما كانت أعظم، لكنها كانت أبرد وأكثر ازدراء لجاذبية النزق : إن الرصانة، التناظر، ازدراء النعم والإغراءات الشهوانية، الخشونة والطهارة اللاشعوريتين؟ والحرص على تجنب الإنفعال كما لو أن الفن سيموت إذا ما خالطه، هو ما كان يشكل عقلية وأخلاقية كل الأساتذة القدماء، الذين كانوا يختارون وسائلهم في التعبير ليس عن طريق الصدفة بل حتما بنفس الأخلاقية التي كانوا يدركونها بها. فهل ينبغي والحالة هذه، وقد تم لنا التعرف على ذلك، أن نرفض للمتأخرين الحق في أن يبثوا روحهم في أعمال القدماء ليبعثوا فيها الحياة ؟ لا، لأنها إن كانت قادرة على الإستمرار في الحياة فلأننا نعيرها روحنا : وحده دمنا يجعلها قادرة على التحدث إلينا. سيتحدث التفسير « التاريخي » حقا وكأنه شبح يخاطب الأشباح. إن تشريفنا للفنانين الكبار الذين مضوا بذلك التبجيل الجبان والعقيم الذي لا يغير أدنى كلمة، أو علامة، بل يدعها مثلما كانت، أقل من تشريفنا لهم بتلك المحاولات النشيطة والمتكررة لمساعدتهم على العودة إلى الحياة من جديد. ـ لنتخيل بتهوفن وقد عاد فجأة إلى الحياة وشاهد أحد أعماله تعزف أمامه بتلك الحيوية وتلك الدقة العصبية الحديثتين اللتين تعتبران فخر أساتذة العزف عندنا، فسيكون من المحتمل بشكل أكيد أن يظل مشدوها لوقت طويل، مترددا في رفع يده ليلعن أوليبارك، وربما ينتهي إلى القول :«هذا ليس من عزفي، ليس من عزفي على الإطلاق، وإنما هو عزف يحتل موقعا وسطا، ـ عزف لا تنقصه الدقة على ما يبدو، وإن لم يكن هو العزف المطلوب بالضبط. عليكم أن تتدبروا كيف ستعزفونه ما دمتم أنتم من سيكون مرغما على سماعه على أية حال ـ والأحياء على صواب كما يقول سيلر. فكونوا على صواب إذن ودعوني أعود إلى مرقدي.»

127. ضد ثالبي الإيجاز.

إن ما يتم التعبير عنه بإيجاز ربما يكون ثمرة ومحصول كثير من الأفكار التي تم تأملها طويلا، غير أن القارئ الذي ليست له تجربة في هذا الميدان ولم يفكر فيه بتاتا

يرى في كل تعبير موجز شيئا جنينيا، كما أنه يوجه لوما إلى حذق الكاتب الذي يجرؤ على أن يقدم له وجبة من ذلك النوع من الأغذية التي لاتزال طازجة، والتي تم إخراجها من الأرض منذ وقت وجيز جدا.

128. ضد حسيري النظر.

هل تتصورون أنكم حتما أمام عمل غير مترابط الأجزاء لأن صاحبه يقدمه لكم (ولايملك إلا أن يقدمه لكم) على شكل شذرات ؟

129 . قراء الحِكم.

أسوأ قراء الحكم هم أصدقاء الكاتب، وذلك بمجرد ما يحاولون الإنطلاق من الحالة العامة إلي الحالة الخاصة التي كانت مصدرالحكمةلأنهم، بعدم تحفظهم الطفيلي، يجعلون كل العناءالذي تكلفه الكاتب يذهب أدراج الرياح، بحيث أنهم لا يجنون من ذلك، بعرضهم الأشياء بشكل أحسن أو أسوأ، سوى تلبية لفضولهم التافه، وهوما يستحقونه، عوض أن يجنوامنه حكما أو تعليما فلسفيين.

130. وقاحة القارئ

وقاحة القارئ المزدوجة في حق الكاتب هي ثناؤه علي كتابه الثاني على حساب الكتاب الأول -أوالعكس- ومطالبته الكاتب، في ذات الوقت، أن يكون ممتنا له.

131 . المثير في تاريخ الفن

إذا تتبعنا تاريخ فن ما، كتاريخ فن البيان عند الإغريق مثلا، فإننا سننتهي، ونحن ننتقل من أستاذ إلي أستاذ، متفحصين ذلك التفكيرالجلي، الدائم الحرص على الخضوع لكل القوانين و الضوابط الطوعية، قديمة كانت أم مضافة مرة ثانية، سننتهي بأن يحصل لنا توتر شديد، ندرك أنه لابد من حدوث قطيعة فكرية، وأن تركيبة طرق التعبيرالمدهشة -ونقصد في هذه الحالة أسلوب الباروك الأسيوي-، تلك التركيبة التي يقال عنها أنها غير عضوية، مموهة، ومقنعة، قد كانت يوما ما ضرورية، بل نعمة تقريبا.

132. في نظر الفنانين

إن تحمسك، أيها الرجل العظيم، للقضية التي تعرضها على الناس، يؤدي الى عجز ذكاء الكثير من الناس. إنه لشيء مهين أن تعرف هذا.لكن الذي يلتهب حماسا يتعابع شغله بأنفة وحيوية : ان لك، بهذا المعنى، عزاء في كون السعادة قد ازدادت في العالم بفضلك أنت.

133. انعدام الوعي الجمالي

المتعصبون الحقيقيون من بين أفراد عصبة فنية ما هم أولئك الذين ليست لهم موهبة إطلاقا في الفن ولا يدركون مبادىء النظرية والمهارة، والذين تحركهم الآثار الاولية لفن ما رغم ذلك. ان الوعي الجمالي لا وجود له بالنسبة لهم، وبالتالي ليس هناك ما يمكنه ان يحفظهم من التعصب.

134. الحركات التي تتطلبها الموسيقى العصرية من الروح

يمكننا ان نكون فكرة واضحة عن الهدف الفني الذي تسعى اليه الموسيقى العصرية من خلال ما نعبر عنه الآن بالعبارة القوية، ولكن غير الدقيقة، عبارة «اللحن اللا منتهي»، وذلك بتخيلنا أننا نلج البحر، بانا تدريجيا نغادر الارض الآمنة الصلبة وننتهي بان نصير تحت رحمة ذلك العنصر المتموج : يتعلق الامر بالسباحة. كانت الموسيقى القديمة حتى الآن تتطلب الرقص، في تناغمها سواء كان لطيفا أم احتفاليا أم عنيفا، وفي إيقاعها سريعا كان او بطيئا وكان الايقاع الذي لابد من الحفاظ عليه، كانت مراعاة وحدات الزمن والقوة محددة بدقة ومتوازنة، كانا يفرضان على روح المستمع تركيزا جليا ومستمرا: فقد كانت جاذبية تلك الموسيقى ترتكز على لعبة التناقض بين تيار الهواء البارد الآتي من الجلاء وبين ريح الحماس الدافئة. لقد أراد ڤاغنر نوعا آخر من حركة الروح تربطه صلة، كما أسلفنا، بالسباحة والطفو. ربما يكون ذلك جوهر ابتكاراته. إن طريقته المشهورة، الناجمة عن إرادته تلك والمستعدة لخدمتها، إن « لحنه اللامنتهي » يجهد نفسه ليقطع، بل أحيانا ليسخر من، كل تناظر رياضي بين الزمن والقوة، وإن لهذا الموسيقي باعا طويلا في ابتكار تلك التأثيرات – الصوتية – التي كان وقعها في آذان الناس فيما مضى يشبه وقع التناقضات والتجديفات الإيقاعية. لقد كان يخشى تحجر الموسيقى وتبلرها Cristallisation كان يخشى تحولها إلى أشكال معمارية، لذلك كان يعارض الإيقاع الثنائي بالإيقاع الثلاثي، وكان بشكل متكرر يدخل الإيقاع الخماسي أو السداسي، كما كان يكرر نفس الجملة الموسيقية على التو ولكنه يمططها كثيرا بحيث تتضاعف مدتها الزمنية مرتين أو ثلاثا. وقد ينتج عن تقليد سهل لهذا الفن خطر كبير على الموسيقى: فبجانب النضج المفرط في الأحساس الإيقاعي كانت الهمجية وانحطاط الإيقاع يكمنان متربصين. ويصير ذلك الخطر كبيرا حين ينحصر ارتكاز تلك الموسيقى أكثر فأكثر على فن درامي وإيمائي طبيعي تماما لا يأتي أي فن تشكيلي راق ليشكله ويهيمن عليه، فن لا يعرف أي إيقاع في ذاته وعاجز عن نقل أدنى إيقاع إلى العنصر الذي يقترن به، إلى الطبيعة الانثوية للموسيقى.

135. الشاعر والواقع.

إن ربة الشعر التي لم تولع أبدا بالواقع لن تكون هي الواقع بالفعل أبدا، ولن تمنح الشاعر سوى أطفال غائري العيون وواهني العظام.

136. الوسيلة والغاية.

في الفن لا تبرر الغاية الوسيلة: والوسائل الشريفة هنا قد تجعل الغاية شريفة.

137. أسوأ القراء.

أسوأ القراء هم أولئك الذين يتبعون طريقة الجنود النهابين : يأخذون ما قد يحتاجونه، يلطخون الباقي ويشبكونه، ثم يرغون ويزبدون ضد الكل.

138. أمارة الكاتب الجيد.

للكتاب الجيدين سمتان مشتركتان : يفضلون أن يفهموا على أن يثيروا الدهشة، ولا يكتبون للقارئ الرقيق والدقيق.

139. المزج بين الأشكال.

يدل المزج بين الأشكال، في الفن، على الريبة التي كان يشعر بها المؤلفون في موضع قوتهم. لقد كانوا يبحثون عن حلفاء، عن مدافعين، عن غطاء، كالشاعر الذي يستنجد بالفيلسوف، والموسيقي بالمأساة، والمفكر بالبلاغة.

140. الصمت.

على المؤلف أن يصمت حين ينطق عمله.

141. علامة مميزة.

كل الشعراء والكتاب المولعين بأسماء التفضيل يريدون أكثر من الذي يستطيعونه.

142. كتب هادئة.

يعتمد المفكر الجيد على قراء قادرين على أن يشعروا، بعد أن يقرأوا كتبه، بالسعادة التي يثيرها التفكير الجيد، بحيث أن الكتاب الذي يبدو هادئا ورزينا قد يظهر جيدا، إذا رأته العيون المناسبة، تحت ضوء متقزح، تحت شمس سماء الفكر، ويبدو تسلية ممتازة للروح.

143. حيلة العقول البلهاء.

المفكر الأبله عادة ما يختار كحلفاء له الإطناب والتفخيم، ويعتقد أنه بالإطناب يكتسب الخفة وسرعة الكلام، وبالتفخيم يوهم الآخرين أن تلك الميزة الخاصة به هي نتيجة لاختياره، نتيجة لقصده الفني الذي هدفه الجدارة، والجدارة تقتضي بطء الحركة.

144. عن أسلوب الباروك.

الذي لا يعرف أنه، باعتباره مفكرا أو كاتبا، قد خلق، أو تم تكوينه، للإشتغال بالجدل أو بتطور الأفكار، سيضطر للجوء إلى الأساليب البلاغية والدرامية، لأن شأنه في نهاية المطاف هو أن يجعل الآخرين يفهمونه وأن يكتسب من ذلك قوة، ولا يهم أن يتم ذلك من خلال جذب النفوس عبر سبل موحدة أو من خلال مهاجمتها كيفما اتفق، إما كراع لها و إما كقاطع طريق. يصح هذا في الفنون التشكيلية كما في فنون الشعر، فالشعور بجدل معيب أو بعدم كفاية التعبير والحكي، مضافا إلى حاجة ماسة وملحة إلى الأشكال، يخلق في تلك الفنون ذلك الأسلوب الذي نسميه أسلوب الباروك*. وحدهم أنصاف العارفين والأدعياء هم من سيشعرون على الفور، عند سماعهم هذه الكلمة، بالإزدراء. يظهر أسلوب الباروك للوجود في كل مرة يتراجع فيها الفن العظيم، حين تصير متطلبات فن التعبير الكلاسيكي كبيرة جدا، إنها ظاهرة طبيعية سنتأملها ولاشك بكآبة (فهي من طلائع الليل)، ولكننا سنتأملها، في نفس الوقت، بإعجاب بتلك الموهبة الأصيلة، موهبة التعويض في التعبير وفي الحكي. ضمن هذا الصنف يدخل اختيار المواضيع والمعطيات ذات التوتر الدرامي الشديد والتي لاتحتاج إلى الفن كي تجعل القلب يرتعش، وذلك لأن الجنة والجحيم قريبان فيها جدا من الإحساس، وتدخل فيها بعد ذلك فصاحة الأهواء والإشارات القوية، فصاحة السمو القبيح، فصاحة القوى الكبيرة، وإجمالا فصاحة الكم كما هو، ـ مثلما نرى بوادر ذلك عند مايكل أنجلو، أب أو جد فناني الباروك الإيطاليين ـ : أنوار الشفق وأنوار الوجد أو الحريق المشرقة في أشكال شكلتها تلك القوة، ثم جرأة في الغاية والوسيلة تتجدد باستمرار ويركز عليها الفنان بقوة، موجها ذلك للفنانين، وإن كان الجاهل بأصول الفن يخال أنه يرى قرونَ خصبِ فنٍ طبيعي وتلقائي تنصب انصبابا أبديا وغير مقصود، كل هذه الميزات التي يتوقف عليها أسلوب الباروك لا تكون ممكنة ولا مسموحا بها في المراحل السابقة من مراحل فن ما، المراحل الكلاسيكية وما قبل الكلاسيكية : مثل تلك الملذات تظل طويلا على شجرة الفواكه المحرمة. ـ اليوم

بالضبط، حيث تدخل الموسيقى هذه المرحلة الأخيرة، يمكننا أن نلاحظ ظاهرة أسلوب الباروك في رونق خاص ونستخلص منها بالمقارنة كثيرا من المعلومات بخصوص المراحل الماضية، لأن أسلوب الباروك قد تكرر كثيرا منذ العصر اليوناني، في الشعر، في البيان، في طريقة النثر، في النحت، كما في المعمار، مثلما نعلم ـ وفي كل مرة يكون ذلك الأسلوب، حتى وإن كانت تنقصه الأصالة الراقية، أصالة كمال بريء ولاشعوري وحماسي، يكون نعمة حتى بالنسبة لكثير ممن يشكلون نخبة عصرهم، وللأكثر جدية في ذلك العصر: ـ ولهذا السبب يعتبر، كما أسلفنا، من الغرور أن نحكم عليه بازدراء دون محاكمتة مرة أخرى، مهما يعتبر نفسه محظوظا، مع ذلك، المرء الذي لا ينهك هذا الأسلوب حساسيته ذات الأسلوب الصافي والعظيم.

145. قيمة الكتب الصادقة.

الكتب الصادقة تجعل القارئ صادقا، على الأقل باجتذاب كراهيته ونفوره اللذين عادة ما يحاول حذر ماكر جاهدا إخفاءهما. إننا نستسلم أمام الكتاب مهما يكن تمالكنا لأنفسنا أمام الناس.

146. وسائل الفن في تجنيد مناصريه.

إن كل ما سيكون في متناول أغلب الجاهلين بأصول الفن، من عمل فني ما، هي بعض المقاطع الجميلة المعزولة، السياق المثير للكتاب كله، والتساوق الأخاذ والمؤثر في النهاية، وسيحسن المبدع صنعا، أثناء المرحلة الفنية التي يريد فيها اجتذاب أكبر عدد من الجاهلين بأصول الفن ليكونوا بجانب الفنانين، أي ليكونوا بذلك حزبا، وربما لأجل الحفاظ على الفن نفسه، سيحسن صنعا إن هو لم يعط أكثر مما ذكرناه آنفا، وذلك حتى لا يؤول به الأمر إلى تبديد قواه في مجالات لن ينال عليها امتنانا. إن ذهابه بعيدا في عمله الفني، وتقليده للطبيعة في إبداعه وتركه أشكاله تنمو بشكل عضوي، سيكون في هذه الحالة كمن يحرث الماء.

147. النمو على حساب التاريخ .

كل أستاذ معاصر يجذب ذوق محبي الفن ليقتفي أثر ذوقه، عن غير قصد ويسعى إلى تفضيل الأساتذة القدماء وأعمالهم وتقديرهم تقديرا جديدا : إن فعله هذا يجعلهم يشبهونه ويمتون إليه بصلة، إنه يمنح شعورا مسبقا به ويعلن قدومه، كما أنه قد صار هو أهم شيء في أشخاصهم وأعمالهم، ـ وتلك فاكهة عادة ما تخبئ في ثناياها دودة خطأ كبير.

148. كيف نجعل مرحلة ما تفهم الفن.

لنعلم الناس، بمساعدة سحر الفنان والمفكر، احترام أخطائهم وعوزهم الثقافي وعماهم وأهوائهم التي لا معنى لها (وهذا شيء ممكن)، لنكشف من الجريمة ومن الجنون عن ذلك الجانب السامي فقط، لنظهر من عادة الفرد الذي لا إرادة له والمستسلم بلا تبصر فقط ذلك الجانب المؤثر الذي يخاطب القلوب (وقد رأينا ذلك كثيرا)، وسنكون بذلك قد استخدمنا الوسيلة المناسبة، حتى في عصر خال من الحس الفني والفلسفي، لنلهم الناس حبا يهيم بالفلسفة وبالفن (يهيم حتى بشخص الفنانين والمفكرين بالخصوص)، وقد تكون هي الوسيلة الوحيدة، في ظروف غير ملائمة، للحفاظ على وجود الإبداعات الرخيصة العود والمهددة.

149 . النقد والفرحة.

سواء كان النقد سطحيا و ظالما أم متفهمًا فإنه يمنح متعة كبيرة جدا للذي يمارسه حتى أن العالم ليدين بالعرفان لكل عمل ولكل نشاط يحثان الكثير من الناس على كثير من النقد، لأن ذلك النقد يجر وراءه ذيلا متلألئا من الفرحة، من النباهة، من الإعجاب بالذات، من الفخر، من الدروس، من العزم الوطيد على القيام بما هو أحسن. ـ إن السبب الذي جعل إله الفرحة يخلق الجيد هو نفسه الذي جعله يخلق الرديء والضعيف.

150. مجاوزة الحدود.

حين يريد فنان ما أن يتجاوز دوره كفنان، كأن يريد مثلا أن يكون هو المصلح الأخلاقي الذي يوقظ همة شعبه، فإنه ينتهي بأن يولع، عقابا له، بموضوع أخلاقي شنيع، ـ وربة الضحك: تلك الربة الطيبة قد تصير شريرة بدافع الحسد. لنتذكر ملتون (Milton) وكلوبسطوك.

151. العين الزجاجية.

إن توجيه الفنان لموهبته نحو مواضيع، أو شخصيات، أو دوافع أخلاقية، أو روح العمل الفني الجميلة، لا يكون في بعض الأحيان سوى تلك العين الزجاجية التي يضعها الفنان الذي ينقصه جمال الروح : يحقق وضعها نجاحا نادرا بحيث أنها تصير في نهاية الأمر عينا حية، إلا أن بها عاهة، لكنها تحقق تلك النتيجة الشائعة التي مفادها أن الناس يعتقدون رؤية الطبيعة هناك حيث لا يوجد إلا الزجاج.

152. الكتابة من أجل الانتصار.

ينبغي دائما أن تكون الكتابة انتصارا، وبتعبير أدق، انتصار على الذات يجب نقله إلى الآخرين لينتفعوا به، إلا أن هناك مؤلفين عسيري الهضم لا يكتبون إلا حين لا يستطيعون هضم شيء ما، بل بمجرد ما يعجزون عن مضغه : إنهم يسعون عن غير قصد، من خلال غيظهم، إلى إثارة سخط القارئ لكي يمارسوا عليه بعض السلطة، ومعنى ذلك أنهم يريدون هم كذلك أن يحققوا انتصارا ولكن على الآخرين.

153. « الكتاب الجيد يحيا طويلا ».

يكون ذوق كل كتاب جيد حين يصدر فجّا، إن فيه عيب الجدة، أضف إلى ذلك أن مؤلفه الحي يسيء إليه إن كان معروفا وكانت بعض الشائعات تروج بخصوص شخصه، وذلك لأن الناس عادة ما يخلطون بين المؤلف وكتابه. لا بد أولا لما في كتابه من نباهة، من لذة طعم ومن بريق ذهبي أن يزدهر بمرور السنين، تحت رعاية تبجيل متنام، ثم تبجيل قديم، ثم تبجيل تقليدي في الأخير. لا بد أن يمر على الكتاب أمد طويل ولا بد أن تنسج فيه أكثر من عنكبوت بيتها. القراء الجيدون يُصيرون الكتاب دائما إلى الأفضل، وخصوم الجودة يوضحونه.

154. المغالاة كطريقة فنية.

لا شك أن الفنانين يدركون ما يعنيه استخدام المغالاة كطريقة لإعطاء الإنطباع بالغنى. إنها واحدة من الحيل البريئة التي على الفنانين إتقان استخدامها لإغراء النفوس، لأن الوسائل التي تخدم المظهر في عالمهم، الذي يكون فيه المظهر هو الهدف المنشود، لا تحتاج بالضرورة لآن تكون أصيلة.

155. أرغن برباريا المخفي*.

يعرف العباقرة أكثر من الموهوبين كيف يخفون أرغن برباريا بجوخهم الفضفاض، لكن ما يعرفون فعله في الواقع هو عزف وإعادة عزف ما لديهم من الأغاني القديمة المكرورة، وهي حوالي ستة أغاني.

156. الإسم على الغلاف.

لا شك أن ظهور اسم المؤلف على غلاف كتابه قد صار من التقاليد ويكاد يكون واجبا، لكنه السبب الأساسي في كون الكتب لا تكون لها فعالية كبيرة. لأن الكتب

حين تكون جيدة تكون قيمتها أكبر من قيمة الأشخاص، فهي الجوهر، ولكن بمجرد ما يضع المؤلف اسمه بجانب العنوان يُذوب القارئ جوهر الكتاب في محلول العنصر الشخصي، بل الخاص، وبذلك لا يصيب الكتاب هدفه. إن طموح الذكي هو عدم الظهور بشكل فردي.

157. النقد الأقسى.

نوجه أقسى نقد إلى رجل أو كتاب ما حين نوافق على مثله الأعلى.

158. شيء من الحب و دونه.

يوجه كل كتاب جيد إلى قارئ محدد وإلى من هم على شاكلته، لذلك لا يتقبله القراء الآخرون، الذين يشكلون الأغلبية الساحقة، قبولا حسنا : وذلك هو سبب ارتكاز شهرته على قاعدة ضيقة، وعدم اتساعها إلا ببطء. أما الكتاب الرديء فيحظى بالقبول بسبب سعيه لنيل إعجاب الكثير من القراء، ويناله بالفعل.

159. الموسيقى والمرض.

يكمن خطر الموسيقى العصرية في كونها تقدم لنا كأس الملذات والرفعة بأغراء كبير وبمظهر من النشوة الأخلاقية كبير لدرجة أن الرجل المعتدل والشهم يشرب منها دائما بضع قطرات زائدة. لكن هذا الفارق البسيط، المتكرر باستمرار، قد يتمكن في نهاية الامر من زعزعة صحة العقل وتلغيمها بشكل أكبر بكثير مما قد يفعله أي إفراط قاس، بحيث لا يتبقى للمرء سوى أن يغادر ذات يوم مغارة الحوريات و يتجه، وهو يخوض أمواج البحر ومخاطره، نحو دخان ايثاك ومداعبات زوجة بسيطة (simple) وانسانية.

160. لفائدة الخصوم.

الكتاب الذي يفيض نباهة ينقل منها شيئا الى خصومه.

161. الشباب والنقد.

إن نقد كتاب ما يعني بالنسبة للشبان فقط منع أية فكرة بناءة من ذلك الكتاب من التسرب اليهم ومقاومتها بشتى الوسائل كالحيوان الشرس. يعيش المراهق في حالة من الدفاع الشرعي عن النفس ضد كل جديد لا يمكنه قبوله في جملته، فيرتكب في كل مرة، ومتى تأتى له ذلك، جريمة غير ضرورية.

162. نتيجة الكم.

أكبر تناقضات تاريخ الشعر هي، في كل ما يصنع عظمة الشعراء الأقدمين، كون أحد المؤلفين قد يكون همجيا، أي رجلا كله عيوب ومزيف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، دون ان يحول ذلك بينه وبين ان يكون شاعرا كبيرا. تلك، في الواقع، هي حالة شكسبير الذي، اذا ما قارناه بسوفوكليس، نراه يشبه منجما يملأه كم هائل من الذهب، من الرصاص ومن الأنقاض، بينما هذا الاخير ليس ذهبا فقط بل ذهبا مسبوكا بارفع الطرق، ويكاد ينسينا قيمته كمعدن. الا ان الكم، حين يبلغ انتاجه اقصى حدوده، يفعل فعل الكيف. وذلك ما يخدم شكسبير.

163. كل بداية خطر.

للشاعر أن يختار، إما أن يرتفع بالاحساس درجة درجة ويبلغ به في نهاية المطاف درجة عالية من القوة، وإما أن يجرب الهجوم المباغت ويقرع الجرس منذ البداية بكل ما أوتي من قوة. ولكل من الطريقتين مخاطرها : ففي الحالة الاولى سيهجره مستمعه بسبب الضجر، وفي الثانية سيهجره بسبب الذعر.

164. لصالح النقد.

تلسعنا الحشرات ليس لأنها شريرة بل لأنها تريد أن تعيش، كذلك الشأن بالنسبة لنقادنا، يريدون دمنا وليس معاناتنا.

165. نجاح الحكم.

حين تبدو إحدى الحكم لناقصي الخبرة في حقيقتها البسيطة فانهم يعتقدونها قديمة ومعروفة، وفي ذات الوقت ينظرون إلى المؤلف بازدراء كما لو أنه أراد سرقة ملك مشاع، غير أن ما يستمتعون به هو أنصاف الحقائق المتبلة، ويجعلون المؤلف يفهم ذلك. ويعرف هذا الاخير كيف يقدر ذلك الرأي الذي يمكنه من أن يخمن بسهولة حيث أفلح وحيث لم يفلح.

166. إرادة الانتصار .

الفنان الذي يتجاوز قواه في كل ما يقوم به ينتهي بأن يجر الجماعة معه، وذلك بمشهد المقاومة العنيفة الذي يظهره أمامها، لأن النجاح لا يرافق النصر وحده دائما، بل يرافق إرادة الإنتصار أحيانا.

167. الكتابة للذات.

لا يكتب المؤلف العاقل لذرية غير ذريته هو، أي لشيخوخته، وذلك كي يتمكن، حتى في سن متأخرة، من أن يمتع نفسه بنفسه.

168. تقريظ الحكمة.

لا ينال الزمن من الحكمة الجيدة شيئا، كما أن الألفيات لا تقدر على استهلاكها، وإن كانت تصلح غذاء في كل وقت. وهي بذلك تعتبرمفارقة كبيرة في الأدب، ما لا يبلى وسط كل ما يتغير، إنها المادة الغذائية التي تظل دائما محبوبة مثل الملح، ومثله أيضا لا تفقد طعمها أبدا.

169. حاجة جمالية من الدرجة الثانية.

هناك لدى الشعب شيئا مما يمكن أن نسميه حاجة إلى الفن، ولكنها حاجة خفية ولا تكلف تلبيتها الشيء الكثير. في الواقع، تكفي فضالة الفن لتلبيتها، علينا أن نعترف بذلك بكل صدق. لنتساءل فقط، على سبيل المثال، في أي الألحان والأنغام تجد طبقات شعبنا النشيطة، غير المدللة كثيرا، الساذجة، متعتها في الوقت الراهن، لنعش بين الرعاة ومربي الأبقار والفلاحين والصيادين والجنود والبحارة ولنجب عن السؤال. وفي المدينة، في تلك المنازل حيث تقيم القيم البرجوازية القديمة، القيم المتوارثة، ألا يحب الناس، بل ألا يدللون أردأ ألوان الموسيقى التي يتم تأليفها اليوم ؟ الذي يتحدث عن حاجة كبيرة إلى الفن، عن شهية فنية لم يتم إشباعها لدى الشعب كما هو، إنما يخرف أو يضلل الذين يحدثهم. كونوا صادقين ! ليس هناك اليوم حاجة جمالية من الطراز الرفيع إلا لدى الأشخاص الاستثنائيين، لأن الفن، بصفة عامة، في تراجع، ولأن الطاقات والآمال الإنسانية قد انصبت لفترة من الوقت على أشياء أخرى. ـ وفضلا عن ذلك، أعني خارج الشعب، توجد هناك ولا شك حاجة أكبر إلى الفن، حاجة أضخم، لكنها من الدرجة الثانية، لدى الطبقات ما يشبه جماعة فنية يحركها أفضل إيمان. لكن دعونا ننظر إلى العناصر المكونة لها! عناصرها في الغالب هم مرهفو الحس غير الراضين، الذين لا يعرفون كيف يحققون لأنفسهم أية متعة حقيقية : السيد المثقف غير المتحرر إلى حد يستطيع معه الاستغناء عن مواساة الدين ولا يجد مع ذلك زيته المقدس معطرا جدا، النبيل المزيف الذي لا يمكنه ضعفه البالغ من الإنقطاع عن رذيلة أساسية في حياته أو عن ميل خبيث في طبعه من خلال اعتناق ديانة أخرى أو تخل بطولي عن الدين، ذو الموهبة الكبيرة الذي يمنعه الإفراط في الإفتخار بنفسه من القيام ببعض الأعمال

المتواضعة المفيدة، أو الذي يحول كسله المفرط بينه وبين القيام بأعمال شاقة، والذي يطالب بنكران الذات، الشابة التي لا تعرف كيف تخلق لنفسها دائرة كافية من الواجبات، المرأة التي أقدمت على زواج لا يكفيها، العالم والطبيب والتاجر والموظف الذين تحملوا وظيفة خاصة في سن مبكرة ولم يرخوا العنان لطبيعتهم كلها، بل مارسوا عملهم، في مقابل ذلك، والغيظ يتأكل قلوبهم، وأخيرا، كل الفنانين الناقصين، ـ هؤلاء هم الأشخاص الذين لايزالون في حاجة فعلية إلى الفن الآن ! ماذا يطلبون من الفن ؟ أن يخلصهم لبعض ساعات ولبضع لحظات، من ضيقهم ومللهم ومن إحساسهم بالخطأ، وأن يعمل إن أمكنه ذلك على تحويل نقيصة حياتهم وطبعهم إلى عظمة بإضفائه عليها معنى نقيصة القدر الكوني ـ وهم في ذلك يخالفون كثيرا الإغريق الذين كانوا يجدون في فنهم انبثاق وطفح رفاهيتهم وصحتهم، الذين كانوا يحبون أن يروا مرة أخرى كمالهم خارجهم :ـ إن الإستمتاع بأنفسهم هو ما قادهم إلى الفن، أما معاصرونا فاشمئزازهم من أنفسهم هو الذي قادهم إليه.

170. الألمان في المسرح.

كان كوتزبو (Kotzebue) الموهوب المسرحي الحقيقي لدى الألمان، وكان يشكل وحدة متلاحمة مع ألمان الطبقة الراقية والمتوسطة من المجتمع، وكان بإمكان معاصريه أن يقولوا عنه بصدق كبير : « به نحيا، وبه نعمل ونوجد.» لم يكن في ذلك أي شيء متصنع، أي تدريب، أية لذة يكون الإستمتاع بها ناقصا أو عن طريق التقليد : لقد كان ما يريد فعله وما يعرف فعله مفهوما، بل أكثر من ذلك، لقد ظل النجاح المسرحي الصادق حتى يومنا هذا، في المسارح الألمانية، وقفا على الخجولين أو المتهتكين الذين ورثوا طرق كوتزبو وتأثيراته، خاصة وأن الملهاة قليلة الإزدهار الآن، ونتيجة ذلك هي كون قسط كبير من الطبع الألماني السائد آنذاك لا يزال حيا، خاصة بعيدا عن المدن الكبيرة. لقد كانوا، مثلما كان هو، طيبي القلب، مفرطين في المتع الصغيرة، سريعي البكاء، طموحين إلى التخلص، على الأقل في المسرح، من اتزانهم الفطري الصارم بخصوص الواجبات وأن يتسموا فيه بتسامح باسم، بل ضاحك. كانوا يخلطون بين الخير والشفقة ويساوون بينهما (تلك هي السمة المميزة للحساسية الألمانية)، كانوا يطيرون فرحا لدى رؤيتهم عملا جميلا، عملا رائعا، وفي ماعدا هذا فهم خاضعون للسلطة خضوع العبيد، يحسد بعضهم بعضا، ورغم ذلك فهم، في طويتهم، يكفون أنفسهم بأنفسهم. أما الموهوب المسرحي الثاني فقد كان هو شيلر الذي اكتشف صنفا

من الجمهور لم يؤخذ بعين الاعتبار من قبل، وجده في الأجيال التي لم تبلغ أشدها بعد، في الشابات والشبان الألمان. لقد استقبل بأعماله حماسهم السامي، النبيل، المندفع، وإن كان غامضا، استقبل ميلهم إلى طنين الجمل الأخلاقية (وهي لذة تختفي عادة ابتداء من سن الثلاثين)، وقد حقق بذلك، مصداقا لطبع تلك الفئة العمرية الشغوف ولدعوتها إلى الدين، نجاحا طال بالتدريج حتى الأجيال الأكثر نضجا، ولم يكن ذلك دون طائل : فقد عاد الألمان شبابا من جديد على يد شلير. لقد كان غوته ولايزال حتى اليوم أسمى من الألمان بكل الإعتبارات : إنه لن يكون ألمانيا أبدا. أنى للشعب أن يكون يوما ما في مستوى فن غوته الذي ينفذ بالروحانية إلى الرفاهية والإرعاء ! مثلما ارتقى بتهوفن بالموسيقى وشوبنهاور بالفلسفة ليتجاوزا الألمان، كذلك تجاوزهم غوته بنظمه TasseوIphigénie. وقد اقتفت أثره كوكبة جد صغيرة من العقول الراقية ثقافيا، التي تكونت في مدرسة القدم، في مدرسة الحياة والأسفار، والتي كبرت حتى تجاوزت تخوم الطبع الألماني، ـ وذلك بالضبط ما كان غوته يريده. ـ حين أقدم الرومانسيون بعد ذلك، وبروية، على إجلال غوته، ثم حين انتقلت مهارتهم في الشم والذوق إلى مريدي هيجل، وهم المربون الفعليون لألمان هذا القرن، حين أتت صحوة الطموح القومي لتفيد مجد الشعراء الألمان، وصار المعيار الأصيل الذي بفضله كان الشعب يعرف إن كان بإمكانه الإستمتاع بشيء ما بصدق تابعا لرأي الأفراد ولذلك الطموح القومي ـ أي حين لم يعد الشعب يجد في الشيء لذة غير اللذة الإجبارية ـ آنذاك ظهر ذلك التزيف وتلك اللاأصالة في الثقافة الألمانية التي خجلت من كوتزبو الذي عرض على خشبة المسرح سوفوكليس، كالديرون، بل حتى الجزء الثاني من فاوست غوته، والذي لم يعد يعرف، بسبب لسانه القذر وبسبب تردده، لا ما يعجبه ولا ما يضجره. ـ ما أسعد أصحاب الذوق، حتى حين يكون ذوقا رديئا! ـ ليسوا سعداء فقط، بل حكماء أيضا، ولا يمكن للمرء أن يصير حكيما إلا إذا كان صاحب ذوق، وهو ما جعل الإغريق، الذين كانوا دقيقين جدا بهذا الشأن، ينعتون الحكماء بكلمة تعني صاحب ذوق ويطلقون على الحكمة، سواء كانت حكمة فنان أو حكمة فيلسوف، اسم «ذوق» .

171. الموسيقى، آخر نتاج كل حضارة.

من بين كل الفنون التي تزدهر في حقل حضارة ما، كلما توفرت شروط اجتماعية وسياسية معينة، تكون الموسيقى هي آخر نبتة تظهر، عند الخريف، حين تذوي الحضارة التي تنتمي إليها، وفي الوقت نفسه الذي تبدو فيه في الغالب العلامات الأولى المبشرة

بقدوم ربيع جديد، وأحيانا تكون الموسيقى مثل لسان عصر غابر يصرخ في قلب عالم جديد ومذهول، إنها تأتي متأخرة. لقد كان على روح العصر الوسيط المسيحي أن تنتظر فن الموسيقيين الهولنديين لتجد صداها الكامل ،ذلك المعمار الصوتي هو الصنو الثاني للفن القوطي*، لكنه صنو شرعي ومن نفس الطراز. في موسيقى هاندل وحدها تم التغني بأفضل ما في روح لوثر وأترابه، إنه التيار البطولي اليهودي الذي تولدت عنه حركة الإصلاح. أما موزار فقد كان أول من استخرج كل ذهب لويس الرابع عشر الرنان وذهب فن راسين وكلود لوران. ووجد القرن الثامن عشر نبراته النهائية في موسيقى بتهوفن وروسيني، وهو قرن الأحلام المتحمسة والمثل المحبطة والسعادة العابرة. وقد يقول أحد عشاق المقارنات الدقيقة بأن كل موسيقى محملة بمعنى أصيل تعتبر خاتمة الإبداع. ـ ليست الموسيقى لغة عالمية، لازمانية، مثلما كرر الناس ذلك تمجيدا لها، إنها على العكس، تقابل قياسا زمنيا معينا، أي درجة معينة من النشاط والإحساس، قياسا تعترف به قانونا داخليا لها ثقافة متميزة ومحددة بدقة، ثقافة محددة في الزمان والمكان. إن موسيقى بالسترينا قد تستعصي على فهم الإغريقي، وفي المقابل، ماذا سيفهم بالسترينا Palestrina من موسيقى روسيني ؟ـ وربما تصبح موسيقانا الألمانية العصرية، في ظرف وجيز، غيّر مفهومة، رغم هيمنتها وطمعها في الهيمنة، لأنها وليدة حضارة آخذة في الإنحطاط بسرعة، ميدانها هو مرحلة الإرتكاس والإصلاح التي ازدهرت فيها، ساكبة مزيجا من العطر على أوربا، كاثوليكية الإحساس وذوق كل الفضائل الفطرية وكل الخاصيات القومية: اتجاهان من الإحساس توصلا في نهاية الأمر، وقد تم استغلال قوتهما كاملة –وتم تتبعهما إلى أقصى حدهما، إلى إسماع صوتهما من خلال موسيقى ڤاغنر. حيازة ڤاغنر للأساطير المحلية القديمة، نزوته الساعية إلى تعظيمها، حسب هواه، بآلهتها وأبطالها الغرباء بطبعهم ـ إنهم بحق سباع فيها طيف عمق، طيف سخاء، طيف نفور من الحياة ـ، الروح الجديدة التي ينفخها في هذه الكائنات التي يمنحها، علاوة على ذلك، تعطشا مسيحيا وقروسطيا إلى الشبقية الإنتشائية وإلى التجرد من الشهوات، هذه الطريقة الفاغنيرية في الأخذ والعطاء، أخذ وعطاء المواضيع، الأرواح، الكائنات والكلمات، تعبر بوضوح كذلك عن جوهر موسيقاه، بحيث أن موسيقاه هذه، كأي موسيقى أخرى، قادرة بنفسها على تكلم لغة خالية من الغموض : إن جوهرها هذا، بما يعانيه من ارتكاس، يقود الحملة الأخيرة ضد روح فلسفة الأنوار التي نفذت ريحها التي هبت من القرن الماضي إلى هذا القرن، وكذلك ضد الأفكار العالمية التي انتجتها اليوطوبيا الثورية الفرنسية،وأيضا ضد أفكار الواقعية الأنجلوامريكية المتعلقة بإعادة صياغة الدولة والمجتمع ـ والحالة هذه، أليس جليا

أن الأفكار والأحاسيس، التي تبدو مقموعة لدى ڤاغنر وتابعيه، قد استرجعت قوتها منذ زمن بعيد، وأن هذا الاحتجاج الموسيقي المتأخر ضدها يرن صداه أغلب الوقت في أذان تفضل أصواتا أخرى ؟ بحيث أن هذا الفن الراقي والرائع قد يصير ذات يوم، وبشكل مفاجئ، غير مفهوم، قد تلفه خيوط العنكبوت ويطويه النسيان. ـ يجب، مع أخذنا لهذه الظروف بعين الاعتبار، ألا نترك التموجات العابرة التي تظهر وسط حركة المجموع تضللنا، ذلك الإرتكاس داخل الإرتكاس، الإنهيار المؤقت لذروة الموجة، وهكذا قد يساهم أيضا هذا العقد من الحروب القومية، من استشهاد البابويين المتطرفين، ومن القلق الإشتراكي، بمضاعفاته الدقيقة، في المجد المفاجئ لهذا الفن الذي كنا بصدد الحديث عنه، ـ دون أن يضمن له بذلك أنه « سيكون له مستقبل »، أو أنه سيكون له المستقبل كله. ـ من طبيعة الموسيقى أن ثمارها تفقد طعمها باكرا جدا ويكون فسادها أسرع من فساد ثمار الفنون التشكيلية، أو حتى الثمار التي تنمو على شجرة المعرفة : إن أدوم وأصلب نتاجات الحس الفني لدى الإنسان هي الأفكار.

172. لم يعد الشعراء مربين.

مهما يبد ذلك غريبا في عصرنا فقد كان هناك فيما مضى شعراء ترفعت روحهم عن الأهواء، عن تشنجاتها، عن نشوتها، وكانوا بفعل ذلك يجدون لذتهم في المواضيع الواضحة والجلية، في الطباع الوقورة، في العُقد وحلول العُقد الدقيقة. إن كان أغلب كبار الفنانين في وقتنا الحاضر قادرين على إطلاق الإرادة من عقالها وقادرين من ثمة، في بعض الحالات، على تحرير الحياة، فإن الآخرين كانوا يعرفون كيف يروضون الإرادة، كيف يحولون الحيوان، كيف يجعلون من أنفسهم مبدعي الإنسان، وإجمالا كيف يجعلون من أنفسهم نحاتين يعملون على تغيير أشكال الحياة ورفعها إلى درجة الكمال : بينما يريد المعاصرون مجدهم في الرحال التي يرمون بها، في القيود التي يفكونها، في الهدم. كان الإغريق القدماء يطلبون من الشاعر أن يكون معلم الراشدين، ولكن الشاعر الذي قد نطلب منه ذلك اليوم سيخجل كثيرا، وهو الذي لم يجعل من نفسه معلما جيدا ولم يعرف بالتالي كيف يجعل من شخصه قصيدة جميلة، عملا أدبيا جميلا. إذا صح القول فإنه، في أحسن الأحوال، يكون عبارة عن أنقاض معبد، كما الخرابة، بأزهار، بنباتات شوكية، بأعشاب مسمومة، تسكنه الثعابين والهوام والعناكب والطيور، ـ إنه موضوع تأمل حزين يتساءل لماذا ينبغي اليوم أن يكبُر أنبل الناس وأعزهم فقط كي يصيروا خرابا عما قريب، دون أن يعرفوا من الكمال لا ماضيه ولا مستقبله.

173. نظرة إلى الأمام وإلى الخلف.

إن فنا مثل الذي يزخر به هوميروس وصوفوكليس وثيوقريط وكالديرون وراسين وغوته، فنا فيه فائض من سلوك حياتي حكيم ومنسجم، هو ما يلزمنا، هوما نتعلم أن نريده حين نصير نحن أيضا حكماء ومنسجمين، وليس ما كنا نعنيه بالفن في السابق، أيام شبابنا، ذلك الإنفجار الهمجي، وإن كان جذابا، المليء بالحماس المندفع والمشوش المنبثق من روح فوضوية وجموحة ؟ من المسلم به مع ذلك أننا، في بعض مراحل حياتنا، نكون في حاجة ماسة إلى فن كله انتشاء وجيشان ونفور من الأشكال المنتظمة والرتيبة والبسيطة والمنطقية، وعلى الفنانين أن يلبوا تلك الحاجة كي لا تلجأ روح تلك المرحلة إلى تسلية نفسها بطريقة أخرى، بكل أشكال الإنحراف. يحتاج الشبان العنيدون والمندفعون الذين يعذبهم الملل من كل الأشياء، كما تحتاج النساء في غياب عمل يشغلهن، إلى فن الفوضى الفاتنة هذا. ويوما ما سيتأجج حنينهم، بعنف أكبر، إلى تلبية لا تبديل فيها، إلى سعادة لا نشوة فيها ولا فتور.

174. ضد فن الأعمال الفنية.

مهمة الفن الأولى هي تجميل الحياة، هي جعلنا مطاقين، وإن أمكن، لطفاء مع الآخرين : إنه يهدئنا،وهذه المهمة نصب عينيه، يمسك بزمامنا، يخلق أشكالا من الكياسة، يربط أشخاصا غير مهذبين بقوانين اللياقة والنظافة واللطف ويعلمهم أن يتكلموا ويصمتوا في اللحظة المناسبة. على الفن بعد ذلك أن يخفي أو يعيد تفسير كل قبح، كل سمة صعبة الاحتمال و شنيعة ومنفرة تعاود الظهور باستمرار رغم كل الجهود وفقا لأصل الطبيعة الإنسانية. عليه بالخصوص أن يتبع نفس الطريقة بشأن أهواء الروح وآلامها وضيقها،عليه أن يدع جانبه المعبر يكشف عن نفسه في القبح الذي لا مناص منه أو الذي لا يمكن التغلب عليه. بعد هذه المهمة الكبيرة للفن يعتبر الفن الذي يزعم أنه فن، أي الأعمال الفنية، مجرد ملحق(appendice) .إن الذي يستشعر في نفسه فيضا من مزايا التجميل هذه، مزايا الحجب وإعادة التفسير، سيسعى في نهاية المطاف إلى التخلص من هذا الشيء الفائض عن الحاجةفي بعض الأعمال الفنية، وفي بعض الحالات قد يقوم بذلك شعب بأكمله. ـ لكن عادة ما نتناول الفن الآن من جانبه الآخر، نمسك بذيله، ونتصور أن فن الأعمال الفنية هو الفن الحقيقي، وأنه انطلاقا منه يجب تحسين الحياة وتغييرها ـ ما أشد خبلنا! إذا بدأنا وجبتنا بأكل العُقبة (dessert) والتلذذ بالحلاوة تلو الحلاوة، فلا نندهشن إذافسدت معدتنا وكذلك شهية الطعام الصلب والمغذي الذي يدعونا إليه الفن!

175. بقاء الفن.

كيف يحدث في الواقع أن يستمر فن الأعمال الفنية في الوجود في الوقت الراهن ؟ ذلك لأن أغلب الذين لديهم أوقات فارغة (ومثل هذا الفن لا يوجد إلا لمثل هؤلاء) يعتقدون أنهم لن يمضوا وقتهم دون موسيقى، دون التردد على المسارح والمتاحف، دون قراءة الروايات والشعر. لو افترضنا أنه يمكننا تحويلهم عن هذا الذي يمضون به وقتهم فإنهم إما سوف لن يسعوا بحماس أبدا لأن يكون لهم وقت فراغ، وستصير رؤية الأغنياء، التي تثير الغيرة، شديدة الندرة ـ وهي فائدة كبيرة لصالح استقرار المجتمع، وإما ستكون لهم أوقات فراغ ولكنهم سيتعلمون (الشيء الذي يتم تعلمه ونسيانه) التفكير في عملهم، مثلا في علاقاتهم، في السعادة التي قد يتسببون فيها، وسيجد كل الناس، ماعدا الفنانون، فائدة في كلتا الحالتين. لا شك أن هناك أكثر من قارئ دقيق ومتمكن سيقدم اعتراضا وثيق الصلة بالموضوع. وبصفة نهائية سنقول ، لأجل الآخرين، البلهاء، الميالين إلى الإيذاء. بأن المؤلف يعلق هنا بالضبط، كما يفعل في الغالب الأعم في هذا الكتاب، أهمية كبيرة على الإعتراض، وأنه يمكننا أن نقرأ فيه أشياء كثيرة ليست مكتوبة فيه.

176. وسيلة الآلهة.

يعبر الشاعر عن أسمى الأفكار الجمعية لدى شعب ما، إنه وسيلتها ونايها، ـ ولكنه يعبر عنها، بفضل بحر الشعر والطرق الأخرى، بشكل يجعل الشعب ينظر إليها وكأنها شيء جديد تماما وخارق، ويعتقد صادقا أن الشاعر وسيلة الآلهة. بالإضافة إلى ذلك، إن الشاعر نفسه ينسى، حين يغشى النسيان عمله الإبداعي، مصدر حكمته ونباهته، هل من أمه وأبيه، أم من معلمين وكتب مختلفة، أم من الشارع وخصوصا من القساوسة، إن فنه يخدعه، ويظن فعلا، في مراحل سذاجته، أن إلها ما يتحدث على لسانه وأنه يبدع في حالة من الإشراق الديني ـ: والحال أنه إنما يقول ما قد تعلمه من قبل، يقول الحكمة والحماقة الشعبيتين خلط ملط. لئن كان الشاعر إذن هو صوت الإله فلأنه هو فعلا صوت الشعب.

177. ما يريده كل فن ولايستطيعه.

إن آخر وأصعب مهام الفنان هو تجسيد ما لا يتغير، القائم بذاته، بطريقة نبيلة وبسيطة دون تنازل لإغراء الفردي. والفنانون القليلو الموهبة يتركون جانبا أسمى تصورات الكمال الأخلاقي، باعتبارها موضوعا لا علاقة له بالفن، لأن رؤية تلك الثمار

تشق كثيرا على طموحهم : إنهم يرونها تلمع على أقصى أغصان شجرة الفن، ولكنهم لا يملكون السلالم، لا يملكون الشجاعة ولا سبيل لديهم ليستطيعوا المجازفة بالصعود لتلك الأعالي. من الممكن أن يصير فيدياس* شاعرا هناك، ولكنه قلما يكون كذلك، بمراعاة قوة المحدثين، إلا إذا اعتبرنا أنه لا شيء يستحيل على الله. إن رغبتنا في وجود شاعر نظير لكلود لوران تعتبر، في الوقت الراهن، وقاحة، مهما تكن تلك الرغبة قوية. لم يستطع أي فنان حتى الآن أن يجسد الإنسان الأخير، يعني أبسط إنسان وأكمله في الوقت ذاته، وربما يكون الإغريق، من بين كل الذين وجدوا حتى الآن، هم من ذهب إلى أبعد الحدود في ذلك في أثينا المثالية.

178. الفن والإصلاح.

إن للتيارات الرجعية في التاريخ وللعصور التي يقال أنها عصور الإصلاح، والتي تروم بعث الحياة في وضع ثقافي واجتماعي سابق على الوضع الذي تعيشه، والتي يبدو فعلا أنها تنجح في بعث الأموات لفترة وجيزة، إن لها سحر ذكرى مؤثرة، سحر حنين متأجج إلى كنوز شبه مفقودة، سحر معانقة سريعة لسعادة قصيرة الأمد. بسبب هذا التعميق الغريب للحالات المعنوية فإن الفن والشعر يجدان بالضبط في هذه العصور العابرة، التي تكاد تكون مثالية، مجالا طبيعيا، مثلما النباتات المرهفة والنادرة تنمو في المنحدرات الجبلية الوعرة. ـ وهكذا فإن شيئا ما يدفع الفنان الجيد، وهو لا يدري، لينمي أفكارا إصلاحية بشأن السياسة والمجتمع، أفكارا يوفر لها، بمطلق حقه هو، زاوية صغيرة هادئة، بستانا صغيرا يجمع فيه من حوله الآثار الإنسانية لذلك العصر التاريخي حسب رغبته ولا يعزف على عوده إلا أمام أشخاص ميتين أو نصف أموات أو محتضرين، وربما ينجح في تحقيق ما ذكرناه من بعث للأموات لفترة وجيزة.

179. سعادة هذا العصر.

يمكن لعصرنا أن يعتبر نفسه محظوظا لاعتبارين اثنين. إننا، مقارنة مع الماضي، نستمتع بكل الحضارات وبكل مآثرها، ونتغذى بدم كل العصور النبيل، لا نزال قريبين من السحر الذي دفع بالدول إلى إخضاعنا، لفترة وجيزة، لسلطتها، ونحن نشعر من ذلك برعشة الخوف واللذة، بينما لم تكن حضارات الماضي تستمتع سوى بنفسها، دون أن تنظر بعيدا، كما لو كان يغطيها جرس واسع التقوس أو ضيقه : تشرف منه أشعة على تلك الحضارة، ولكن لا تستطيع اختراقه أية نظرة. أما فيما يخص المستقبل فإننا، لأول مرة، نرى أفق الإنسانية الرحب ذي المقصد المسكوني ينفتح أمامنا شاملا كل المعمور.وفي نفس الوقت نشعر أننا نمتلك قوى تسمح لنا بأن نأخذ هذه المهمة على

عاتقنا دون زهو، قد يؤول مشروعنا إلي أية نتيجة، قد نكون بالغنا في تقدير قوانا، ولن يكون هناك أحد علينا أن نقدم له تقريرا عدا أنفسنا : لقد صار في مقدور الإنسانية أن تفعل بنفسها ما تشاء. ـ صحيح أن هناك نحل إنساني غريب لا يشرب أبدا من كأس الأشياء سوى المرارة الشديدة وعكر المزاج، ـ ومن الثابت فعلا أن كل الأشياء تحوي شيئا قليلا جدا من هذا الشراب المضاد للعسل. لنترك جانبا إحساس هؤلاء الناس بسعادة هذا العصر، كما تحدثنا عنها، إن كان هذا يروقهم، وليستمروا ما أرادوا ذلك في بناء خلية كدرهم.

180. رؤية.

الرؤية التي تعاودني باستمرار، والتي أعتقد جازما أنها قد مزقت جانبا من حجاب المستقبل،هي أن تكون هناك أوقات للتعليم والتأمل خاصة بالبالغين سن النضج والناضجين أكثر، وأن يتابع كل الناس هذه الدروس يوميا، دون إجبار، وإنما حسب ما تمليه العادة. أن تكون هناك كنائس، هذه الأماكن الغنية بالذكريات والجديرة بها، ليتم فيها الإحتفال بالأعياد اليومية الكبيرة أعياد الكرامة والعقل الإنسانيين، ما تم بلوغه منهما وما هو سهل المنال؛ هي تجديد مثال الأستاذ(maitre) وازهراره وازدهاره بشكل كامل، ذلك الأستاذ الذي ينصهر فيه القس والفنان والطبيب والعالم والحكيم، مثلما ستنتهي فضائلهم الفردية حتما بالظهور بمظهر الفضيلة الجمعية في العقيدة ذاتها، في عرضها، وفي طريقتها.

181.التربية التي تشوه.

تُفسَّر العرضية الخارقة لكل أشكال التعليم التي تجعل كل إنسان راشد في وقتنا الراهن يشعر بأن مربيه الوحيد كان هو الصدفة، وكذلك تنوع مناهج وأهداف التربية، يفسران بكون القوى التي تنقل الناس إلى الحضارة القديمة منها والحديثة تريد حاليا، كما في جمعية عمومية صاخبة، أن تُسمع صوتها عوض أن تُفهَم، وتريد من خلال صوتها وصخبها أن تظهر أنها لاتزال موجودة أو أنها قائمة الوجود. لقد أصيب الأساتذة والمربون بذهول من ذلك الضجيج الذي لا معنى له، ثم صمتوا، وفي الأخير صاروا بلداء، وهاهم يتحملون كل شيء بنفس الخضوع الذي به يمررونه الآن في كل شيء لتلاميذهم. هم أنفسهم غير مربون، فكيف سيربون غيّرهم ؟ إنهم ليسوا من نوع تلك الجذوع الخضراء الراسخة في الأرض والممشوقة: والذي يريد الإستناد عليهم لا بد له من الإلتواء والإنحناء إلى أن تصير له في النهاية هيأة ملتوية ومشوهة.

182. فلاسفة وفنانو هذا العصر.

إذا نظرنا إلى اللوحة التي تشكلها الطبقة الراقية داخل المجتمع الأوربي حاليا سنجد فيها هذا التجاور المنفر: الفجور إلى جانب الفتور، ولهيب الشهوات إلى جانب برودة القلب. يعتقد الفنان أنه سيحقق شيئا عظيما إذا هو نجح في إشعال لهيب القلب لينضاف إلى لهيب الشهوات، ويعتقد الفيلسوف أنه سيحقق نفس الشيء إذا هو نجح، من خلال نفيه للعالم، في تبريد لهيب الشهوات لديه ولدى تلك الطبقة لتنضاف برودتها إلى برودة القلب التي يشترك فيها مع عصره.

183. لاتكن جنديا للثقافة من غير ضرورة.

ها نحن أخيرا نعلم ذلك الذي نخسر الكثير بجهله أيام شبابنا : نعلم أنه علينا في المقام الاول أن نؤلف كتابا ممتازا، ثم بعد ذلك أن نبحث عن الممتاز في أي مكان وجد ومهما يكن الاسم الذي يحمله، ونعلم أنه من المناسب، في مقابل ذلك، أن نبتعد فورا عن كل ما هو قبيح وبين بين دون أن نحاربه، وان الشك في قيمة شيء ما (وهو شك يزداد بسرعة حين يكون الذوق متمرسا شيئا ما) قد يعتبر، بشكل مقبول، حجة ضده وفرصة لتجنبه تماما، حتى وان جازفنا أحيانا بالخلط بين الجيد الذي يصعب إدراكه وبين القبيح والناقص، لا ينبغي أن يتصدى لجوانب العالم القبيحة، كجندي للثقافة، الا من لا يجد عملا أفضل من ذلك يقوم به. فالذين يغذونها ويدرسونها يسعون الى حتفهم إن تظاهروا بأنهم مجندون، ومن فرط الحذر والسهر والكوابيس يحولون هدوء مهنتهم ومنازلهم إلى قلق حربي.

184. كيف نروي التاريخ الطبيعي.

يجب أن نروي التاريخ الطبيعي، تاريخ حرب وانتصار القوى الفكرية والأخلاقية في صراعها مع الخوف والوهم والبلادة والخرافة والحماقة، بطريقة تجعل أي شخص يسمعنا ينجذب بشكل لا يقاوم إلى إرادة الصحة والنضج الأخلاقيين والبدنيين، تجعله يشعر بالفرحة لكونه وارث الانسانية وضامن استمرارها، تجعله دائما يشعر بحاجة اشرف الى مباشرة العمل. ان هذا التاريخ لم يجد لحد الان الناطق الحقيقي باسمه،لان الفنانين الفصحاء والمبدعين في حقل اللغة (لأنهم المطلوبون للقيام بذلك لا غيرهم) لا يتخلون بخصوصها عن حذرهم المتأصل فيهم ولا يرغبون بالخصوص ان يجتهدوا في خدمتها – ويجب مع ذلك بان نسلم للانجليز بانهم ساروا بخطوات رائعة نحو هذا المثل في موجزاتهم العلمية الخاصة بالعلوم الطبيعية والتي وضعوها خصيصا للطبقات الدنيا من الشعب، وهي من تأليف مشاهير العلماء لديهم، علماء راسخون في العلم

وكاملو الصفات، ينتجون بشكل جيد وليس، كما هو الحال عندنا، من خلال البحث الرديء.

185. نبوغ الإنسانية.

إن كان النبوغ، حسب ملاحظة شوبنهاور، هو الذكرى الحية والمنسجمة ذكرى التجارب المعيشة، فإنه يمكننا ولا شك أن نتبين في النزوع إلى معرفة نتائج التطور التاريخي في كليته (وهو نزوع يفاقم أكثر فأكثر التعارض بين العصور الحديثة وكل العصور السابقة، والذي حطم لأول مرة تلك الفواصل القديمة بين الطبيعة والعقل، بين الإنسان والحيوان، بين الجسد والروح) أن نتبين فيه نزوع الإنسانية الشامل نحو النبوغ. وإذا تأملنا التاريخ في كليته فقد نجده إحساسا عالميا بالذات.

186. عبادة الحضارة.

نجد لدى المفكرين الكبار، علاوة على كونهم كذلك، طباعا إنسانية منفرة، كالزيغ والتشوه والمغالاة، وذلك لكي يتم باستمرار احتواء تأثيرهم القوي للغاية، داخل حدود معينة، من طرف الحذر الذي توحي به تلك المزايا. لأن نظام الشيء الذي تحتاجه الإنسانية كي تستمر ممتد جدا ويستخدم قوى متنوعة وكثيرة لدرجة أنه يجب على الإنسانية، في شموليتها، أن تؤدي غاليا ثمن كل اختيار أحادي تدفعها إليه هذه الفرديات، أن تؤديه سواء للعلم أو للدولة، للفن أو للتجارة. إن أكبر الأخطار القاتلة التي كانت دائما تتهدد الحضارة هي كون بعض الناس قد تمت عبادتهم فيها، ويمكننا بهذا المعنى أن نشعر بنفس ما يعبر عنه مبدأ الشريعة الموسوية الذي يحرم عبادة أية آلهة أخرى بجانب الله. ـ ينبغي دائما أن نلحق بعبادة العبقرية والقوة عبادة الحضارة لتكون لها تكملة وعلاجا، فهذه العبادة تعرف كيف تضفي حتى على الأشياء المادية، الخسيسة، الوضيعة، التي فيها عاهة، ونقص ومحدودية، وزيف وخداع، بل حتى على الشر، على الشيء المفزع، وقارا شاملا، وتسلم بأن كل ذلك ضروري. لأنه ينبغي ألا نفقد هذا الإضفاء الذي تدعمه كل العناصر الإنسانية، الذي تم التوصل إليه عبر أعمال وضربات حظ هائلة، والذي هو عمل الجبابرة والنمل مثلما هو عمل العباقرة : كيف سنقدم على الاستغناء عن هذه القاعدة الأساسية والجماعية العميقة المقلقة في الغالب، والتي بدونها لن يكون اللحن لحنا ؟

187. العالم القديم والفرحة.

كان أناس العالم القديم يعرفون كثيرًا كيف يستمتعون بالفرحة، أما نحن فنعرف كيف نحزن أنفسنا بشكل أقل. كانوا دائما يتدبرون أمرهم، بكل ما أوتوا من ثروة

الفطنة والتبصر، ليكتشفوا مناسبات جديدة ليشعروا أنهم بخير وليقيموا احتفالات بالأعياد، أما نحن فنعمل عقلنا في حل مشاكل تتعلق بغياب الألم وبالقضاء على مصادر الكرب. أما فيما يخص المعاناة التي كانت تعرفها حياتهم فإن القدماء كانوا يحاولون النسيان أو تحويل شعورهم في اتجاه الممتع: وقد يستعينون في ذلك بالمسكنات، بينما نحن نهاجم بشكل مباشر أسباب الألم ونفضل إجمالا أن نتخذ تدابير وقائية. ـ وربما يكون ما نفعله هو مجرد وضع الأسس التي ستعيد عليها أجيال المستقبل تشييد معبد المعرفة.

188. ربات الفن الكاذبات.

« إننا نعرف فن قول الكثير من الكذب »، كانت ربات الفن تغني فيما مضى وهي تظهر لهزيود. ـ إننا نكتشف أشياء جوهرية بمجرد ما نعرف كيف نرى الفنان دجالا.

189. كيف يكون هوميروس مُفارِقا.

ليست هناك فكرة متهورة، مفزعة، لا تصدق أكثر من هذه الفكرة التي نجدها لدى هوميروس مشعة بنورها مثل شمس الشتاء، على مصير الإنسان :

قضت الآلهة أن يكون مصير الناس الفناء،

لتبقى للآتين قصيدة.

وهكذا نعاني ونفنى لكي تكون هناك دائما مادة لشعر الشعراء، وآلهة هوميروس هي التي توجه الأمور تلك الوجهة، وهي منشغلة، على ما يبدو، بتسلية الأجيال الآتية أكثر بكثير من انشغالها بنا نحن الأحياء الآن. ـ من يصدق أن مثل هذه الأفكار قد نمت في مخ رجل إغريقي!

190. تبرير الوجود بعد فوات الأوان.

ظهرت العديد من الأفكار إلى الوجود على شكل أخطاء وأوهام، ولكنها صارت حقائق لأن الناس جعلوا موضوعها حقيقيا بعد فوات الأوان.

191. ضرورة التأييد والمعارضة.

الذي لا يدرك أن كل عظيم لا ينبغي فقط أن يتم تشجيعه بل أن تتم محاربته كذلك خدمة للصالح العام، فهو بكل تأكيد إما طفل كبير أو رجل عظيم هو الآخر.

192. جور العبقري.

يكون العبقري أشد ما يكون ظلما للعباقرة الآخرين حين يكونون معاصرين له، أولاً يعتقد أنه ليس في حاجة إليهم ويعتبر وجودهم بالتالي زائدا عن الحاجة، لأن ماهيته متحققة بدونهم، ثم إن تأثيرهم يناقض آثار تياره الكهربائي : وهو ما يجعله يصفهم بأنهم مُضرون.

193. مصير النبي الأسوأ.

قضى عشرين عاما يقنع معاصريه بقيمته، ونجح في ذلك في نهاية المطاف، إلا أن خصومه قد نجحوا بدورهم في غضون ذلك : لم يعد هو مقتنعا بقيمته.

194. ثلاثة مفكرين يساوون عنكبوتا.

في كل طائفة فلسفية يتوالى فلاسفة ثلاثة بالترتيب التالي : الأول يفرز المجاجة والمني، الثاني يجعل من ذلك خيوطا وينسج نسيجا اصطناعيا، والثالث يترصد الضحايا الذين سيقعون في ذلك النسيج ــ ويسعى لأن يعيش من الفلسفة.

195. مستخلص من معاشرة الآخرين.

أثناء معاشرته لمؤلف ما يكتشف المرء أن الإمساك بأنف ذلك المؤلف سلوك خبيث، تماما كالإمساك بقرنه ــ وليس هناك مؤلف بلا قرن.

196. الإقتران الثنائي.

غالبا ما يقترن تشوش الفكر والتجسس العاطفي لدى المرء بالإرادة العنيفة في فرض ذاته بشتى الوسائل وإقامة الوزن لها وحدها، مثلما يقترن الإرعاء والسخاء الوديين والمعوانين بالحاجة الفطرية إلى وضوح الفكر ونقائه، وإلى الإعتدال والتحفظ في الإحساس.

197. ما يجمع وما يفرق.

أليس في الرأس يوجد ما يجمع بين الناس، العلم بالمصلحة وبالضرر المشتركين، وفي القلب ما يفرق بين الناس، الإختيار المتردد والأعمى في الحب وفي البغض، الإرتباط بشخص واحد على حساب الآخرين وما ينتج عنه من استخفاف بالصالح العام ؟

198. الرماة والمفكرون.

هناك رماة عجيبون، يخطئون الهدف ولكنهم لا يبرحون المكان مع ذلك مفتخرين في خفاء بكون رصاصتهم،مهما يكن الأمر، قد بلغت مدى أبعد (أبعد من الهدف،

وهذا شيء صحيح)، أو بكونهم قد أصابوا، إن لم يكن الهدف، فشيئا آخر على الأقل. وهناك مفكرون مثل هؤلاء الرماة تماما.

199. من جهتين.

نهاجم تيارا أو حركة فكرية ما حين نكون أعلى مقاما منها ولا نوافق على هدفها، أو حين يكون ذلك الهدف ساميا جدا ولا تتبينه أعيننا، أي حين تكون تلك الحركة أرقى منا. وقد تتم محاربة نفس الطرف من جهتين، من الأعلى ومن الأسفل، ومن المحتمل كثيرا أن يعقد المهاجمون، بدافع البغض المشترك، تحالفا أشنع من كل ما يبغضونه.

200. أصالة.

إن ما يميز العقل الأصيل حقا ليس أن يكون هو أول من يرى شيئا جديدا، وإنما أن يبصر بعين جديدة ذلك الشيء القديم المعروف منذ أمد طويل، الذي نظر إليه كل الناس دون أن يبصروه. إن المبتكر الأول عادة ما يكون هو ذلك الشيء الغريب التافه والأحمق، الصدفة.

201. خطأ الفلاسفة.

يظن الفيلسوف أن قيمة فلسفته كامنة في الكل، في البناء، أما الأجيال اللاحقة فتجدها في الحجر الذي به بني والذي لايزال الناس، منذ ذلك الحين، يبنون به في أغلب الأحيان وبشكل أفضل : يجدونها إجمالا في كون البناء الأول قد يتم هدمه ولكنه يحتفظ مع ذلك بقيمته كمادة للبناء.

202. النكتة

النكتة سخرية من موت إحساس ما.

203. قبل الحل بقليل.

يحدث في العلم، كل يوم وكل ساعة، أن يتوقف أحد ما مباشرة قبل بلوغه الحل ويقتنع منذ ذلك الحين أن كل جهوده قد ذهبت سدى، ـ مثل ذلك الذي يتردد، وهو يفك ربقا، من اللحظة التي يكون فيها أقرب ما يكون من فكه: لأنه آنذاك يكون شديد الشبه بالعقدة.

204. الإنضمام إلى الحالمين.

يمكن للرجل الرزين والواثق من فطرته السليمة أن ينضم لمدة عقد من الزمن إلى الحالمين ويستسلم داخل تلك الدائرة الملتهبة لجنون خفي، وسيكون ذلك مفيدا له. وهكذا سيكون قد قطع مسافة كبيرة في سبيل الإلتحاق في النهاية بعالمية (cosmo-politisme) العقل الذي بمقدوره أن يقول دون غرور : « إني أعرف كل ما له علاقة بالعقل.»

205. هواء صحي.

الشيء الأفضل والأكثر صحية في العلم، كما في الجبل، هو ذلك الهواء الصحي الذي يهب فيه. أصحاب العقول الغضة (كالفنانين) يخشون العلم ويعيبونه بسبب هذا الهواء.

206. ما يجعل العلماء أشرف من الفنانين.

يحتاج العلم إلى رجال أشرف من الذين يحتاجهم الشعر: إنه يريدهم بسطاء، أقل طموحا وأكثر قناعة وهدوءاً، وأقل انشغالا بالمجد، وناكرين للذات في سبيل قضايا تبدو، في أعين كثير من الناس ، نادرا ما تستحق تلك التضحية التي يقدمونها من أجلها. تضاف إلى ذلك سلبية أخرى يعيها هؤلاء العلماء كل الوعي، طبيعة عملهم والتطلب المستمر لقدر أقصى من العقل الهادئ يضعفان إرادتهم، ولا تتم رعاية حماسهم بنفس القوة التي يرعى بها لدى الشعراء، وبالتالي فإنهم غالبا ما يفقدون في سن مبكرة، بخلاف الشعراء، أفضل ما في قوتهم، يفقدون ريعان شبابهم ــ وهم واعون بذلك الخطر، كما أسلفنا القول. على أية حال، إنهم يبدون أقل موهبة لأنهم أقل لمعانا، وبذلك يقدرون بأقل من قدرهم.

207. ما تعتمه التقوى.

يسبغ الناس على الرجل العظيم، خلال القرون التالية، كل مزايا عصره الكبيرة وفضائله، وهكذا يتم تعتيم أفضل ما فيه بالتقوى وبوصفه رجلا يفي بكل أشكال النذر إلى أن يغطي ذلك شخصه تماما في النهاية، بحيث أنه يصير موضوع إيمان أكثر منه موضوع بحث.

208. الرأس منكسة.

حين ننكس رأس الحقيقة فإننا لا نتنبه عادة إلى أن رأسنا لم تعد في المكان الذي ينبغي لها أن تكون فيه.

209. أصل الموضة وفائدتها.

إن الإعجاب بالذات الجلي الذي يأتي الفرد من أناقته يثير تقليد الآخرين له ويخلق بالتدريج أناقة عند العدد الكبير، أي أنه يخلق الموضة : يريد هذا العدد الكبير، بفضل الموضة، ذلك الإعجاب بالذات التافع الذي يأتي من الأناقة، ويفلح في الحصول عليه. لو تأملنا دواعي الهم التي تدفع كل إنسان لأن يخفي نفسه خجلا، ولو تفكرنا أن ثلاثة أرباع طاقته وحسن نيته قد تصيبها تلك الدواعي بالشلل والعقم فلن نملك إلا أن نثني كثيرا على الموضة لكونها تحرر تلك البقية من الطاقة وتمنح أولئك الذين يعلمون أن قانونها يربط بينهم، إلى جانب الثقة في النفس، مجاملة صافية متبادلة. هناك قوانين عشية توفر هي الأخرى الحرية وراحة الضمير شريطة أن يخضع لها كثير من الناس.

210. إرغام اللسان على الكلام.

تكمن قيمة كثير من الناس وكثير من الكتب فقط في خاصية إرغام أي كان على البوح بالسر الذي يحفظه وبما يحتفظ به لنفسه من أشياء حميمة : إنهم يريدون دفع الألسنة إلى الكلام والأفواه المحكمة الإغلاق إلى الإنفتاح. ونجد أن لبعض الأحداث وبعض الجرائم، التي يبدو الغرض من ورائها هو جلب اللعنة على الإنسانية، أن لها هي كذلك تلك القيمة وتلك الفائدة.

211. المفكرون الصرحاء.

أينا سيجرؤ على القول أنه مفكر حر لو لم يكن ميالا لتحية أولئك الرجال الذين يلصق بهم هذا الإسم، كما لو كان سبة، بطريقته الخاصة، آخذا على عاتقه شيئا من عبء تلك العداوة والسبةالشائعتين ؟ وسيكون لنا الحق، بجد (ودون هذا التحدي المتكبر والشهم)، في أن ندعو أنفسنا « مفكرين أحرارا »، لأننا نجد في نداء الحرية الحافز الأكبر لعقلنا، وعكس العقول المستعبدة والمتجذرة، نكاد نرى مثلنا الأعلى في الإرتحال الفكري، ـ لكي استعمل تعبيرا متواضعا يكاد يكون مستخفا.

212. آه، فضل ربات الفن.

إن ما يقوله هو ميروس عن ربة الشعر ينفذ مباشرة إلى القلب، إن فيه من الصواب ومن الرعب الشيء الكثير :« لقد أحبته ربة الشعر بإخلاص ووهبته الخير والشر، لأنها أخذت منه عينيه وألهمته أشعارا عذبة .» ـ هذا نص لا يستنفذه التأمل: الخير والشر، ذلك ما تمنحه ربة الشعر، تلك طريقتها في الحب الصادق! وسيعرف كل على حدة، إذا ما فسر ذلك على نحو خاص، لماذا ينبغي لنا ، نحن المفكرون والشعراء، أن نضحي في سبيل ذلك بعيوننا.

213. ضد دراسة الموسيقى.

ان التربية الفنية للعين، منذ الطفولة، برسم المناظر الطبيعيةو الأشخاص والمشاهد، تتضمن ميزة شحذ العين وجعلها هادئة وصبورة في ملاحظة الناس والأوضاع. إن مثل هذه الفائدة العرضية لا تستفاد من التربية الثقافية للأذن، لذلك ستحسن المدارس الإبتدائية صنعا، على العموم، بإعطائها الأولوية لفن الرؤية بدل فن السماع.

214. مكتشفوالتفاهات.

ان العقول الدقيقة، التي هي أبعد عن الإهتمام بالتفاهة، غالبا ما تكتشف تفاهة واحدة بعد كل أشكال المنعطفات والممرات الجبلية، وتجد في تلك التفاهة متعة كبيرة، وهو ما يذهل أولئك الذين لا يملكون قدرا كبيرا من الدقة.

215. أخلاق العلماء.

لن يكون تقدم العلوم السريع والمنتظم ممكنا إلا إذا لم يجد الفرد نفسه مرغما على أن يكون مفرطا في الحذر ليراجع بدقة حسابات وإثباتات الآخرين في ميادين ليست مألوفة لديه، وشرط ذلك التقدم هو أن يكون في دائرة اختصاص كل واحد منافسون بالغي الحذر يراقبونه عن كثب. إن تعايش الحذر المعتدل والحذر البالغ هو الذي يولد الصدق في جمهورية العلماء.

216. سبب العقم.

هناك عقول [مفكرون] ذات عطاء رائع صارت عقيمة إلى الأبد فقط لأن ضعفا في مزاجها يجعلها شديدة التبرم من انتظار أجل وضع حملها.

217. عالم الدموع معكوسا.

ينتهي الضيق المتكرر الذي تسببه للمرء متطلبات الثقافة الراقية بقلب شامل لطبعه بحيث عادة ما يصير سلوكه عنيدا ومتصلبا، ولا يتبقى له دمع يذرفه إلا عند حصول ضربات الحظ النادرة التي لا يستطيع كثير من الناس الامتناع عن البكاء عند حصولها، وذلك بسبب المتعة التي يشعرون بها من انعدام الألم : ـ ولا يعود هناك شيء قد يجعل قلبه ينبض مرة أخرى إلا السعادة.

218. الإغريق كمترجمين.

حين نتحدث عن الإغريق فإننا نتحدث، دون أن نقصد ذلك، عن اليوم والبارحة، فتاريخهم المعروف لدى العالم كله مرآة لامعة تعكس دائما شيئا لا يوجد في المرآة ذاتها. فالحرية التي نتمتع بها في التحدث عنهم تسمح لنا بأن نصمت بشأن الآخرين، ـ بحيث أن هؤلاء يهمسون هم أنفسهم في أذن القارئ المتنبه. وهكذا يسهل الإغريق على الإنسان المعاصر تبليغ كثير من الأشياء التي يصعب تبليغها والتي تدعو إلى التفكر.

219. عن طبع الإغريق المكتسب.

يحملنا وضوح الأعمال الأدبية الإغريقية و صفاؤها و بساطتها و تنسيقها وشفافيتها الطبيعية والمصطنعة على الإعتقاد بأن ذلك كله كان منحة الإغريق وهبتهم، وأنهم لم يكونوا ليكتبوا إلا بشكل جيد، مثلما قال ذلك لشتنبرغ ذات مرة. لكن لم يعد هناك أي شيء متسرع ولا يمكن دعمه. فتاريخ النثر من غورجيا حتى ديموستين يكشف عن عمل وصراع كبيرين للمرور من الغموض ونقص الذوق إلى الوضوح، حتى إنهم ليذكروننا بما يلاقيه من تعب أولئك الأبطال المكلفون بشق الطرق الأولى خلال الغابات والمستنقعات. الحوار داخل المأساة هو مأثرة المسرحيين الأصيلة، وذلك بسبب وضوحه ودقته الخارقين، رغم طبعه الشعبي الذي لم تكن ترضيه سوى رموز وتلميحات تهتكية كانت الغنائية التي تؤديها الجوقة، علاوة على ذلك، تنحو بها ذلك المنحى، مثلما هي مفخرة هوميروس أن يكون قد حرر الإغريق من أبهة آسيا ومن طبعهم الخامل وحصل غصبا على وضوح البنية، في الكل وفي الجزء. إنهم لم يكونوا يعتبرون التعبير عن الشيء بشكل مجرد ووضوح شيئا سهلا، وإلا فمن أين كان سيأتي ذلك الإعجاب الكبير بهجاء سيمونيد الذي يبدو موحد الشكل، بلا سنان ذهبية وبلا زخرفة ذهنية، ـ لكنه يقول ما لديه، بوضوح، بهدوء الشمس وليس بالغرور المسرحي للبرق. نشدان النور من عمق ظلٍ شبه فطري هو شيء إغريقي محض بحيث أن البهجة تسري في الحشد الذي يستمع إلى حكمة مقتضبة، إلى قصيدة رثاء، إلى أمثال حكماء اليونان السبعة. لذلك كانت عادة إصدار القوانين نظما، التي تزعجنا اليوم كثيرا، تحظى بقبول كبير، وقد كانت تلك هي القضية الأبولونية الحقيقية التي واجهت العقل الإغريقي في سبيل التغلب على أخطار النظم، على الغموض الذي هو، علاوة على ذلك، من خاصيات الشعر. لقد فرضت البساطة والمرونة والرزانة فرضا، بعد صراع مرير، على المزاج الشعبي وهي ليست ميراثه، ـ لقد كان خطر العودة إلى الطبع الأسيوي يحوم دائما حول الإغريق، والواقع أن ذلك الطبع كان يغمرهم من حين لآخر

كنهر يفيض بالميول الصوفية، بالوحشية وبالظلمات الأصلية. نراهم يغرقون، نرى أوربا تكاد تمحي من الوجود، يكاد يغمرها السيل ـ لأن أوربا كانت صغيرة جدا آنذاك ـ لكنهم يعودون دائما إلى النور لأنهم سباحون وغواصون ماهرون، لأنهم شعب عوليس (Ulysse).

220. الشيء الوثني المحض.

إن ما يدهش الذي ينظر في عالم الإغريق أكثر هو اكتشافه أنهم كانوا، من حين لآخر، يقيمون احتفالات تشبه الأعياد بكل أهوائهم، بكل ميولهم الشريرة الطبيعية، وأنهم قد وضعوا برنامجا للإحتفالات التي كانت تقام لجوانبهم الإنسانية: هذا هو الشيء الوثني المحض في عالمهم، وهو ما لم ولن تفهمه المسيحية أبدا، وقد حاربته بضراوة واحتقرته بقسوة. لقد كانوا يعتبرون تلك الجوانب الإنسانية شيئا لا مفر منه وكانوا يفضلون، عوض أن يذلوها، أن يخولوها نوعا من الحقوق من الدرجة الثانية وذلك بإعطائها مكانا ضمن عادات المجتمع وطقوس العبادة، بل أكثر من ذلك، لقد كانوا يسمون كل ما له شيء من القوة في الإنسان شيئا سماويا، كانوا يكتبونه على جدران سمائهم. إنهم لا يجحدون الغريزة الطبيعية التي تعبر عن نفسها في المزايا القبيحة بل يضعونها في مكانها، في حدود بعض العبادات، بعض الأيام، وقد ابتكروا ما يكفي من الإحتياطات ليستطيعوا جعل هذه السيول الجارفة تأخذ مجرى يكون ضرره أقل ما يمكن. هنا يكمن أصل كل استقلالية العقل لدى الإغريق في مجال الأخلاق. وقد كانوا ينبسطون، في اعتدال، من الشر، والماجن، من سمات الوحشية المتأخرة، من ذلك الهمجي الماقبل هليني والأسيوي الذي كان لايزال يحيا في الطبع الإغريقي، ولم يكونوا يسعون إلى محوهم من الوجود. لقد كانت الد ولة تضم نسق كل هذه الوصفات، الدولة التي تأسست آخذة بعين الإعتبار ليس أفراد وعشائر معينين بل المزايا الانسانية العادية. لقد أبان الإغريق، من خلال تأسيسهم هذا للدولة، عن ذلك الإحساس المدهش بالحقائق النموذجية الذي أهلهم فيما بعد ليصيروا طبيعيين* (natu-raliste)، مؤرخين، جغرافيين وفلاسفة. لم يكن ما يقرر بشأن إنشاء الدولة والديانة الرسمية قانونا محدودا يصدره كاهن أو عشيرة بل هي الإحالة الواسعة إلى واقع كل ما هو إنساني. ـ من أين للإغريق تلك الحرية وذلك الحس الواقعي ؟ ربما يكونون قد أخذوهما عن هوميروس وعن الشعراء الذين سبقوه، لأن الشعراء، الذين لا يكون طبعهم عادة طبعا عادلا وحكيما، يكون لديهم، في المقابل، ميل إلى الأشياء الواقعية والفعالة من كل صنف ولا ينكرون الشر نفسه: يكفيهم ألا ينشر الموت في كل مكان

ولا يبث سمه في الروح ـ أي أن الشعراء الذين كانوا سابقين لمؤسسي دولة الإغريق وأساتذة لهم، يفكرون مثل هؤلاء المؤسسين.

221. إغريق الاستثناء.

في اليونان كان المفكرون الجديون الراسخون العميقو التفكير يعدون استثناء، كانت غريزة الشعب تميل بالأحرى إلى الإحساس بنوع من الالتواء في الجدية والعمق. إنه لشيء إغريقي محض ألا يبدع المرء أشكاله بنفسه، بل يستعير من الأجنبي، ثم يعيد تشكيلها ليعطيها أجمل مظهر. فالتحكم دائما في الرصانة المفروضة، التنسيق والتجميل السطحي أكثر فأكثر، ذلك هو التيار الذي ساد منذ هوميروس حتى سفسطائيي القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد الذين كانوا خارجانيين، ذوي كلام رنان وحركات ملهمة، ويخاطبون بشكل خاص أرواحا خواء ومتلهفة إلى المظاهر، إلى الجمهورية وإلى الإبهار. ـ ولنحي الآن، كما ينبغي، عظمة إغريق الاستثناء هؤلاء الذين ابتكروا العلم. فأن نروي تاريخهم يعني أن نروي التاريخ الأكثر بطولية في حياة العقل الإنساني.

222. البساطة لا تأتي زمنيا في المقام الأول ولا الأخير.

يدخل الناس في تاريخ التمثلات الدينية كثيرا من الأفكار الخاطئة عن التطور والتقدم الحاصل في أشياء لم تنبثق في الحقيقة عن بعضها البعض بالتوالي، بل تطورت بشكل متواز وبمعزل عن بعضها، فالبساطة، بشكل خاص، مشهورة كثيرا بكونها أقدم هذه الأشياء وأكثرها بدائية. وليست نادرة تلك الأشياء الإنسانية التي تتولد من خلال الطرح والقسمة، وبالضبط من خلال التضاعف والزيادة والتركيب (synthèse). يعتقد الناس مثلا أن هناك تطورا تدريجيا في تصوير الآلهة، ابتداء من جذمات الأشجار والأحجار المنحوتة بخشونة حتى التجسيم الكلي، والحقيقة، مع ذلك، هي أنه طالما تم إضفاء الألوهية على الأشجار، على أكوام من الخشب، على الأحجار والحيوانات، وطالما شعر الناس بذلك، فإن تشبيه شكلها بشكل الإنسان قد أثار لديهم نفس الكره الذي يثيره الكفر. لقد تطلب الأمر أن يكون الشعراء، بعيدا عن العبادة وعن إكراه الحياء الديني، هم أول من يعود خيال الناس الباطني على ذلك ويهيئونه له، ولكن ما أن تعود الغلبة لحالات نفسية وللحظات على قدر كبير من التدين حتى يتراجع من جديد تأثير الشعراء المحرر وتظل القداسة، وكأن شيئا لم يحدث، تشمل الفظاعات والرعب وكل ما هو لاإنساني. والحال أن كثيرا من الأشياء التي يتجرأ الخيال الباطني على تصورها قد يكون لها، إن صارت تمثلا خارجيا وملموسا، أثر صعب الإحتمال، فالعين

الباطنية أكثر جرأة وأقل حياء من العين الخارجية (وهو ما تنتج عنه الصعوبة التي نعرفها، والاستحالة، في تحويل المواضيع الملحمية إلى مواضيع مأساوية). منذ أمد طويل والخيال الديني لا يريد بتاتا أن يؤمن بتطابق الإله مع صورة ما : فغرض الصورة هنا هو أن تظهر، بطريقة غامضة ولا تفهم أبدا في كليتها، قوة المعبود على أنها نشيطة، كما لو أنها مرتبطة بمكان ما. إن واجب أقدم صورة إلهية هو أن تضم الإله وتخفيه في الوقت نفسه، وأن تدل عليه دون أن تعرضه. ليس هناك إغريقي واحد نظرت عينه الباطنية إلى أبولو أو إيروس على أنه عمود خشبي حاد أو كومة من الحجر، لقد كانت تلك فقط رموز وضعت بالضبط قصد التخويف من التجسيم. وينسحب ذلك على تلك الأخشاب المنحوتة التي يضيف إليها نحات بئيس عضوا هنا وهناك، وأحيانا بشكل يفوق العدد الطبيعي : وهكذا فقد كان لأبولو في بلدة لاكونيا أربع أيادي وأربع آذان. هناك في الشيء الناقص، التلميحي، التام أكثر مما يجب، قداسة فظيعة لا شك أنها تمنع المرء من التفكير في شيء إنساني، أو من صنف الإنسان. إن تلك الأشكال لم يتم صنعها في مرحلة جنينية من مراحل الفن، كما أن الناس لم يكونوا يعرفون، في ذلك العصر الذي كانوا فيه يعبدون تلك الصورة، أن يتكلموا بوضوح ولا أن يتصوروا الأشياء بشكل ملموس. إلا أن هناك شيئا يخشونه: التعبير المباشر. مثلما المقدس* يضم قدس الأقداس، المعبود الحقيقي جل جلاله، ويخفيه، لكن ليس تماما، وراء ظُليل غامض، ومثلما محيط المعبد يضم المقدس ويحميه، ولكن ليس تماما، من الأنظار الملحاحة، فكذلك تكون الصورة هي المعبود ومَخْبأ المعبود في نفس الوقت. ــ لكن جاء اليوم الذي أثار فيه المنتصر في المصارعة، خارج العبادة، في العالم الدنيوي للمسابقات الرياضية، أثار فيه فرحة عارمة وكبيرة لدرجة أن الأمواج التي تلاطمت من جراء ذلك قد تدفقت حتى داخل بركة الإحساس الديني، جاء اليوم الذي تم فيه نصب تمثال المنتصر في ساحة المعابد التي وجد فيها ممارس الشعائر الدينية نفسه مرغما، أحب أم كره، على تعويد عينه وروحه على رؤية الجمال والقوة الإنسانية، رؤية لا سبيل لتفاديها، بحيث أن عبادة الإله وعبادة الإنسان، المتجاورتين في المكان وفي النفوس، قد انتهتا شيئا فشيئا إلى التداخل والإنسجام. آنذاك، وآنذاك فقط، زال الخوف من الأنسنة الفعلية لصورة المعبود، وانفتح هذا الميدان الكبير أمام فن النحت الكبير : حتى الآن، وإن كان هناك تحفظ مفاده أنه حيثما تعلق الأمر بالتعبد فإن الشكل والقبح القديمين هما اللذين تتم المحافظة عليهما وتقليدهما بحذر. إلا أن الهليني الكريم والمكرس* قد صار بإمكانه أن يستسلم، في ابتهاج تام، لرغبته في تحويل الإله إلى إنسان.

223. إلى حيث ينبغي السفر.

ليست الملاحظة المباشرة للذات كافية ليعرف المرء نفسه : إننا بحاجة إلى التاريخ، لأن تيار الماضي الجارف يخترقنا، ونحن لا نكون إلا ما نشعر به في كل لحظة من هذا التدفق. حتى هناك حيث نريد السباحة في سيل كينونتنا الذي يبدو فريدا وشخصيا للغاية نجد أن قولة هيراقليط لا تزال قابلة للتطبيق : إننا لا نسبح في النهر مرتين. ـ هذا درس قد ثرثر به الناس كثيرا، إلا أنه قد ظل مع ذلك أقوى وأصح ما يكون، تماما مثل الدرس الذي يقتضي، لكي نفهم التاريخ، أن نبحث عن الآثار الحية المتبقية من العصور التاريخية، أن نسافر مثلما كان سلفنا هيرودوت يسافر، وسط الأمم (التي ليست سوى مستويات من الحضارة قديمة ومتحجرة يمكننا أن نوطد أنفسنا فيها)، وسط شعوب يزعمون أنها متوحشة أو نصف متوحشة، أن نذهب هناك حيث الإنسان قد خلع ثوب أوربا أو لم يلبسه بعد. هناك الآن فن ودافع دقيقين للسفر لا يحتمان علينا المرور دائما من مكان إلى آخر قاطعين آلاف الفراسخ مشيا. لا تزال الألفيات الثلاثة الأخيرة تحيا على الأرجح بالقرب منا، بكل فروق وتفرحات حضارتها : يتبقى علينا أن نكتشفها. ولاتزال أطوارها، لدى كثير من العائلات، بل لدى بعض الأفراد، منضدة في نظام جميل وواضح، أما في الأماكن الأخرى فنجد في الصخرة شقوقا يصعب علينا فهمها. من المؤكد أن عينة جليلة من الإحساس الموغل في القدم قد استطاعت أن تحفظ نفسها بيسر في مناطق منعزلة، في أودية جبلية غير مشهورة، لدى جماعات منغلقة على نفسها، وعلينا أن نكتشفها هناك، والحال أن القيام بمثل تلك الإكتشافات في برلين مثلا أمر مستبعد، هناك حيث يولد الإنسان مسحوجا ومجلوا. والذي يصير، بعد ممارسة طويلة لفن السفر هذا، أرغوس* ذي المائة عين سيتمكن في نهاية المطاف من مرافقة أناه في كل مكان، وسيكتشف في كل مكان، في مصر وفي اليونان، في بيزنطة وفي روما، في فرنسا وألمانيا، إبان عصر الشعوب التي تحيا مرتحلة وتلك التي تقيم في الحضر، خلال عصر النهضة أو الإصلاح، في بلده أو في الخارج، بل في البحر، في الغابة، في الزرع وفي الجبل، سيكتشف مرة أخرى مغامرات تجوال تلك الأنا أثناء صيرورتها ثم وقد تغيرت. ـ وهكذا تصير معرفة الذات معرفة شاملة للعهود الماضية، وقد تستطيع التربية التي تحدد من نكون، داخل نسق فكري آخر نكتفي بالتلميح إليه هنا، على يد المفكرين الأحرار الحصيفي النظر، أن تحدد المعيار الشامل للإنسانية كلها في المستقبل.

224. البلسم والسم.

لن يفكر الناس بعمق أبدا في كون المسيحية ديانة القدم المنهوك، إنها تفترض وجود شعوب قديمة متحضرة ومنحطة أمكنهـا ولايزال في إمكانها أن تفعل فيها فعل البلسم. في عصور تكون فيها العيون « عليهـا غشاوة » والآذان « فيها وقر » وعاجزة بالتالي عن سمـاع صوت العقل أو الفلسفة، وعن رؤية الحكمة تمشي جسدا حيا، سـواء حملت اسم إبيكتيت أو اسم أبيقور، قد يتمكن الصليب و« بوق يوم القيامة » من حث بعض من تلك الشعوب على إنهاء حياتها بشكل لائق. لنتفكر روما جوڤينال*، ذلك الضفدع المسموم الذي له عينا ڤينوس (Vénus)* : وسنعرف آنذاك ما يعنيه رسم علامة الصليب أمام « الناس »، آنذاك سنبجل الطائفة المسيحية الرزينة ونمتن لها لانتشارها داخل الامبراطورية الإغريقية الرومانية. حين كان أغلب الناس آنذاك يولدون وروحهم مستعبدة، وفيهم فجور الشيوخ، فإن الإلتقاء بأشخاص كانوا أرواحا أكثر منهم أجسادا كان نعمة وأية نعمة، هم الذين كانوا يبدون وكأنهم يحققون الفكرة الإغريقية عن ظلال الحادس (Hadès)*: أشباحا مذعورة، خفية، مفردة، خيرة، مفعمة بانتظار « حياة أفضل »، مما جعلها تصير لامبالية في استخفاف هادئ، وبصبر أنوف! ـ لاتزال المسيحية، دقة التبشير هذه التي تعلن أفول شمس القدم الجميل، بجرسها المصدوع، المنهك، والذي فيه نغم رغم ذلك، لاتزال بلسما حتى بالنسبة لأذن الذي يكتفي الآن بتصفح تلك القرون كمؤرخ : فما عسى أن تكون المسيحية بالنسبة لأولئك الناس! على العكس من ذلك تعتبر المسيحية سما بالنسبة لبعض الشعوب المتوحشة وبالنسبة لغضاضتها الفتوية، فبث عقيدة القابلية للخطأ والهلاك الأبدي، على سبيل المثال، في روح الألمان القدماء البطولية، الطفولية، والحيوانية، يسممها، وكان لا بد أن ينجم عن ذلك اهتياج هائل وتحلل مزمن، اضطراب في الإحساس وفي الأحكام، انتشار وابتكار أغرب التخيلات، ويتسبب هذا مع مرور الوقت في إضعاف جذري لتلك الشعوب. ـ لكن ماذا كان سيبقى لنا، لولا ذلك الإضعاف، من الحضارة الإغريقية! ومن ماضي الحضارة البشرية كله! لأن الشعوب المتوحشة التي لم تتصل بالمسيحية قد استطاعت أن تمحو الحضارات القديمة بشكل لا هوادة فيه، مثلما برهن على ذلك بوضوح كبير أولئك الوثنيون الذين غزوا بريطانيا التي كانت مرومنة*. لقد ساعدت المسيحية، بفضل هيأة دفاعها، على جعل « العالم » القديم خالدا. يبقى هنا سؤال متناقض وإمكانية حصول تقدير مضاد : هل كانت هذه الشعوب القوية، كالجرمان مثلا، لولا ذلك الإضعاف بالسم الذي تحدثنا عنه، ستستطيع العثور من تلقاء نفسها على حضارة راقية، أصيلة، وجديدة ؟ والتي لن تصل إلى الإنسانية منها، فيما

بعد، ولو فكرة بسيطة ؟ نفس الشيء ينسحب على هذا : إننا لا ندري، ولنتكلم مثل المسيحيين، إن كان الرب هو المدين بالعرفان للشيطان، أم الشيطان هو المدين بذلك للرب، على كون الأمور قد آلت إلى ما هي عليه.

225. الإيمان ينجي ويهلك.

إن المسيحي الذي يتفكر في أفكار محرمة قد يتساءل ذات يوم : هل من الضروري فعلا أن يوجد رب بجانب حمل نضحي به عوضا عنه، إن كان الإيمان بوجودهما معا تترتب عنه نفس النتائج ؟ ألن يكونا كائنين زائدين، هذا إن كان لهما وجود أصلا ؟ لأن كل ما تمنحه الديانة المسيحية للروح الإنسانية من نعمة، من مواساة، ومن تهذيب، وكذلك ما يعتمها ويسحقها، ينبع من ذلك الإيمان وليس مما يؤمن به الناس. ليس الأمر هنا بخلاف ذلك اللهم إلا في حالة الساحرات : من المؤكد أنه لم تكن هناك ساحرات أبدا، لكن الآثار الفظيعة للإعتقاد في وجودهن كانت هي نفس الآثار التي ستنتج عن وجودهن الفعلي. في كل الحالات التي ينتظر فيها المسيحي التدخل المباشر للرب، لكن دون جدوى، تبتكر المسيحية كثيرا من الأعذار والأسباب من أجل التهدئة : إنها تعتبر ديانة حاذقة في هذا المضمار. ـــ لا جرم أن الإيمان لم يستطع حتى الآن أن ينقل جبالا حقيقية من أماكنها، وإن كنت لا أعلم من زعم ذلك، ولكنه قادر كل القدرة على وضع جبال هناك حيث لا جبال إطلاقا.

226. مأساة راتزبون الهزلية.

يمكننا أن نرى هنا وهناك، وبوضوح شديد، تلك المسرحية الهزلية التي يمثلها القدر إذ يربط ببعض الأيام، بمكان واحد، بأمزجة وآراء رأس واحدة، ذلك الحبل الذي يحلو له أن يجعل القرون التالية ترقص على طرفه. وهكذا نجد قدر التاريخ الألماني المعاصر القاتل يرتبط بالأيام التي جرت فيها مناظرة راتزبون الشهيرة : لقد كان المخرج السلمي من الصعوبات الكنسية والأخلاقية يبدو أكيدا بدون حروب دينية ولا إصلاح مضاد، كما كانت وحدة الأمة الألمانية تبدو أكيدة. لقد حلق عقل كونتاريني (Contarini) المتبحر والحليم ظافرا في سماء الخصومات الفقهية حينا من الدهر، هو الذي كان يمثل التدين الإيطالي في أصفى حالاته، عاكسا بأجنحته فجر حرية الفكر. إلا أن عقل لوثر الثخين، المحشو بالشكوك وبالكرب الغامض، عصى : بما أن التبرئة من خلال المغفرة كانت تبدو له أكبر اكتشافاته و شعاره الشخصي، فإنه لم يؤمن بنفس الافتراض الذي أعلنه الإيطاليون الذين اكتشفوه، كما نعلم، قبله بكثير ونشروه في صمت في كل

أرجاء إيطاليا. لقد رأى لوثر في ذلك الوفاق الظاهر مكر الشيطان وحال دون السلام ما وسعه ذلك، وبذلك ساعد مخططات أعداء الإمبراطورية على التقدم شوطا طويلا. ـ والآن، ولكي نقوي أكثر انطباع الهزل الكئيب هذا دعونا نضيف أن كل الأطروحات التي كان الجدل قائما بشأنها آنذاك في راتزبون،سواء أطروحةالخطيئة الأصلية أو أطروحة الخلاص الوكيلي*،أو أطروحة التبرئة من خلال الإيمان، ليست صحيحة بأي وجه من الوجوه، بل لا علاقة لها بالحقيقة البتة، وأنها قد أصبحت كلها اليوم غير قابلة للجدال : ـ ومع ذلك فقد كانت هي السبب الذي أدى إلى إشعال فتيل الحرب من جراء آراء لا يقابلها أدنى شيء ولا أدنى حقيقة، أما فيما يتعلق بالمسائل الفقهية اللغوية المحضة، مثلا حسب التفسير الذي أعطي لوصايا العشاء السري، فإنه يسمح بالخلاف، لأن الحقيقة يمكن أن تقال هنا. لكن هناك حيث لا يوجد شيء فإن الحقيقة ذاتها لا يعود لها أي حق. ـ ولا يتبقى في النهاية إلا أن نقول أنه قد تفجرت آنذاك مصادر طاقة قوية جدا لم تكن دواليب العالم الحديث لولاها لتدور بقوة كبيرة. والقوة هي ما يهم في المقام الأول، ثم تأتي بعد ذلك الحقيقة، ولكنها لا تظل مهمة لمدة طويلة، أليس كذلك يا معاصري الأعزاء ؟

227. أخطاء غوته.

إن غوته هو الإستثناء الكبير من بين كبار الفنانين وذلك لكونه لم يعش داخل الحدود الضيقة لمقدراته الحقيقية كما لو كانت بالنسبة له ولكل الناس، هي الأساسي والمطلق، هي أقصى درجات الامتياز. لقد اعتقد اعتقادا مضاعفا أنه يملك أكثر وأفضل مما كان يملكه فعلا ـ وقد أخطأ في النصف الثاني من حياته حين ظهر مقتنعا أشد الإقتناع بأنه واحد من المفكرين في ميدان الإكتشاف والتفسير العلميين. كما أخطأ من قبل في النصف الأول من حياته : لقد كان يتطلب من نفسه شيئا أسمى من الشعر كما كان يبدو له، وقد كان مخطئا في ذلك. لقد أهلته الطبيعة لأن يكون فنانا مستقل الخطة*، ذلك هو السر الذي كان يلهبه ويضنيه من الداخل، والذي انتهى بدفعه للسفر إلى إيطاليا ليتفرغ كلية لهوس ذلك الوهم ويقدم من أجله كل التضحيات الممكنة. وقد اكتشف في النهاية، وهو المفكر الصاحي والشديد العداوة لزيغان كيانه، أن ما دفعه للإيمان بذلك النداء الباطني إنما هي رغبة ماكرة لا تستقر على حال، وأن عليه أن يتجرد من هوى إرادته الأكبر وينفصل عنه. وقد تجلى التعبير الشامل والنهائي عن ذلك الإقتناع المؤلم، الجارح والمحزن، بكون ذلك الإنفصال ضروريا، في حالة Tasse المعنوية : يزعجه، وهو « فردر (Werther) ذو القوة الخارقة »، الإحساس السبقي

بحدوث شيء ما أسوأ من الموت، مثلا حين يقول : « لقد انتهى كل شيء الآن، بعد هذا الإنفصال، كيف سيمكنني أن أعيش دون أن أصاب بالجنون !» ــ هذان الخطآن الأساسيان في حياة غوته هما اللذان أعطياه، في مواجهة موقف أدبي محض بشأن الشعر، وهو الموقف الوحيد الذي كان الناس يعرفونه آنذاك، أعطياه هيأة طليقة وشبه تعسفية في الظاهر. إذا استثنينا المرحلة التي أخرجه فيها شيلر (الذي لم يكن لديه متسع من الوقت ولم يكن يدع للمرء منه متسعا) من تحفظه النُّفور بخصوص الشعر، ومن خوفه من كل نشاط وكل حرفة أدبيين، فإن غوته يبدو لنا مثل إغريقي يذهب من حين لآخر ليزور عشيقة والشك يساوره في أن تكون تلك ربة لا يعرف اسمها الحقيقي. إننا نشعر في إبداعاته الشعرية بأنفاس الطبيعة والتشكيل قريبة جدا : لقد حددت سيماء تلك الأشكال التي كانت تسكن خياله (وربما كان يعتقد دائما أنه إنما يقتفي أثر تحولات ربة واحدة وفريدة) حددت، دون أن يريد ذلك أو يعلمه، سيماء كل آثار فنه. ولولا منعطفات الخطأ لما صار غوته ذلك الفنان الألماني الوحيد في ميدان الكتابة الذي لايزال حضوره قويا في الحاضر، ــ وذلك لأنه لم يكن يريد أن يكون لا كاتبا محترفا ولا ألمانيا محترفا.

228. مستويات المسافرين.

نلاحظ أن هناك خمس مستويات من المسافرين : فمسافرو المستوى الأول أي المستوى الأدنى، هم الذين يسافرون ويُرون وهم مسافرون، ــ إنهم يقادون في سفرهم، وكأنهم عمي، الذين يلونهم يرون العالم بأنفسهم، مسافرو المستوى الثالث يفيدون من رؤيتهم [للعالم] تجربة معاشة، مسافرو المستوى الرابع يتمثلون المعيش بشكل حي ويحملونه معهم، وأخيرا هناك بعض الأشخاص ذوي نشاط أكبر عليهم حتما، بعد أن يكونوا قد عاشوا كل ما رأوه وتمثلوه، أن يعيشوه مرة ثانية بتحويله إلى أفعال وأعمال أدبية، بمجرد ما يعودون إلى منازلهم. ــ على غرار هذه الأصناف الخمسة من المسافرين يقطع الناس خط سير حياتهم كله، الذين في مستوى أدنى يقطعونه كأشخاص سلبيين، والذين في مستوى أعلى كأشخاص فاعلين، يعبرون عن حياتهم كلها دون أن يتركوا أدنى بقية من قوتهم الباطنية دون استعمال.

229. الإرتقاء إلى أعلى.

في اللحظة التي نرتقي فيها أعلى من الذين كانوا معجبين بنا نبدو لهم وكأننا قد انحدرنا وهوينا أسفل سافلين : ذلك أنهم كانو حتى ذلك الحين، وفي كل الأحوال، يتصورون أنفسهم معنا في الأعالي (والفضل في ذلك يعود لنا).

230. الرزانة والاعتدال.

من الأفضل ألا نتحدث أبدا عن الرزانة والإعتدال، ذينك الشيئين الساميين. قليلون هم أولئك الذين يعرفون قوتهما من خلال السبل التكريسية (initiatique)* سبل التجارب والإهتداءات الباطنية : إنهم يبجلون فيهما شيئا سماويا ويخشون الكلام الرنان. أما الآخرون كلهم فقلما يصغون حين نتحدث عن هذين الشيئين، ويعتقدون أن الأمر يتعلق بالملل وبالرداءة، وربما نستثني منهم أولئك الذين التقطوا ذات يوم إشارة تدعوهم إلى ذلك الملكوت لكنهم صموا آذانهم عنها. والذكرى التي يحتفظون بها من ذلك تغضبهم وتسخطهم.

231. إنسانية الصديق والمعلم.

«اذهب أنت من جهة المشرق، وسأولي وجهي أنا وجهة المغرب »ــ يعتبر الشعور من هذا النوع علامة سامية على إنسانية العلاقة الحميمية، وإذا ما غاب هذا الشعور تحولت كل صداقة، كل علاقة بين المعلم والتلميذ إلى نفاق.

232. عميقو التفكير.

يتخذ عميقو التفكير، في معاشرتهم للآخرين، مظهر الممثلين الهزليين، وذلك لأنه عليهم أن يبدأوا آنذاك، لكي يُفهَموا، باتخاذ مظهر سطحي كاذب.

233. لمحتقري « البشرية القطيعية ».

الذي ينظر إلى الناس على أنهم قطيع ويفر منهم بأسرع ما يستطيع سوف يلحقون به بكل تأكيد وينطحوه بقرونهم.

234. خطأ قاتل في حق المغرور.

الذي يمنح شخصا آخر برفقته فرصة التألق بإظهار علمه وحساسيته وتجربته يضع نفسه في مكانة أعلى منه، وإذا لم يعترف به ذلك الشخص الآخر على أنه أرفع مكانة منه، دون تحفظ، فإنه يكون بذلك قد ارتكب جريمة قاتلة في حق غروره الذي كان يظن أنه يرضيه بذلك.

235. خيبة أمل.

من المعروف أن معاشرة شخص حفلت حياته النشيطة الطويلة بالكلام والكتابة تخلف خيبة أمل، وذلك لسببين : أولا، لأن الذي يعاشره ينتظر الكثير من لقاء يدوم

لحظة وجيزة (المعرفة، وكل ما قد تكشفه الفرص المتاحة مدى العمر)، وثانيا لأن كل شخصية معترف بها لا تتكلف عناء الطمع في تقديرات ثانوية.إن لامبالاتها تجعلنا متوترين.

236. مصدران للطيبة.

إن معاملتك لكل الناس، دون تمييز، بنفس العطف ونفس الطيبة قد يكون مصدرها إما ازدراء كبير للإنسانية أو حب مكين لها.

237. الحوار الداخلي لدى مسافر عبر الجبل.

هناك علامة على انك قد تقدمت وارتقيت عاليا : الرؤية حواليك أصبحت أكثر وضوحا وغنى من ذي قبل، صار النسيم يهب عليك عليلا، لكنه لطيف كذلك (لأنك قد نسيت حماقة الخلط بين اللطافة والحرارة)، مشيتك صارت أكثر حيوية وحزما، وشجاعتك قد نمت في نفس الوقت الذي نما فيه صحوك : ـ بسبب هذا كله قد يصير طريقك الآن أكثر وحشة وأشد خطورة من طريقك القديم ، ولكن ليس بنفس القدر الذي يعتقده أولئك الذين ينظرون إليك، أيها المسافر، من قعر الوادي المضبب وأنت تمشي على الجبل.

238. ماعدا الجار.

جلي أن رأسي ليست متوازنة على كتفي وحدهما، لأن أي شخص آخر، وهذا أمر معروف، يعرف أكثر مني ماذا علي أن أفعل أو لا أفعل، وأنا وحدي الولد المسكين الذي لا يعرف كيف يتدبر أمره. ألسنا كلنا نشبه تماثيل وضعت لها رؤوس ليست رؤوسها ؟ أليس كذلك يا جاري العزيز ؟ـ لا، فأنت تشكل استثناء.

239. حيطة.

لا ينبغي لنا أن نعاشر الذين لا يكنون احتراما للحياة الشخصية، وإلا وجب علينا أن نكبلها بلا شفقة بقيود اللياقة مسبقا.

240. إرادة الظهور بمظهر المغرور.

ألا يعبر المرء أثناء حديثه مع من لا يعرفهم، أو مع من يعرفهم قليلا، سوى عن أفكار قد انتقاها، أن يتحدث عن معارفه المشهورين، عن تجاربه وأسفاره الهامة، فتلك علامة على أنه ليس متكبرا، ولا يريد، على الأقل، أن يبدو كذلك. فالغرور هو قناع المجاملة الذي يرتديه المتكبر.

241. الصداقة المتينة.

تولد الصداقة المتينة حين نقدر الطرف الآخر كثيرا، أكثر من أنفسنا، حين نحبه كذلك، ولكن ليس أكثر من أنفسنا، و أخيرا حين نعرف، لكي نسهل التعامل فيما بيننا، كيف نضيف إلى ذلك مسحة ما، نزرا يسيرا من الحميمية، مع إمساكنا، بشيء من الحكمة، عن الدخول في حميمية واقعية وحقيقية، عن الخلط بين أنت وأنا.

242. الأصدقاء الأشباح.

حين نتغير بشكل جذري يصير أصدقاؤنا الذين لم يتغيروا أشباحا من ماضينا : يصل صوتهم إلى مسامعنا من خلال نغمة تجمدنا، وكأننا نسمع صوتنا يوم كنا شبابا أقوياء وأفظاظا.

243. عين واحدة ونظرتان.

الذين يتنقلون ببساطة بنظرتهم بحثا عن المراعاة وعن الحُماة عادة ما تكون لهم كذلك، من جراء إذلالهم وإحساسهم المتكرر بالإنتقام، نظرة وقحة.

244. البعيد الغامض.

إنها طفلة طيلة حياتها، هذا حكم يجعل لهجة ما مؤثرة، ولكنه حكم صادر عن بعد، فإذا ما عاشرناها عن قرب قلنا عنها : أنهاصبيانية طيلة حياتها.

245. الإيجابي والسلبي في سوء التفاهم.

الشدة التي تخرس الفكر الثاقب عادة ما يفسرها الذين ليس في ذهنهم حدة على أنها تَفَوُّق مضمر، ولذلك يخشونها : والحال أن إدراك شدة ما قد يُوَلِّد العطف.

246. تظاهر الحكيم بالجنون.

أحيانا تحتم الرأفة على الحكيم أن يتصنع الهوس والغضب والقناعة حتى لا يسيء إلى محاوريه بهدوء طبعه الحقيقي وصحوه.

247. إجبار النفس على الإصغاء.

بمجرد ما نلاحظ أن شخصا ما، في علاقاته معنا ومحادثاته لنا، يجبر نفسه على الإصغاء إلينا فإننا نملك الدليل الساطع والقاطع على أنه لا يحبنا بالمرة أو لم يعد يحبنا.

248. سبيل فضيلة مسيحية.

أفضل سبيل تقودنا إلى محبة الأعداء هي أخذ العبرة منهم، لأن ذلك يهيئنا للعرفان بالجميل.

249. حيلة المزعج.

يرد لنا المزعج عملة تعاقدنا الفضية عملة ذهبية، وهو يروم بذلك إرغامنا، بعد فوات الأوان، على الإستخفاف بتعاقدنا واعتباره هو استثناء.

250. سبب النفور.

غالبا ما ننفر من فنان أو كاتب ما، ليس لأننا نتنبه في نهاية الأمر إلى أنه خدعنا، بل لكونه لم ير ضرورة في اللجوء إلى وسائل أدق ليوقع بنا.

251. في الإنفصال.

إنني أتعرف على النسب والقرابة اللذين يجمعان روحا مع روح أخرى ليس في طريقة اقترابها منها بل في طريقة ابتعادها .

252. الصمت.

لا ينبغي لنا التحدث عن أصدقائنا وإلا أفقدتنا الكلمات إحساس الصداقة.

253. الوقاحة.

غالبا ما تكون الوقاحة دليلا على تواضع أرعن يُجَن جنونه في حالة مباغتته ويود إخفاء ذلك الدليل وراء الكلام البذيء.

254. خيبة أمل في الصدق.

أحيانا يكون معارفنا الحديثو الارتباط بنا هم من يعلم ما كنا نكتمه إلى حين ارتباطنا بهم، ونتصور حينها ببلاهة أن الثقة فيهم ستكون هي القيد القوي الذي سيمكننا من الاحتفاظ بهم، ولكنهم لا يعرفوننا بما فيه الكفاية ليحسوا جيدا بقربان المُسارة الذي نقدمه فيفشون أسرارنا دون أن تخطر الخيانة على بالهم، بحيث أننا قد نفقد بذلك معارفنا القدماء.

255. في غرفة انتظار الحظوة.

كل الذين ندعهم ينتظرون فترة طويلة في غرفة انتظار الحظوة يهتاجون ويصيرون عنيفين.

256. إعلان للمُحتقَرين.

إذا ما فقدنا احترامنا للناس بشكل واضح وجب علينا، حين نكون بصحبتهم، أن نمتنع عن إظهار ذلك ولا نخالف اللياقة، وإلا سنكشف للآخرين أننا لا نبدي احتراما لأنفسنا كذلك.لأن إبداء المرء للوقاحة حين يكون رفقة الآخرين تكون دليلا على احتقاره لنفسه حين يكون وحيدا.

257. بعض الجهل يجعلك نبيلا.

فيما يخص احترام موزعي الإحترام من الأفضل ألا نفهم بعض الأشياء فهما واضحا. فالجهل أيضا يمنحنا بعض الإمتياز.

258. عدو العفو.

المتعصب المتكبر لا يحب العفو، إنه يرى فيه عتابا ملموسا وصريحا موجها إليه، لأن العفو هو تسامح القلب في مشاعره ومبادرته.

259. وقت اللقاء.

حين يلتقي صديقان قديمان بعد فراق طويل فإنه غالبا ما يحدث أن يبديا اهتماما كبيرا حين يتعلق الأمر بأشياء لم تعد مهمة بالنسبة لهما، وإنهما لينتبهان لذلك أحيانا، ولكنهما لا يجرؤان على البوح به ـ بدافع من حيرة محزنة. وبذلك تجري بينهما أحاديث تشبه تلك التي يعرفها عالم الأموات.

260. اتخذ أصدقاءك من العمال.

العاطل خطر على أصدقائه، بما أنه لاشغل له يشغله فإنه يتحدث كثيرا عما يفعله أصدقاؤه وعما لا يفعلونه، وينتهي بأن يتدخل في أمورهم ويصير مزعجا : لهذا تقتضي الحكمة ألا نربط صداقة إلا مع العاملين.

261. حيث يساوي سلاح واحد سلاحين.

يكون الصراع غير متكافئ حين يدافع الواحد عن قضيته بعقله وقلبه بينما الآخر يدافع بعقله فقط. فالأول تقف الشمس والريح تقريبا ضده ويضايق أحد سلاحيه السلاح الآخر، فيفقد الجائزة ـ في نظر الحقيقة. وفي المقابل فإن انتصار الثاني بسلاحه الوحيد نادرا ما يعتبر انتصارا حسب كل المشاهدين الآخرين، وذلك يحط من قدره في نظرهم.

262. العكر والعمق.

يخلط العامة بسهولة بين ذلك الذي يصطاد في المياه العكرة والذي يغترف من الماء العميق.

263. معاملة الأعداء والأصدقاء بغرور.

كثير من الناس من يعامل أصدقاءه بغرور، وذلك حين يكون في حضرة شهود يريد أن يريهم تفوقه بوضوح، وكثير منهم من يبالغ في قيمة أعدائه ليظهر للناس بأنفة أنه جدير بأولئك الخصوم.

264. برود.

غالبا ما يتم ربط دفء القلب بعجز العقل، عجز الحكم. فالذي يشعر بحاجة إلى صحة هذين الأخيرين يجب أن يعرف ماذا عليه أن يرد : دون أن يخشى شيئا على مستقبل قلبه! لأن القادر على بعث الدفء على أية حال سيبعث الدفء في نفسه وسيكون له صيف ولا شك.

265. مزيج الأحاسيس.

تشعر النساء والفنانون الأنانيون تجاه العلم بمزيج من الغيرة والعاطفية.

266. حين يكون الخطر هو الأكبر.

نادرا ما نصاب بكسر في الساق حين نتسلق الحياة بمشقة، ولكننا نصاب به حين نشرع في اختيار الهناء والطرق السهلة.

267. ليس باكرا جدا.

علينا ألا نشحذ أنفسنا باكرا جدا، ـ لأننا بذلك ننحف باكرا جدا.

268. حين يكون المعاند مُرضيا.

هناك حالات يفخر فيها المربي الجيد بوقوف تلميذه ضده ليظل وفيا لنفسه : إنها الحالات التي لا يحق فيها للمراهق أن يفهم الرجل الناضج، أو لن يفهمه إلا إذا ألحق الضرر بنفسه هو.

269. محاولة الصدق.

الشبان الذين يريدون أن يصيروا صادقين أكثر من ذي قبل يبحثون عن ضحيتهم في شخص يكون مشهودا له بالصدق، فيبدأونه بالهجوم محاولين الإرتفاع إلى مستواه من

خلال شتائمهم ـ تسندهم فكرتهم المسبقة عن كون تلك المحاولة الأولى سوف لن تكون مؤذية، لأنه لن يكون من واجب ذلك الشخص أن يعاقب إنسانا صادقا على وقاحته.

270. الطفل الخالد.

إننا نتصور أن الحكاية واللعب يخصان الطفولة، ما أحسر نظرنا! كأننا نرغب أن نحيا دون حكايات ولا ألعاب مهما تكن سننا! لاشك أن فكرتنا عنهما وإحساسنا بهما مختلفان، ولكن ذلك يخدم كونهما يعنيان نفس الشيء : ـ لأن الطفل يجد هو كذلك في اللعب حاجته وفي الحكاية حقيقته. على قصر الحياة أن يحفظنا من هذا الفصل المتحذلق لمراحل العمر ـ كما لو كانت كل مرحلة تأتينا بشيء جديد ـ، وعلى الشاعر أن يمثل يوما ما رجلا عمره مائتي عام، أي ذاك الذي يحيا حقا دون حكايات ولا ألعاب.

271. كل فلسفة هي فلسفة مرحلة من مراحل العمر.

النظرية التي يكتشفها الفيلسوف في مرحلة معينة من حياته تعكس تلك المرحلة، ولن يسعه أن يمنعها من عكسها مهما يكن تساميه فوق الزمن وفوق الوقت. وهكذا تبقى فلسفة شوبنهاور انعكاسا للشباب النشيط والسوداوي، ـ إنها ليست فكرا موجها لفئة عمرية معينة. فلسفة أفلاطون كذلك تذكرنا بمنتصف الثلاثينيات من العمر التي عادة ما يلتقي فيها سيلان هادران، حارق و بارد، فينتج عن ذلك غيوم خفيفة، وأذا ما كانت الظروف وأشعة الشمس مواتية نتج عنه قوس قزح ساحر.

272. عن ذكاء النساء.

إن ما يؤكد قوة المرأة الفكرية غاية التأكيد هو كونها تضحي بنباهتها بدافع حبها للرجل ولنباهته، وكونها مع ذلك تكتسب في الحين نباهة ثانية في هذا الميدان الجديد والغريب أصلا على طبيعتها الذي يدفعها إليه ذكاء الرجل.

273. التسامي والانحدار في الجنس.

أحيانا ترتفع عاصفة الشهوات الجنسية بالرجل إلى علو تصمت في كل الشهوات، هناك حيث يحب فعلا ويستمتع بحياة أفضل بكيانه أكثر منه بإرادته. في مقابل ذلك تنحدر المرأة المحبة في الغالب، بدافع الحب الصادق، إلى الرغبة الجنسية وتنظر إلى

ذلك، وهي تمارسه، على أنه حط من كرامتها. هذا واحد من الأشياء المقلقة التي قد تتضمنها الفكرة التي نكونها عن الزواج السعيد.

274. المرأة إنجاز و الرجل وعد.

تظهر لنا الطبيعة في المرأة الكمال الذي استطاعت بلوغه حتى الآن في شأن صورة الإنسان، وفي الرجل تظهر لنا الصعوبات التي كان عليها تجاوزها من أجل ذلك، وتظهر لنا أيضا ما تعد بأن تفعله بالإنسان. ـ تمثل المرأة الكاملة، في كل عصر، بطالة الخالق في كل يوم سابع من أيام الحضارة و استراحة الفنان أثناء عمله.

275. ازدراع Transplantation.

إذا تمكننا من الإمساك بزمام مغالاة الأهواء باستخدام عقلنا فإننا، من خلال تلك النتيجة المحزنة، قد ننقل المغالاة إلى عقلنا لنصاب بالهذيان منذ ذلك الحين في الفكر وفي إرادة المعرفة.

276. الضحك الذي يفضح.

الطريقة التي تضحك بها المرأة، واللحظة التي تضحك فيها، هما علامة ثقافتها، وصوت ذلك الضحك يكشف طبعها، بل ربما يكشف، لدى النساء العاليات الثقافة، تلك البقية الباقية من طبعهن التي يتعذر إنقاصها. لذلك قد يقول أخلاقي مثل هوراس، ولكن لسبب آخر : اضحكي أيتها الفتاة.

277. في روح الشبان.

يناوب الشبان الإخلاص والوقاحة في معاملتهم لنفس الشخص، لأنهم، في الحقيقة، لا يحترمون ولا يزدرون في الآخر سوى أنفسهم، ولأنهم يراوحون كثيرا بين ذينك الإحساسين، فيما يخص شخصهم، ماداموا لم يعثروا بعد في التجربة على معيار إرادتهم وقدرتهم.

278. من أجل عالم أفضل.

لو حرمنا الإنجاب على الساخطين، على سوداويي الطبع وعلى المتذمرين، فقد نحول العالم فجأة إلى بستان للبهجة، ـ لهذه الفرضية مكانها في فلسفة عملية خاصة بالجنس اللطيف.

279. لا تحذر إحساسك.

النصيحة النسوية التي تقتضي عدم ارتياب المرء في إحساسه قلما تعني شيئا سوى التهموا ما يعجبكم. قد يكون ذلك، بالنسبة للمعتدلين، قاعدة صالحة لكل يوم. وعلى الآخرين أن يعيشوا حسب أمر آخر : « عليك أن تأكل ليس بفمك فقط، بل بعقلك كذلك، حتى لا تقودك شراهة فمك إلى الهلاك. »

280. قسوة إيحاء الحب.

يقترن كل حب كبير بالفكرة الفظة القاضية بقتل موضوع ذلك الحب ليحميه نهائيا من التغيير الذي ينتهك الحرمات: لأن التغيير يرعب الحب أكثر مما يرعبه الإفناء.

281. الأبواب.

يرى الطفل أبوابا، كما الرجل، في كل ما يشعر به وما يتعلمه : إلا أن الرجل يرى فيها سبلا ينفذ منها، بينما لا يرى فيها الطفل دائما إلا ممرات.

282. نساء شفوقات.

تحمل شفقة النساء الثرثارة سرير المريض إلى قلب السوق.

283. استحقاق مبتسر.

الذي يكتسب استحقاقا منذ شبابه غالبا ما ينسى في نفس الوهلة احترام السن والذين يكبرونه سنا، وبذلك يخرج نفسه، مؤذيا لها، من جماعة الرجال الناضجين، الموزعين للنضج : بحيث أنه يظل غرا مزعجا ومراهقا مدة أطول من الآخرين.

284. المتشابهون قلبا وقالبا.

تتوهم النساء والفنانون أنه حين لا يعارضهم أحد فلأن معارضتهم مستحيلة. فعثور المرء على عشرة أسباب للإعتراف لهم بالتفوق، وعشرة أخرى لتوجيه نقد ضمني إليهم يبدو لهم دليلا على عدم القدرة على الانسجام، لأنهم متشابهون قلبا وقالبا.

285. المواهب الشابة.

علينا أن ننهج طريقة صارمة مع المواهب الشابة طبقا لحكمة غوته التي تريد منا أن نتفادى الإساءة إلى الخطأ كي لا نسيء إلى الحقيقة. يشبه حالهم أمراض الحمل ويتضمن رغبات شاذة علينا تلبيتها والإذعان لها ما أمكننا ذلك نظرا للثمرة التي نرجوها منها. يجب علينا، وقد عهد إلينا بحراسة هؤلاء المرضى الفريدين من نوعهم، أن نعرف فن الإذلال الطوعي للذات، وهو فن عسير.

286. نفور من الحقيقة.

جبلت النساء على طبع يجعل كل حقيقة لها علاقة بالرجل، بالحب، بالطفل، بالمجتمع، وبمعنى الحياة، تثير اشمئزازهن، كما يجعلهن هذا الطبع يسعين للإنتقام من كل من ينبههن.

287. مصدر الحب الكبير.

ما مصدر العواطف المفاجئة، الجياشة، الحميمية، التي يبديها رجل لامرأة ؟إن الشبقية وحدها لا تشكل منها سوى السبب الأدنى، ولكن حين يجد الرجل الضعف، الحاجة إلى المساعدة، والزهو مجتمعة في امرأة واحدة فإن شيئا يجري في كيانه وكأن روحه تكاد تطفح : يجد نفسه مذهولا ومهانا في ذات اللحظة، عندها ينبثق نبع الحب الكبير.

288. النظافة.

علينا أن نؤجج حس النظافة لدى الطفل حد العشق، وفيما بعد سيسمو هذا الحس، عبر تحولات دائمة التجدد، ليقارب مستوى الفضيلة ويبدو في النهاية، معوضا كل المواهب، كوفرة جلية في النقاء، في الإعتدال، في الرحمة، في الخلق، ـ حاملا في ذاته السعادة وناشرا إياها حوله.

289. عن الشيوخ المغرورين.

التعمق من خاصيات الشباب، والوضوح من خاصيات الشيخوخة. وحين يتحدث الشيوخ أحيانا أو يكتبون بأسلوب المتعمقين فإنهم يفعلونه بدافع الغرور ظانين أنهم بذلك سوف يكتسون بسحر حماس الشباب، سحر الكينونة وهي تتشكل، سحر الاستشعارات والآمال.

290. استخدام الجديد.

بمجرد ما يتعلم الرجال شيئا جديدا أو يجربونه فإنهم يستخدمونه كما يستخدمون سكة المحراث، وربما كما يستخدمون السلاح : أما النساء فسرعان ما يتخذنه حلية.

291. صواب الجنسين.

وافقوا امرأة بقولكم إنها على صواب وسترون أنها لن تتورع عن وضع قدمها بازدراء على رقبة المهزوم، ـــ تريد أن تتلذذ بانتصارها إلى منتهاه، أما الرجل فيحمر

خجلا، حين يواجه رجلا آخر، من أن يكون على صواب. لأن الرجل قد اعتاد الإنتصار، أما المرأة فالإنتصار لديها استثناء.

292. التخلي عن إرادة الجمال.

لكي يتسنى لامرأة أن تكون جميلة فإنه لا ينبغي لها أن تريد الإشتهار بكونها جميلة : يعني أنه عليها، في تسع وتسعين حالة من الحالات التي قد تعجب الآخرين فيها، أن تزدري ذلك وتمتنع عنه بغية خزن محصولها نهائيا، وهو إغواء الرجل الذي تتسع رحابة روحه لذلك العطاء الكبير.

293. أمر مُبهم ولا يمكن تحمله.

لا يفهم الشاب أن يكون واحد ممن يكبرونه سنا قد عرف ذات مرة نفس ما يعرفه هو الآن من نشوة، من بدايات عاطفية، من اندفاع في الأفكار وطرق التعبير عنها. حين يفكر في كون هذه الأشياء قد وجدت مرتين يشعر بالذل، لكن ما يجعله في وضع عدائي هو سماع ما يقال له بأنه عليه، لكي يكون مثمرا، أن يفقد أزهاره ويستغني عن أريجها.

294. الحزب المتظاهر بأنه ضحية.

كل حزب عرف كيف يتظاهر بأنه ضحية يستميل إليه القلوب الطيبة ويحوز فيها مظهر الصلاح، وذلك يخدمه كثيرا.

295. الإثبات آكثر تأثيرا من البرهنة.

الإثبات أبلغ تأثيرا من البرهان، على أغلبية الناس على الأقل، لأن البرهان يثير الريبة. لذلك يسعى الخطباء الشعبيون لتدعيم براهين حزبهم بالكثير من الإثباتات.

296. أفضل الكتومين.

كل الذين يخدمهم التفوق بانتظام تكون لديهم حيلة ناجعة بحيث أنهم لا يكشفون أبدا عيوبهم وضعفهم إلا مغلفة بكثير من القوة : وهذا ما يلزمهم بأن تكون لديهم بذلك معرفة جيدة وجلية بامتياز.

297. من حين لآخر.

جلس بباب المدينة وقال لأحد المارين به بأن ذلك هو باب المدينة، فرد عليه الآخر بأن ذلك صحيح، وأنه لا يلزمنا دائما أن نكون على صواب حين يكون هدفنا أن نال

امتنان الناس. أوه، أجابه بدوره، ليس الشكر هوما أريد، ولكنه يحلو لي، من حين لآخرأن أكون ليس على صواب فقط، بل على صواب يتعذر دحضه.

298. ليست الفضيلة ابتكارا ألمانيا.

تميز غوته وترفعه، انقياد بتهوفن الزهدي، لطافة موزار ورهافة قلبه، جولة هاندل الصلبة وحريته تحت إكراه القوانين، حياة باخ الداخلية المفعمة بالنور والثقة والتي تحتاج إلى التخلي عن التألق والتفوق، أتكون هذه مزايا ألمانية ؟ ـ حتى وإن لم تكن كذلك فإنها ترينا، على الأقل، ما قد ينزع إليه الألمان وما قد يبلغونه.

299. خداع تكفيري أم شيء آخر.

أود لو أكون على خطأ، ولكن يبدو لي، في ألمانيا الوقت الحاضر، أن الناس يؤدون واجبهم اليومي بنوع مضاعف من النفاق: ينادون بالجرمانية بسبب قلقهم من السياسة الإمبراطورية، وبالمسيحية بدافع الخوف على مصير المجتمع، ينادون بهما فقط من خلال الكلمات أو الإشارات، وخاصة من خلال فن الصمت. إنه الكلاس الغالي الثمن، في الوقت الحاضر، الذي يشترى غاليا، إن المستهدف من وراء إظهار تلك التقطيبات التوتونية والمنافقة هم المشاهدون.

300. بأي اعتبار يمكن للنصف أن يكون، حتى في الخير، أكثر من الكل.

في كل الأمور التي يتم وضعها لتبقى، والتي تتطلب دائما أن يكون في خدمتها كثير من الأشخاص، يجب اتخاذ الأقل صلاحا قاعدة، رغم كون الواضع يعرف تمام المعرفة أمورا أفضل وأصعب من ذلك، وهو يجعل غاية تخطيطه عدم حصول نقص في الأشخاص الذين يستطيعون استيفاء شروط القاعدة، ـ وهو يعرف أن الأشخاص المتوسطي المنزلة هم من يشكل القاعدة. ونادرا ما يفهم الشاب هذا، وإنه لعجيب أمر المجدد، حين يفهمه، كيف يعتقد أنه على صواب ويجد ضلال الآخرين غريبا.

301. المتحزب.

لم يعد المتحزب الحقيقي يتعلم، إنه فقط يخضع للتجارب ويصدر أحكاما، والحال أن صولون (Solon)*، الذي لم يتحزب أبدا، ولكنه سعى وراء هدفه إلى جانب الأحزاب، فوقها أو ضدها، يعتبر، وبشكل متميز، أب تلك القولة البسيطة التي تتأكد فيها صحة أثينا وحيويتها التي لا تنضب :« مازلت أتعلم رغم تقدمي في السن.»

302. ما هو ألماني حسب غوته.

إن أولئك الأشخاص الذين لا يطاقون، والذين لا نريد حتى أن نتقبل منهم ما يفعلونه من خير، هم الذين لهم حرية الرأي، ولكنهم لا يتنبهون إلى أن حرية الذوق والفكر تنقصهم. وهذا هو بالضبط ما يعتبره حكم غوته الرزين ألمانيا. ـ يُفهم من القولة والمثل اللذين يعطيهما أنه على الألماني أن يكون أكثر من مجرد كونه ألمانيا إن هو أراد أن ينفع الأمم الأخرى ويصير مطاقا لديها، كما يريانه الوجهة التي عليه أن يبذل فيها جهدا لكي يتجاوز ذاته ويخرج من حدودها.

303. اللحظة التي ينبغي التوقف فيها.

حين تشرع الجماهير في الهيجان ويتعتم العقل فسيحسن المرء صنعا، إذا لم يكن واثقا من صحة روحه، بأن يأوي إلى رواق ليراقب الوضع.

304. الثوريون والملاك.

الوسيلة الوحيدة التي لايزال في مقدوركم استعمالها ضد الإشتراكية هي عدم إثارتها، أي أن تحيوا أنتم حياة قناعة وتواضع، أن تبذلوا قصارى جهدكم لمنع إظهار الغنى وتساعدوا الدولة حين تفرض الضرائب الثقيلة على كل ما يفيض عن الحاجة وكل ما يشبه الترف. ألا تريدون هذه الوسيلة ؟ إعترفوا إذن أيها الأثرياء البرجوازيون الذين تدعون أنكم « ليبراليون » بأن عقليتكم هي التي تجدونها شنيعة ومهددة لدى الإشتراكيين، ولكنكم تقبلونها فيكم على أنها شيء لا مفر منه، كما لو كانت مخالفة تماما لعقليتهم. ولو لم تكن لديكم، كما أنتم، لا الثروة ولا هم الحفاظ عليها لجعلت منكم هذه العقلية اشتراكيين : وحدها الملكية تميزكم عنهم. إن أردتم هزم أعداء رفاهيتكم فابدأوا أولا بهزم أنفسكم. ـ ولو أن تلك الرفاهية كانت رغد عيش حقيقي! لما كانت ظاهرية للغاية، لما أثارت الحسد، لكانت ميالة إلى المشاركة، إلى الإحسان، إلى التعويضات، وإلى المساعدة. لكن الجانب غير الأصيل والإستعراضي في ملذات وجودكم التي تجدونها في الإحساس بالتضاد (ذلك أن الآخرين محرومون منها ويحسدونكم عليها) أكثر مما تجدونها في الإحساس بالرضى وبتسامي قوتكم ـ منازلكم، ملابسكم، سياراتكم، زينتكم، حاجياتكم الغذائية، وأخيرا نساؤكم اللائي من معدن خسيس، المذهبات بذهب لا رنين له، اللائي اخترتموهن لغرض العرض، واللواتي يعتبرن أنفسهن أشياء معروضة :ـ تلك هي الجراثيم التي تنشر سم ذلك المرض المتفشي وسط الشعب والذي يعدي الجماهير بسرعة متزايدة متخذا شكل جرب اشتراكي يصيب القلب، وتعتبرون أنتم أصله وموطنه. فمن سيوقف الآن زحف هذا الطاعون ؟...

305. خطة الأحزاب.

حين يتنبه حزب ما إلى أن أحد أعضائه القدامى قد تحول من عضو لا شروط له إلى عضو يضع شروطا فإنه يغتم ويسعى، من خلال كل أشكال الإثارة والمضايقات، لجره إلى الإرتداد عن الحزب بعزم، كما يتخذه الحزب عدوا، لأنه يشتبه في أن تكون نية النظر إلى عقيدته على أنها شيء نسبي القيمة، شيء له سلبيات وإيجابيات، شيء قابل للإختبار وللرفض، أن تكون تلك النية أخطر عليه من معارضة صريحة.

306. رص صفوف الأحزاب.

الذي يريد رص صفوف حزب ما من الداخل ما عليه إلا أن يمنحه فرصة تتم فيها معاملته بجور واضح : إنه بذلك سيراكم ثروة من راحة الضمير التي ربما كانت تنقصه حتى ذلك الحين.

307. الإعتناء بالماضي.

بما أن الناس لا يقدرون حقا إلا ماله جذور قديمة، ما قد تكون ببطء، فإنه على الذي يريد أن يستمر ذكره بعد موته أن يعاني ليس فقط من أجل أن تكون له ذرية، بل كذلك من أجل أن يكون له ماض. وهذا هو ما جعل الطغاة من كل صنف (وكذلك الفنانين والسياسيين المستبدين) يؤولون التاريخ تأويلا تعسفيا وهم مسرورون، وذلك حتى يبدو كتمهيد تدريجي لشخصهم.

308. كُتاب الأحزاب.

يكون لقرع الطبل الذي يفرح له الكثير من الكتاب الشباب الذين هم في خدمة حزب ما، في آذان من لا ينتمي لذلك الحزب، وقع صرير القيود، ويثير الشفقة بدل الإعجاب.

309. الوقوف ضد الذات.

لا يغفر لنا مشايعونا أبدا وقوفنا ضد أنفسنا، لأن ذلك يعني، في نظرهم، ليس فقط رفضا لحبهم بل جعل ذكائهم موضع شبهة.

310. خطر الغنى.

وحده النابه من حقه أن يكون له ملك، وإلا فالملكية خطر عام. فالمالك الذي لا يعرف كيف يستغل وقت الفراغ الذي يوفره له ملكه سيستمر في الطمع في التملك :

سيكون ذلك الطمع هو تسليته، هو خطته في محاربة الملل. وبذلك يؤدي التملك المتواضع، الذي قد يكفي حياة العقل، إلى الغنى، وتلك نتيجة خادعة من نتائج التبعية والبؤس الثقافيين. فهذا الغنى يظهر مخالفا تماما لما قد يوحي به أصله البئيس، لأنه يستطيع أن يتخذ الفن والثقافة قناعا، والقناع بالضبط يمكنه شراؤه. ومن ثمة يثير حسد الفقراء، حسد الجاهلين ـ الذين يحسدون الثقافة دائما، في الواقع، ولا يرون في القناع قناعا ـ، ويهيء اضطرابا اجتماعيا بالتدريج، لأن الفظاظة المذهبة والمغالاة المسرحية في « متعة الثقافة » المزعومة يوحيان لهم بأنه « لا شيء يهم سوى المال »، ـ والحال أن ما له أهمية هو قليل من المال وكثير من النباهة.

311. متعة القيادة والإنقياد.

تؤدي القيادة، وكذلك الإنقياد، إلى الإحساس بالمتعة، الأولى قبل أن تصير عادة، والانقياد، عكس ذلك، حين يكون قد صار عادة. لذلك يساعد الخدم القدماء والأسياد الجدد بعضهم بعضا قصد بلوغ تلك المتعة.

312. التوق للمركز المفقود.

التوق للمركز المفقود يحض الحزب على أن يخاطر مخاطرة كبيرة.

313. حيث الحاجة إلى الحمير.

لن تجعل الحشد يصيح مهللا ما لم تدخل المدينة على ظهر حمار.

314. تقاليد الحزب.

يسعى كل حزب لأن يظهر كل ما سما خارج نطاقه هو على أنه شيء تافه، وإذا فشل في ذلك فإنه يهاجمه بضراوة أكبر بحيث يصير أكثر سموا.

315. الإفراغ.

إن ما يتبقى من الذين يفرغون جهدهم كله في الأحداث يكون دائما أقل مما كان قبل. ولهذا السبب قد يصير السياسيون الكبار فارغين تماما، مع أنهم كانوا ذات يوم ممتلئين وأغنياء.

316. أعداء مرغوبون.

التيارات الإشتراكية اليوم مقبولة أكثر مما هي مهابة من طرف الحكومات السلالية (dynastique) لأنها توفر لها الحق والسيف المطلوبين لحالات الاستثناء التي قد تواجه

بها تلك الحكومات أعدائها الألداء، أي الديمقراطيين وأعداء الأمير. لقد صارت هذه الحكومات تميل اليوم إلى كل ما كانت تبغضه جهارا بالأمس، وترغب فيه بشكل خفي : إنها مجبرة على إخفاء روحها.

317. الملكية تملك.

تجعل الملكية الإنسان مستقلا وتمنحه حرية أكبر إلى حد معين فقط، فإن زاد درجة أخرى انقلبت الملكية إلى سيد، والمالك إلى عبد عليه إن يضحي من أجلها بوقته وتفكيره ويشعر منذ تلك اللحظة أنه مجبر على معاشرة أناس معينين، مسمر في مكان واحد، مندمج في الدولة، وربما يتم كل هذا على حساب حاجته الحميمة والأساسية.

318. عن حكومة العلماء.

إنه لمن السهولة بمكان أن نقترح نموذجا لانتخاب هيئة تشريعية. أولا وقبل كل شيء، يجب أن ينفصل أبناء البلد الأكثر جدارة بالثقة نظرا لنزاهتهم، والذين هم أساتذة وخبراء في ميدان من الميادين، عن الجماهير بعد نظر واعتراف متبادلين، وسيكون عليهم أن يعينوا من بينهم، إثر اختيار أكثر محدودية، العلماء المختصين البارزين في كل ميدان على حدة، وذلك أيضا من خلال اعتراف متبادل بالمزايا التي أيدوها. وحين يتم تكوين الهيئة التشريعية من هؤلاء الأشخاص فإن القرار يعود في النهاية، في كل حالة خاصة، لأصوات وآراء الخبراء المؤهلين أكثر، أما نزاهة كل الآخرين، التي هي مسألة لياقة لا غير، فقد صارت كبيرة كفاية لكي تفوض لأولئك المؤهلين وحدهم التصويت حسب ما يقتضيه الحال : بحيث أن القانون سيصدر بكل دقة عن توافق كل البارعين في ميدان القانون. ــ أما الآن فالأحزاب هي التي تصوت، ومن المؤكد أنه بعد كل تصويت تكون هناك مآت من الضمائر الخجلى ــ ضمائر الرديئي التعليم، العاجزين عن إبداءالرأي، ضمائر الببغاوات والمقلدين والقطيعيين. لا شيء يحط من مكانة قانون جديد مثل حمرة الخجل التي يسمه بها عدم النزاهة الذي لا محيد عنه في كل تصويت تقوم به الأحزاب. ولكنه من السهولة بمكان، كما أسلفت، أن نقترح شيئا من قبيل ما يلي : ليست هناك الآن في العالم أية قوة قادرة على استيعاب المنفعة، ــ اللهم إلا إذا انتهى الإيمان بفائدة العلم والعلماء الكبيرة بالظهور جليا حتى لأشد المغلقين دون العلوم فَيُفَضِّلُوه على الإيمان بالعدد السائد اليوم. وليكن أمرنا، قصد بلوغ ذلك المستقبل :« مزيدا من الاحترام للذين يعلمون! ولتسقط كل الأحزاب!»

319. عن « شعب المفكرين» (أو عن الفكر الرديء).

إن سمات الضبابية، الطفو، الاستشعار، البساطة، الحد سية (حتى نختار للأشياء الغامضة مصطلحات غامضة) التي نلصقها بطبع الألماني قد تكون دليلا، إن كانت لاتزال موجودة، على أن حضارته قد ظلت متخلفة بخطوات كثيرة وأسيرة فتنة العصور الوسطى. ـ لا شك أن لمثل ذلك التخلف بعض المزايا الإيجابية، فقد تؤهل تلك السمات الألمان ـ إذا افترضنا مرة ثانية أنهم لايزالون يتوفرون عليها ـ للقيام ببعض الأشياء، وخاصة لفهم بعض الأشياء، التي قد تكون أمم أخرى فقدت كفاءة القيام بها. وما من شك في كون الناس يفقدون الكثير حين يفقدون نقص الإدراك (وهو القاسم المشترك بين هذه السمات) : ولكن الخسارة لا تحدث هنا دون أن يصاحبها تعويض كبير، بحيث أنه لا يكون هناك أدنى دافع للإنتحاب إذا افترضنا أن الناس لا يريدون، مثل الأطفال والأشخاص الشرهين، أن يذوقوا ثمار كل الفصول في وقت واحد.

320. أشياء حسنة تخص أثينا.

تملك حكومات الدول الكبيرة وسيلتين للإبقاء على تبعية الشعب لها بالخوف والخضوع وهما : وسيلة فظة هي الجيش، وأخرى أكثر رقة هي المدرسة. بمساعدة الوسيلة الأولى تضمن إلى جانبها طموح الطبقات الراقية، وقوة الطبقات الدنيا، كما أن هاتين المزيتين خاصتين بالرجال النشيطين والأشداء ذوي المواهب المتوسطة والرديئة. وبمساعدة الوسيلة الأخرى تربح الفقر الموهوب ليدافع عن قضيتها، أعني أنصاف الفقراء الذين يشكلون الطبقات المتوسطة ذات الطموحات الثقافية. إنها تحول كل الأساتذة إلى بلاط من العقول المتجهة اضطرارا إلى « الأعلى » : إنها بمراكمتها العراقيل في سبيل المدرسة الحرة، وخاصة أمام التعليم الفردي الذي تنظر إليه نظرة سيئة للغاية، تضمن كثيرا من المناصب التي توجه إليها باستمرار عددا من الأنظار الجائعة والخاضعة أكبر على الأقل خمس مرات من عدد أولئك الذين قد يحصلون على منصب بالفعل. والحال أن تلك المناصب لا تستطيع أن توفر القوت لصاحبها إلا بتقتير، وهو ما يبقي على طموحه محموما للتقدم ويجعله يعانق آراء الحكومة بشكل حميم. لأن استغلال عدم الرضى المعتدل يكون دائما أفيد من الإرضاء الذي هو أب الشجاعة وجد الاستقلالية ووقاحة الذهن. وبفضل هذه الأستاذية (professorat) التي تمارس عليها وصاية مادية ومعنوية يتم الإرتقاء بشباب البلد كله، ما أمكن ذلك، إلى مستوى معين من الثقافة نافع للدولة وموضوع طبقا لهذا الغرض، بل بفضلها خصوصا يتم، بشكل يكاد يكون خفيا، نقل تلك العقلية التي تريد فقط وظيفة معترف بها ومختومة من

طرف الدولة أن تحمل مباشرة تميزا اجتماعيا، يتم نقل ذلك إلى الطموحين الذين لم يبلغوا سن النضج بعد في كل الطبقات. إن أثر هذا الإعتقاد على الإمتحانات والألقاب الرسمية كبير جدا بحيث أن شوكة عدم الرضى تبقى حتى في صدور الرجال الذين ظلوا مستقلين، والذين ارتقوا بواسطة التجارة أو الصناعة التقليدية، مادام وضعهم الإجتماعي لم تتم ملاحظته والإعتراف به من طرف السلطات العليا من خلال الإنعام عليهم بلقب أو بوسام، ـ حتى « يتمكنوا من إبراز أنفسهم ». أخيرا تربط الدولة تلك الوظائف والحرف بإجبارية متابعة التعليم والحصول على الشواهد من المدارس العمومية لمن كانت له نية ولوج تلك الأبواب يوما ما. الشرف الإجتماعي، الخبز لذاته، إمكانية تكوين أُسرة، تلقي حماية السلطات العليا، الشعور بالتضامن بين الذين حصلوا على نفس التكوين، ـ كل هذا يشكل أحبولة آمال يجري كل شاب ليقع فيها : وأنى له أدنى قدر من الحيطة ؟ وفي النهاية، حين يكون واجب المرء أن يكون جنديا لبضع سنوات قد صار، لدى كل واحد، وفي ظرف أجيال قليلة، عادة آلية، شرطا مسبقا بموجبه يرسم نظام حياته مبكرا، فإن الدولة قد تقدم على إنجاز عمل رائع بإدماج هذا وتلك بسبب بعض المزايا، إدماج الجيش والمدرسة، الطموح والقوة، أي أن تجلب إلى الجيش، بشروط ملائمة، الإنسان المتفوق موهبة وثقافة وتشحنه بالعقلية العسكرية التي هي عقلية الخضوع المرح، بحيث أنه قد يؤدي القسم نهائيا لخدمة الجيش، مكسبا إياه بمواهبه سمعة جديدة وشديدة التألق باستمرار. ـ ولا ينقص آنذاك سوى فرصة الحروب الكبرى، ويتكلف بذلك، بفعل مهنهم، أي بكل براءة، الدبلوماسيون والجرائد والبورصات: لأن « الشعب »، بما هو شعب من الجنود، يكون ضميره دائما مرتاحا إبان الحروب، ولا تكون هناك حاجة لخلق راحة ضمير له.

321. الصحافة.

لو تأملنا كيف تمر الأحداث السياسية الكبيرة، حتى في وقتنا الراهن، على مسرح الأحداث بشكل خفي ومستور، كيف يتم إخفاؤها وراء الوقائع التافهة فتبدو بجانبها دنيئة، كيف لا يظهر عمق آثارها ولا تهز العالم إلا بعد حدوثها بزمن طويل، فأي معنى سيكون للصحافة، مثلما هي الآن، وهي تحث الناس على أن يصرخوا، أن يدوخوا، أن يحرضوا، وأن يخيفوا ؟ ألن تكون سوى ذلك الإنذار الخاطئ الدائم الذي يحول الآذان والحواس إلى الوجهة الخاطئة ؟

322. بعد حدث كبير.

الرجل أو الشعب الذي يولد يوم وقوع حدث كبير عادة ما ينتابه شعور بعد ذلك بضرورة اقتراف عمل صبياني أو فظ، يدفعه إلى ذلك الحياء والرغبة في التذكر.

323. أن تكون ألمانيا صالحا معناه أن تنسلخ من الجرمانية.

حيثما وجدت الإختلافات القومية فإنها لا تكون سوى اختلافات في مستويات الحضارة المتعددة، وليس ما كنا نراه فيها حتى الآن، وحده الجزء التافه منها يظل فيها شيئا لا يتغير (ولكن ليس بالمعنى الدقيق). لذلك فإن كل الحجج المستمدة من الطبع القومي لا تلزم إلا قليلا ذلك الذي يعمل على إحياء القناعات، أي ذلك الذي يعمل عمل الحضارة. فلو تأملنا، على سبيل المثال، كل ما كان ألمانيا من قبل فسنصحح على الفور هذا السؤال : أي شئ هو ألماني؟ بصيغة السؤال التالية: أي شئ هو الآن ألماني؟ ــ وسيجيب كل ألماني صالح على السؤال من خلال سلوكه، متفوقا على مزاياه الألمانية. حين يسير شعب ما قدما ويكبر فإنه يحطم في كل مرة ذلك المشد (corset) الذي كان اعتباره القومي يحبسه فيه، فإذا ما توقف عن الحركة، إذا ساءت أحواله انعقد مشد جديد حول روحه، وتحيط تلك القشرة نفسها بما يشبه سجنا لا تفتأ جدرانه تكبر. فإذا كان شعب ما يتمتع باستقرار كبير فذلك دليل على أنه سوف يتحجر، وأنه ينزع لأن يتحول كله إلى أثر مثلما تحولت الحضارة المصرية إلى أثر بدءاً من تاريخ معين. فليبحث ذلك الذي يريد للألمان خيرا عن وسائل التخلص المستمر مما هو ألماني. وهكذا كانت ميزة النابهين من شعبنا دوما هي اللجوء إلى المزايا غير الألمانية.

324. نظرات أجنبية.

إن مسافرا أجنبيا عبر ألمانيا قد أرضى الناس وأزعجهم ببعض أقواله، وذلك حسب المناطق التي أقام فيها. فكل السواب (Souabes) النابهين متطرفون، مثلما كان يحلو له أن يقول. أما السواب الآخرون فمازالوا يعتقدون أن Uhland كان شاعرا وغوته لا أخلاقيا. وافضل ما في الروايات الألمانية المشهورة الآن هو كوننا لا نحتاج قراءتها : إننا نعرفها. ــ البرليني يبدو طيب القلب أكثر من ألماني الجنوب، لأن له مزاجا ساخرا وبالتالي يفهم الدعابة : وهو ما لا ينطبق على ألماني الجنوب.ــ عقل الألمان قد خنقته جعتهم وجرائدهم : لذا ينصحهم بشرب الشاي وقراءة مقالات النقد، كشكل من الحمية طبعا. ــ فلنلق نظرة إذن، مثلما كان ينصح بذلك، مختلف شعوب أوربا القديمة: لكي نرى كيف يعرف كل شعب منها جيدا أن يجسد بوضوح خاصية من خاصيات الشيخوخة، إمتاعا لأولئك الذين وقفوا أمام هذا المسرح الكبير : ينجح الفرنسيون في تمثيل جانب الشيخوخة المعقول والمحبوب، والأنجليز جانب التجربة والتحفظ، والإيطاليون جانب البراءة والسذاجة. فهل غابت أقنعة الشيخوخة الأخرى ؟ أين الشيخ المتكبر ؟ أين الشيخ المستبد ؟ أين الشيخ الجشع ؟ ــ إن أخطر

مناطق ألمانيا هما ساكس وتورينج : إنهما تفوقان كل المناطق الأخرى من حيث الرشاقة الفكرية ومعرفة الناس، وكذلك من حيث الفكر الإباحي، ويتم إخفاء ذلك باحتشام كبير وراء لغة أولئك السكان الشائنة وحماسهم الخنوع حتى أننا لا نكاد ننتبه إلى أننا في حضرة رقباء ألمانيا الثقافيين وأساتذتها في الخير والشر. ـ تخضع كبرياء ألمان الشمال لوصاية ميلهم للخضوع، وكبرياء ألمان الجنوب لميلهم للرفاهية. ـ يبدو له أن رجال ألمانيا يرون في زوجاتهم عشيقات بيت عديمات المهارة ومغترات بأنفسهن : من فرط مدحهن العنيد لأنفسهن كدن يقنعن الناس، وأزواجهن خاصة، بالخاصيات المنزلية التي تتميز بها المرأة الألمانية. ـ وحين كان الحديث يدور حول سياسة ألمانيا الخارجية أو الداخلية كان يلذ له أن يحكي (وكان يسمي ذلك: فضحا) أن أكبر رجل دولة ألماني لم يكن يثق برجال الدولة الكبار. ـ كان يعتبر مستقبل ألمانيا مهدَّدا ومهدِّدا : لأن الألمان قد نسوا، حسب ما يراه، كيف يستمعون (وهو ما يتقنه الإيطاليون)، لأنهم، في مقابل ذلك، قد تعودوا على الإنفعال بسبب لعبة حظ الحروب وثورات السلالات المالكة، والتي سيعرفون إثرها الفتنة ذات يوم، وهي أقوى انفعال يمكن أن يتعرض له شعب ما. ـ الإشتراكي الألماني هو أخطرهم جميعا لأنه لا تحركه أية ضرورة محددة، بليته أنه لا يعرف ما يريد، حتى وإن حصل على الكثير فإنه سيذوب توقا للمتعة، مثل فاوست تماما، ولكن ربما مثل فاوست رعاعي. « لأن ذلك الشيطان الفاوستي الذي يعذب المثقفين الألمان، قال هذا المسافر في النهاية، قد أخرجه بسمارك من أجسادهم ، لكن الشيطان قد دخل الآن في أجساد الأفظاظ، وهو أسوأ من أي وقت مضى.»

325. آراء.

لايكون للناس أي شأن قبل ارتدائهم القناعات والآراء العامة، تبعا لفلسفة الخياطين التي تقول أن المظهر يدل على المخبر. أما فيما يخص المخالفين لهم فيجب القول: المهارة هي التي تصنع المظهر، لا تعود الآراء عامة هنا، ولا تظل أقنعة وزينة وتنكرا بل تصير شيئا آخر.

326. نوعان من الرصانة.

لكي لا نخلط بين الرصانة الناتجة عن إنهاك العقل وتلك الناتجة عن الاعتدال في الشهوات ينبغي لنا أن نتنبه إلى أن الأولى سيئة المزاج والثانية مرحة.

327. تزييف الفرحة.

الوسيلة الوحيدة للإحتفاظ بأصالة فرحتنا هو أن لا نقول عن الشيء الجميل أنه جميل في اليوم الموالي لشعورنا بجماله، ولا يوما قبل ذلك بالأخص، وإلا فإن فرحتنا يصير لها ذوق التفاهة والعفن وتصبح جزءاً من المواد الغذائية المغشوشة المخصصة لطبقات شعبية بأكملها.

328. كبش التكفير عن الفضيلة.

لو أن شخصا قام بأفضل ما يمكنه القيام به فإن الذين يريدون له الخير، ولكنهم ليسوا في مستوى ما قام به، يسارعون إلى البحث عن كبش يذبحونه متصورين أنه الكبش الذي يمحو الخطيئة ـ ولكنه الكبش الذي يمحو الفضيلة.

329. السيادة.

أن تبجل القبيح نفسه وتعلم الناس كيف يتذوقونه، حتى وإن كنت لا تلتذ به كثيرا، ثم ألا ترتاب إطلاقا في كونك لن تخجل من لذتك، فتلك علامة السيادة، في الأمور الكبيرة كما في الصغيرة.

330. الرجل المتنفذ شبح وليس حقيقة.

شيئا فشيئا يحلم النابغة أن الآخرين يتصورونه شبحا، في حدود تأثيره عليهم، وقد ينتابه قلق أخلاقي كبير بشأن ما إذا كان عليه أن يحتفظ بكونه شبحا ليؤدي خدمة جليلة لأشباهه.

331. الأخذ والعطاء.

حين ننتزع أصغر الأشياء من شخص ما (أو حين ننتزعه منه قبل الأوان) فإنه يعمى عن كوننا قد أعطيناه بذلك شيئا أكبر، بل شيئا هو الأكبر.

332. الأرض الطيبة.

حين نرفض أو نتجنب استعمال الأشياء فإننا نكشف عن نقص في خصوبتنا: فلو كنا قطعة أرضية طيبة لوجب علينا ألا نضيع شيئا دون الانتفاع به، وأن نرى في كل شيء، في كل حدث، وفي كل إنسان، سمادا وغيثا وشعاع شمس نافع.

333. الاستمتاع بعالم الناس.

لو أن شخصا ما عزم على العيش في عزلة، بنية التنسك، فسيكون بإمكانه أن يجعل من معاشرة الناس قطعة حلوى وذلك بتذوقها مرات قليلة.

334. معرفة المعاناة أمام الناس.

يجب أن نظهر ألمنا ونتأوه بصوت مسموع من حين لآخر، أن نبدو قلقين بشكل جلي، لأننا لو أظهرنا للآخرين مدى هدوئنا وسعادتنا في قرارة أنفسنا، رغم الألم ورغم الحرمان، فكم سنجعلهم حسادا وخبيثين! ـ وعلينا ألا نجعل أشباهنا أكثر خبثا، وإنهم، فوق ذلك، سيشركوننا بقوة، في حالة حصول ذلك، في طلب الخدمة، ومعاناتنا أمام الملإ هي أيضا، مهما يكن الأمر، ميزتنا الخاصة.

335. حرارة الأعالي.

تكون حرارة الأعالي، خاصة في فصل الشتاء، أشد من حرارة الوادي، عكس ما يعتقده الناس. فالمفكر يعرف كل ما يعنيه هذا المثل.

336. إرادة الخير استطاعة الجميل.

لا يكفي أن يقوم المرء بأعمال الخير، عليه أن يكون قد أراد ذلك، وأن يترك الألوهية تحل في إرادته مصداقا لقول الشاعر. لكننا لا نستطيع إرادة الجميل،بل يجب أن تكون لنا القدرة على بلوغه، بكل وداعة وعمى، دون أي فضول من النفس. فالذي يوقد مصباحه ليبحث عن الرجال الكاملين عليه أن يتنبه إلى هذه العلامة: إنهم هم الذين يتصرفون دائما حبا في الخير، وبفعلهم ذلك يصلون دائما إلى الجميل دون أن يفكروا في بلوغه. يظل كثير من النبلاء والأفاضل، بسبب العجز وانعدام الوسامة، رغم سلامة إرادتهم ورغم حسناتهم، ذوي منظر منفر ودميم، إنهم كريهون ويسيئون إلى الفضيلة بالثوب البشع الذي يلبسه إياها ذوقهم الرديء.

337. الخطر الذي يترصد الزاهدين.

على المرء أن يحذر من تأسيس حياته على أساس من الشهوات ضيِّق جدا، لأنه إذا أمسك عن الملذات التي نجدها في المراكز، في الأمجاد، في الهيآت التي نؤسسها، في الشهوات الحسية، في الرفاهية، في الفنون، فقد يأتي يوم يتنبه فيه إلى أنه بذلك التخلي قد اتخذ النفور من الحياة عوض الحكمة جارا له.

338. رأي أخير في الآراء.

إما أن تخفي آراءك وإما أن تختبئ وراءها. ومن يسر على غير هذا النهج فهو يجهل كيف يعيش الناس، أو ينتمي لفئة الجسورين المهيبين.

339. فلنفرح في قرارة أنفسنا.

يجب أن تتضمن الفرحة مزايا تكون صحية حتى بالنسبة لطبيعة الإنسان الأخلاقية وتدفعها إلى التقوى، وإلا فأنى لروحنا، بمجرد ما تستريح تحت شمس الفرحة، أن تقسم اضطرارا بأن « تكون طيبة »، بأن « تصير كاملة »، ويغشاها آنذاك شعور مسبق بالكمال مثلما تعتريها قشعريرة الغبطة ؟

340. إلى الممدوح.

ماداموا يمدحونك فاعلم جيدا أنك تتبع طريق غيرك ولما تجد طريقك بعد.

341. حب الأستاذ.

لكل من الرفيق والأستاذ طريقته الخاصة في حب الأستاذ.

342. أشياء جميلة جدا وإنسانية.

« الطبيعة أجمل منك بكثير أيها الإنسان الفاني! » ــ كثيرا ما يشعر المرء بهذا، ولكن قد بدا لي، من خلال رؤية حميمة لكل ما هو إنساني، لكماله، لقوته، لرقته، لتعقده، بدا لي أنه ينبغي أن أقول، وبكل تواضع أن : « الإنسان كذلك جميل للغاية في عين الذي يتأمله ! » ــ وليس الإنسان الأخلاقي فقط، بل كل إنسان.

343. منقولات وأراض في الشمس.

حين تقسو عليك الحياة مرة واحدة وتسلبك كل ما يمكنها سلبه من أمجاد وأفراح ومؤيدين وصحة وكل أنواع الثروة، فإنك قد تكتشف، بعد الرعب الأول، أنك أكثر غنى من ذي قبل. لأنك آنذاك فقط تعرف ما هو ملك خاص لك ولا تستطيع يد أي نهاب أن تمتد إليه، وبذلك قد تتخلص من كثير من البلبلة والإضطراب بلباقة مالك عقارات كبير.

344. مثاليون بالإضطرار.

أشق شعور على النفس بالإطلاق هو اكتشافك أن الناس دائما يحسبونك شخصا آخر أنبل من شخصك، لأنه عليك آنذاك أن تقر لنفسك : لست أدري أي شيء فيك

كاذب وخادع، كلامك، طريقة تعبيرك، عينك، أم تصرفك ــ وهذا الشيء المخادع فيك ضروري تماما مثل صدقك، ولكنه يمحو باستمرار أثر ذلك الصدق وقيمته.

345. المثالي والكذاب.

علينا ألا ندع أجمل كفاءة ــ كفاءة رفع الأشياء إلى مستوى المثال ــ تسيطر علينا، وإلا فارقتنا الحقيقة ذات يوم على هذه الكلمات :« ماذا أصنع بك أيها الكذاب الأشر؟»

346. أن يساء فهمك.

حين يساء فهمك كليا فإنه يستحيل أن تستبعد جذريا سوء تفاهم جزئي. وهذا ما ينبغي إدراكه جيدا حتى لا تنفق طاقة زائدة عن الحاجة في الدفاع عن نفسك.

347. شارب الماء يتحدث.

استمر أنت إذن في شرب خمرك التي أبهجتك طوال حياتك، ــ فماذا يهمك أن أكون شاربا للماء بكثرة ؟ أليس الخمر والماء عنصرين مسالمين ووديين يتعايشان دون لوم؟

348. أخبار بلد آكلي لحم البشر.

في الوحدة يلتهم المتوحد نفسه، وسط الحشد يلتهمه الحشد، فاختر بين الإثنين.

349. عند نقطة تجمد الإرادة.

« أخيرا ستصل الساعة التي ستلفك بتلك الغمامة المذهبة التي يتلاشى فيها الألم، والتي تستمتع فيها الروح بتعبها، وهي سعيدة بلعبها الصبور مع صبرها، أمواج بحيرة تلامس الضفة وتعيد لمستها ذات يوم صيفي هادئ، عاكسة ضياء الغروب المتلألئ، ثم تتوقف كلها - بلا نهاية أو غاية، لا تحتاج ولا تشبع - عند ذلك الهدوء الذي يلذ له التغيير، في ذلك الجزر وذلك المد مندمجة في نبضات الطبيعة.» هذا ما يشعر به كل المرضى ويقولونه، وإذا ما حلت بهم ساعة مثل هذه فإن متعتهم تكون وجيزة ثم يتلوها الملل. والحال أن الملل هو الريح الدافئة التي تذيب الإرادة المتجمدة: تستيقظ ثم تدب فيها الحركة وتشرع من جديد في بعث الرغبة تلو الرغبة. ــ والرغبة علامة برء أو تحسن.

350. المثال المجحود.

يحدث، بصفة استثنائية، ألا يرتقي المرء إلى الأعلى إلا بعد أن يكون قد تنكر لمثله الأعلى، لأن ذلك المثال كان يعطيه اندفاعا قويا جدا بحيث يضيق نفسه كل مرة في منتصف السباق ويرغمه على التوقف.

351. ميل كاشفٌ للسر.

إننا قد نعتبر شعور رجل بانجذابه إلى الفكرة القائلة بأنه ليس هناك، لبلوغ الكمال، سوى باب خلاص واحد هو الحب، علامة على كونه رجلا غيورا.

352. سعادة السُلم.

مثلما هو إدراك بعض الأشخاص لا يجاري الفرصة في مشيتها، بحيث أنها تكون قد جاوزت الباب في الوقت الذي يكون فيه هو لايزال عند السلم، فكذلك هناك لدى أشخاص آخرين نوع من سعادة السلم التي لا تستطيع، بمشيتها الشديدة البطء، أن تجاري الزمن ذا الأرجل السريعة : وأفضل ما يتمكنون من أن ينعموا به من حدث ، من مرحلة كاملة من مراحل حياتهم، يأتيهم بعد مدة طويلة، ويأتي في الغالب شبيها بالعطر الضعيف الرائحة الذي يوقظ الحنين والقلق، ـ كما لو كان بلوغ المرامي، في لحظة ما، ممكنا بذلك العنصر. أما الآن فقد فات الأوان.

353. أبيات شعر.

القول بأن عقلا ما قد نظم أبياتا شعرية لا يعتبر حجة ضد نضجه.

354. هيأة المنتصر.

إتقان البقاء على صهوة الفرس يفتن شجاعة الخصم وقلب المتفرج، ـ فما الجدوى من الهجوم ؟ اجعل هيأتك هيأة المنتصر.

355. خطر الإعجاب.

إننا بإعجابنا المفرط بفضائل الغير قد نفقد الشعور بفضائلنا، وقد نفقدها هي نفسها في نهاية الأمر، إن لم نستمر في ممارستها، دون أن نحصل على الأخرى كتعويض لها.

356. فائدة الصحة العليلة.

الذي يكون مريضا أغلب الأحيان يجد في الصحة الجيدة ليس فقط متعة كبيرة، بسبب شفائه المتكرر، بل يكتسب شعورا مرهفا جدا بما هو سليم ومرضي في الأعمال

والأفعال التي يقوم بها هو أو غيره، إلى درجة أننا عادة ما نجد في مؤلفات الكتاب المعتلين ـ وكل الكتاب الكبار تقريبا معتلون، مع الأسف ـ لهجة صحة واثقة من نفسها ومتوازنة، وذلك لأنهم ماهرون، أفضل من الرجال الأشداء بدنيا، في فلسفة الصحة والشفاء الأخلاقيين، وكذلك في أربابها : الصبيحة، الشمس، الغابة والمنابع.

357. الخيانة شرط التمكن.

ليس لكل استاذ إلا مريد واحد، وإنه لن يظل وفيا له، ـ لأنه مرصود لأن يصير أستاذا هو بدوره.

358. لا يكون أبدا دون جدوى.

إنك لا تتسلق جبال الحقيقة أبدا دون جدوى : فإما أن ترتقي إلى أعلى هذا اليوم، وإما يكون ذلك تمرينا لقواك لتستطيع الإرتقاء غدا.

359. أمام زجاج رمادي.

أيكون ما تراه من هذه النافذة على قدر كبير من الجمال يجعلك ترفض رفضا باتا أن تنظر من أية نافذة أخرى ؟ ـ يجعلك تحاول منع الآخرين من فعل ذلك ؟

360. دليل تغيرات كبيرة.

حلمنا بأشخاص نسيناهم منذ أمد طويل أو أموات دليل على أن ذواتنا قد عرفت تغيرات كبيرة وأن الأرض التي عشنا عليها قد تغيرت كلية، لذلك يُبعث الموتى ويعود ماضينا البعيد حاضرا جديدا.

361. طب الروح.

البقاء ممددا في هدوء والتفكير القليل هو أنجع دواء يلائم كل أمراض الروح، ويصير استعماله من حين لآخر، مع شيء من الإرادة الحسنة، مستحبا أكثر.

362. عن تراتبية العقول.

إنك تضع نفسك دونه بمجرد ما تسعى لإثبات الاستثناء ويسعى هو لإثبات القاعدة.

363. القدري.

عليك أن تؤمن بالقدر، ـ قد يرغمك العلم على ذلك. وما قد ينتج عن ذلك الإيمان عندك من حب أو خضوع أو شهامة أو إقدام يدل على الأرض التي ألقيتْ فيها تلك البذرة وليس على البذرة ذاتها التي قد تعطي أية ثمرة.

364. سبب المزاج العكر.

الذي يفضل الجميل على النافع، في الحياة، سيفضي به الأمر ولاشك، مثل الطفل الذي يفضل الحلويات على الخبز، إلى إفساد معدته والتبرم من العالم.

365. الإفراط كعلاج.

يمكننا أن نعود إلى حب مواهبنا من خلال الإفراط في تبجيل المواهب المضادة والتلذذ بها مدة طويلة. لأن العلاج بالإفراط طريقة دقيقة من طرق فن الحياة.

366. « ابحث لك عن أنا »

النشيطون الناجحون لا يتصرفون حسب المبدأ القائل اعرف نفسك بنفسك، بل كما لو كانوا ينفذون هذا الأمر الخيالي : ابحث لك عن أنا وستصير شخصا مهما. يبدو أن القدر قد ترك لهم الإختيار، بينما الخاملون ومحبو التأمل يتأملون شخصهم الذي صنعوه مرة واحدة فقط، عندما ولجوا الحياة.

367. أن تحيا ما أمكنك بلا أتباع.

إنك لا تفهم الشيء القليل الذي يعنيه أتباعك إلا حين لا تعود تابعا لهم.

368. الإحتجاب.

لا بد لنا من معرفة كيف نحتجب حتى نتخلص من سحابات الذباب تلك، أعني المعجبين المزعجين.

369.الملل.

هناك ملل يصيب العقول الدقيقة والمثقفة التي تنتهي بأن تجد أفضل ما تقدمه الأرض عديم الطعم : وبما أنها قد اعتادت أن تتناول طعاما يكون دائما مختارا، وأن تشمئز من الأطعمة غير الشهية، فإن خطر الموت جوعا يتهددها هنا، ـ لأن أفضل أنواع الطعام قليلة جدا، بل إنها تكون أحيانا منيعة وصلبة إلى حد أن أقوى الأسنان لا تستطيع أكلها.

370. خطر الإعجاب.

قد يكون الإعجاب بمزية أو بفن ما قويا للغاية بحيث يمنعنا من بذل قصارى جهدنا للحصول عليهما.

371. ما نتطلبه من الفن.

هذا يريد بواسطة الفن أن يستمتع بكينونته، وذاك يريد بفضله أن يخرج من حدودها مؤقتا، أن يبتعد عنها، ويوجد هناك، مرتبطا بهاتين الحاجتين، صنفان من الفن والفنانين.

372. الجحود.

الذي يجحدنا قد لا نكون نحن هم من يهينهم، بل مشايعونا بكل تأكيد.

373. بعد الموت.

عادة ما لا نشعر بكون غياب شخص ما أمراً لا يتصور إلا بعد وفاة ذلك الشخص بزمن طويل. وغالبالا نشعر به تجاه العظماء إلا بعد عقود من الزمن. والصادق غالبا ما يظن، إثر وفاة شخص ما، بأن ذلك ليس خسارة كبيرة بالفعل، وبأن الذي يلقي خطبة التأبين منافق. الضرورة وحدها تعلمنا ضرورة فرد ما، أما شاهدة قبره الحقيقية فإنهاتنهدة متأخرة.

374. دعها في الحادس Hadès.

علينا أن نترك الكثير من الأشياء في حادس (Hadès) الأحاسيس النصف شعورية ولا نحاول تخليصها من وجودها في شكل ظلال، وإلا صارت، إن صيرناها فكرا وكلاما، أسيادنا الشيطانيين الشديدي الشراهة إلى دمنا.

375. التسول القريب.

يحدث كذلك للعقل الوافر الثروة الفكرية أن يفقد مفتاح غرفة كنوزه، فيجد نفسه، مثله مثل أفقر العقول، مرغما على التسول من أجل البقاء.

376. المفكر على طريقة السلسلة.

الذي مارس التفكير كثيرا سرعان ما تبدو له كل فكرة جديدة يسمعها أو يقرأها متخذة شكل سلسلة.

377. الشفقة.

أحيانا يكون خنجر الغيرة مترصدا في غمد الشفقة الذهبي.

378. ما العبقرية.

غاية سامية وإرادة امتلاك الوسائل لبلوغها.

379. غرور المقاتلين.

الذي لا أمل له في الانتصار في المعركة، أو يرى أنه سينهزم فيها، يريد شيئا أكثر من إعجاب الناس بطريقته في القتال.

380. سوء تفاهم بشأن الحياة الفلسفية.

في اللحظة التي يشرع فيها شخص ما في أخذ الفلسفة مأخذ الجد يعتقد كل الناس العكس.

381. تقليد.

بالتقليد يكتسب الرديء شهرة ويفقدها الجيد، ــ خاصة في ميدان الفن.

382. درس التاريخ الأخير.

« آه، ليتني لم أعش ذلك العصر!» ــ هكذا يقول الحمقى والمهرجون. ولكننا نصيح في نهاية المطاف، بشأن كل لحظة من التاريخ نتأملها بجدية، حتى وإن كانت هي محط الأمل بامتياز في ذلك الماضي :« حسبنا ألا نعود إليها! إن روح ذلك العصر سيسحقك تحت ثقل الجويات*، لن تستطيع الإستمتاع بما فيه من طيب وجميل، ولن تستطيع هضم جوانبه السيئة.» ويمكن أن نطمئن إلى كون الأجيال اللاحقة ستحكم على عصرنا بما يلي : لقد كانت الحياة في ذلك العصر لا تطاق وغير قابلة لأن تعاش. ــ ومع ذلك يثبت كل واحد في عصره ؟ أجل، وذلك لأن روح عصره لا يثقل عليه فقط، بل يؤثر فيه كذلك. يقاوم روح العصر ذاته، كما يوجه نفسه بنفسه.

383. النبل كقناع.

بنبالة السلوك يملأ المرء أعداءه حقدا، وبالغيرة التي يبديها بصالحهم أو يكاد، لأن الغيرة تقارن وتساوي بينهم، إنها نوع من التواضع غير المقصود. ألن تكون الغيرة، بسبب الميزة المذكورة آنفا، قد استعملت أحيانا كقناع من طرف أناس لم يكونوا غيورين ؟ قد يكون، ولكن الشيء الأكيد هو أن نبل السلوك غالبا ما يستخدم لإخفاء الغيرة من طرف أناس طموحين يفضلون أن يصيبهم الأذى ويغيظوا أعداءهم على الظهور متساوين معهم داخليا.

384. لا يغتفر.

لقد منحته فرصة ليظهر سمو طبعه، ولكنه لم يستغلها. إنه لن يغفر لك ذلك أبدا.

385. نقائض.

نجد أكثر الأفكار شيخوخة بشأن الإنسان في هذه الأطروحة الشهيرة: «الآنا دائما بغيضة»، ونجد أكثرها صبيانية بشأنه في هذه الأطروحة الأكثر شهرة من سابقتها: «أحب قريبك كما تحب نفسك.» ـ ففي إحداهما نجد أن معرفة الناس قد توقفت، وفي الأخرى نجد أنها لم تبدأ بعد.

386. عدم السماع.

«نكون من الرعاع مادمنا نعزو أخطاءنا إلى الغير، ونكون على سبيل الحكمة حين نتحمل مسؤوليتها نحن وحدنا، أما الحكيم فلا يرى أحدا على خطأ، لا هو ولا الغير.» ـ من قائل هذا؟ ـ إبكتيت، منذ ثمانمائة وألف سنة. لقد سمعناه، لكننا نسيناه. ـ لا، إننا لم نسمعه ولم ننسه: إنه من الأشياء التي لا تنسى. ولكنه لم تكن لنا الأذن المناسبة، أذن إبكتيت. ـ وهكذا يكون قد همس بذلك في أذنه هو؟ ـ وقال: الحكمة هي ما يهمس به المتوحد لنفسه في الساحة العمومية.

387. العيب في وجهة النظر لا في النظر.

نكون دائما قريبين من أنفسنا ببضع خطوات، ونكون بعيدين عن جارنا ببضع خطوات. وبهذا يحدث أن نبدي فيه رأينا دون تمييز، وكذلك في أنفسنا حسب بعض السمات والوقائع المعزولة، العرضية والتافهة.

388. جهل الأسلحة.

مثلما لا نكترث نحن بكون شخص آخر يعرف موضوعا ما أو يجهله تماما ـ والحال أن مجرد تفكيره في كوننا نعده جاهلا بذلك يرهقه، فإن هناك مهرجين رائعين يتبخترون دائما حاملين كنانة مليئة باللعنات والأحكام غير القابلة للإستئناف، مستعدين لقتل كل من يظهر أن هناك أمورا لا يؤخذ فيها رأيهم بعين الإعتبار.

389. في مشرب التجربة.

الذين يتركون كؤوسهم نصف ممتلئة، بدافع اعتدال فطري، لا يريدون الإقرار بأن لكل شيء نهاية وثمالة.

390. طيور مغردة.

من عادة مشايعي الرجل العظيم أن يتعاموا لكي يتقنوا إنشاد مدائحهم له.

391. دون المستوى.

نكره الشيء الجيد حين لا نكون في مستواه.

392. القاعدة، أم أم إبنة.

الوضع الذي تنتج عنه القاعدة غير الوضع الذي ينتج عن القاعدة.

393. تمثيل هزلي.

أحيانا نجني الحب والسعادة من أفعال وأعمال انسلخنا منها منذ أمد طويل كما ننسلخ من جلد، وحينها نقبل بسهولة على تمثيل ماضينا تمثيلا هزليا ونلقي جلدنا الذي انسلخنا منه على اكتافنا من جديد ــ ليس فقط بدافع الغرور، بل كذلك بدافع الرفق بمشاهدينا.

394. خطأ كُتاب السير.

لا ينبغي الخلط بين القوة اللازمة لإدخال زورق في النهر وبين قوة النهر الذي سيحمل ذلك الزورق : ومع ذلك فإن هذا ما يحدث في كل السير تقريبا.

395.لا تشتري بثمن باهظ.

عادة ما نسيء استعمال ما نقتنيه بثمن باهظ، وذلك لأننا لم نشتره بدافع الحب، وذكراه تضنينا، ــ بحيث أنه تصير له سلبيتان.

396. الفلسفة التي يحتاجها المجتمع.

الأساس الذي يرتكز عليه النظام الاجتماعي هو كون كل فرد ينظر بهدوء إلى كينونته، إلى ما يفعله وما يطمح إليه، إلى صحته ومرضه، إلى غناه وفقره، إلى مجده وتفاهته، وهو يقول لنفسه :« لن أتغير مع أي كان ». والذي يريد دعم نظام المجتمع فلن يكون عليه إلا أن يرسخ في القلوب فلسفة الترفع والرفض الهادئ للتغير هذه.

397. علامات الروح المتميزة.

الروح المتميزة أبعد من أن تكون تلك الروح القادرة على التحليق العالي، إنما هي تلك التي ترتفع قليلا ثم تقع قليلا، ولكنها تبقى دائما على علو يكون فيه الهواء طلقا ومضيئا.

398. العظمة وتأملها.

أفضل آثار العظمة هي منحها لمن يتأملها عينا يرى بها كل الأشياء أكبر وأكثر انسجاما.

399. الاكتفاء.

يتجلى نضج العقل، حين نبلغه، في كوننا لا نعود نزور الأماكن التي توجد فيها أزهار نادرة مختبئة بين أشواك وأدغال المعرفة، ونكتفي بالحديقة، بالغابة، بالمرج وبالحقل، ناظرين مليا إلى كم هي الحياة وجيزة فيما يخص النادر والمخالف للمألوف.

400. ميزة الحرمان.

الذي يحيا باستمرار وسط حرارة القلب وغناه وفي ما يشبه جو صيف الروح لا يستطيع أن يتخيل تلك القشعريرة، تلك النشوة التي تجتاح الطباع الشتوية حين تلامسها، استثناء، أشعة الحب والريح الدافئة التي تهب ذات نهار مشمس من أيام فبراير.

401. وصفة للمتألم.

هل تجد عبء الحياة ثقيلا جدا ؟ عليك إذن أن تضخم عبء حياتك. حين ينتهي الأمر بالمتألم إلى البحث عن نهر ليثي* الذي هو ظامئ إلى مياهه، يكون عليه أن يصير بطلا ليعثر عليه بكل تأكيد.

402. القاضي.

الذي ينفذ إلى المثل الأعلى لشخص آخر يصير قاضيه الذي لا يرحم، يكاد يصيرإحساسه بالخطأ.

403. فائدة التخلي الكبير.

إن أنفع ما في التخلي الكبير هو كونه يمنحنا كبرياء الفضيلة الذي بفضله نحصل، من أنفسنا، على كثير من التخليات الصغيرة.

404. كيف نضفي على الواجب بريقا.

إليك وسيلة تحويل واجبك البرونزي إلى واجب ذهبي في أعين الناس : اجعل ما تفي به دائما أكثر قليلا مما تعد به.

405. رجاء من الإنسان.

« اغفر لنا فضائلنا »ـ هذا ما ينبغي أن نطلبه من الناس.

406. المبدعون والمستهلكون.

يتصور كل مستهلك أن هم الشجرة كله كان هو الثمرة، ولكن الشجرة لم تكن تفكر إلا في البذرة. ـ ثمة يكمن الفرق بين كل المبدعين وكل المستهلكين.

407. مجد كل العظماء.

ما جدوى العبقري إن لم ينقل إلى كل من يتأمله ويبجله حرية وسموا في الإحساس يجعلانه يستغني عن العبقري ! يكمن مجد العظماء في جعل أنفسهم غير ضروريين.

408. الهبوط إلى الحادس Hadès.

أنا أيضا قد نزلت إلى مثوى الأموات، مثل عوليس، وسأعود لزيارته مرات ومرات، وإني لم أقدم بعض الأكباش فقط، بل قدمت دمي قربانا كذلك، لكي أتمكن من محادثة بعض الأموات، وقد استجاب لي أربعة أزواج : أبيقور ومونطيني، غوته وسبينوزا، أفلاطون وروسو، باسكال وشوبنهاور. هؤلاء هم من يجب أن أقدم لهم تبريرا لما أفعله حين أتمشى لوحدي مدة طويلة، هم من أنوي أن يحكموا لي بأني على صواب أو على خطأ، هم من أريد أن أسمعهم حين يقولون لبعضهم أنت على صواب أو أنت على خطأ. مهما يكن ما أقوله، ما أجد له حلا، ما أتخيله بشأني وبشأن الآخرين، فإني أوجه أنظاري إلى هؤلاء وأرى أنظارهم موجهة إلي. ــ وليغفر لي الأحياء إن كانوا أحيانا يبدون لي وكأنهم ظلال ممتقعة اللون وهائجة، ويا للأسف ! شديدة الطمع في الحياة، بينما يبدو لي أولئك مفعمين بالحياة وكأنهم لن يتعبوا الآن، بعد أن ماتوا، من الحياة أبدا. إن ما يهم، والحالة هذه، هو الخلود المعمر : فما جدوى «الحياة الأبدية » وما جدوى الحياة إجمالا !

الكتاب الثاني
المسافر وظله

الظل : بما أني لم أسمع صوتك منذ أمد طويل فإني أود أن أمنحك فرصة للكلام.

المسافر : إني أسمع كلاما... لكن أين ؟ ومن المتكلم ؟ أكاد أخالني أنا المتكلم، لكن بصوت أضعف من صوتي.

الظل (بعد برهة) : ألا يسرك أن تتاح لك فرصة للكلام ؟

المسافر : عجبا، إن ظلي يتكلم. إني أسمعه ولا أستطيع تصديق ذلك.

الظل : فلنسلم بذلك. وفي غضون ساعة يكون كل شيء قد انتهى.

المسافر : هذا ما قلته في نفسي، في غابة قرب Pise، يوم أبصرت جملين في بداية الأمر ثم خمسة جمال بعد ذلك.

الظل : من الأحسن أن نكون متسامحين مع بعضنا البعض لو حدث وخاننا صوابنا : وبذلك لن نغضب من بعضنا ونحن نتمازح، ولن يضغط احدنا على إبهام الآخر لو حدث وكان كلامه غير مفهوم له. حين لا نستطيع تقديم الجواب المناسب فسيكفينا أن نقول : تعتبر محادثتي لشخص ما شرطا عادلا، ولو طال الحوار قليلا فسيظهر خلاله أشد الناس حكمة بمظهر المعتوه مرة وبمظهر الأبله ثلاث مرات .

المسافر : إن تواضعك لا يجامل الذي تصرح له به.

الظل : هل علي أن أكون مجاملا إذن ؟

المسافر: كنت أتصور أن ظل الإنسان هو غروره، ولكن غروره لن يسأل :« هل علي أن أكون مجاملا إذن ؟»

الظل : غرور الإنسان لا يسأل، حسب علمي، كما فعلت أنا مرتين، عما إذا كان يمكنه التكلم: إنه يتكلم دائما.

المسافر : الآن تنبهت إلى قلة لطفي معك ياظلي العزيز : ولم أجد بعد ولو كلمة واحدة أعبر بها عن مدى سعادتي بسماعك عوض مجرد رؤيتك. لا شك أنك تعلم أني أحب الظل حبي للنور. فالظل ضروري مثل النور لجمال الوجه، لوضوح الخطاب، لطيبة الطبع وقوته. إنهما ليسا خصمين : بل يمسكان بيد بعضهما بمودة، وحين يختفي النور يقتفي أثره الظلام.

الظل : وأكره هذا الذي تكرهه أنت، أعني الليل. أحب الناس لأنهم مريدو النور، وأستمتع بالبريق الذي يشع في عيونهم حين يعرفون ويكتشفون، دون أن يكلوا من المعرفة والإكتشاف. كما أنني أنا ذلك الظل الذي يكون للأشياء حين يسطع عليها شعاع شمس المعرفة.

المسافر : أعتقد أنني فهمتك، وإن كنت قد عتمت شيئا ما ما قد قلته. إنك على حق : الأصدقاء الجيدون يتبادلون من حين لآخر، باعتبار ذلك دليل ذكاء، كلاما غامضا يكون لغزا بالنسبة للآخرين. نحن صديقان جيدان، لذلك كفانا مقدمات ! إن بضع مآت من المسائل تراودني، وربما تكون إجابتك عنها قصيرة جدا. فلننظر ما سنتباحث بشأنه في عجلة وهدوء.

الظل : الظلال أشد خجلا من الناس، فلا تطلعن أحدا على محاورتنا.

المسافر : على محاورتنا ؟ لتحفظني السماء من محاورات تنشر كما هي على الورق ! لو أن أفلاطون وجد متعة أقل في نشر محاوراته لاستمتع بها القراء أكثر. الحديث الذي نلتذ به في الواقع يصير، بمجرد ما نكتبه ويقرأ، لوحة تملأها منظورات خاطئة : كل شيء فيها إما طويل جدا أو قصير جدا. ـ ولكن ربما تسمح لي بالتحدث عن الأشياء التي وصلنا بشأنها إلى اتفاق ؟

الظل : هذا يناسبني، لأن الناس سيرون فيها أفكارك أنت فقط : أما الظل، فلن يخطر على بالهم.

المسافر : قد تكون مخطئا أيها الصديق ! فقد رأى الناس في أفكاري، حتى الآن، الظل أكثر مما رأوني أنا.

الظل : رأوا الظل أكثر مما رأوا النور؟و هل هذا ممكن؟

المسافر : كن جديا يا عزيزي المزاح ! فمسألتي الأولى تتطلب الجدية.

1. عن شجرة المعرفة.

هناك تشابه وليس هناك حقيقة، هناك شبيه الحرية وليست هناك حرية، هاتان الثمرتان هما ما يحول دون الخلط بين شجرة المعرفة وشجرة الحياة.

2. عقل العالم.

يمكننا البرهنة نهائيا على أن العالم ليس جوهر عقلية أزلية (rationalité éter-nelle) بكون هذا الجزء من العالم الذي نعرفه ـ أعني عقلنا البشري ـ ليس عاقلا جدا. وإذا لم يكن حكيما ومنطقيا باستمرار وبشكل تام فإن باقي العالم لن يكون كذلك أيضا : البرهنة على الأكبر إنطلاقا من الأصغر، وعلى الكل انطلاقا من الجزء صحيحة هنا، وقوة صحتها مقنعة جدا.

3. « في البدء كان.»

تمجيد الخلق (Genèse) هو البرعم الميتافزيقي الذي يعاود الظهور حين نتأمل التاريخ ويحملنا على الإعتقاد فعلا أن في بدء كل شيء نجد أنفس الأشياء وأكثرها جوهرية.

4. قياس قيمة الحقيقة.

العناء الذي نلقاه عند تسلق الجبال لا يمكن أن يصلح قياسا لعلو تلك الجبال. لكن الأمر بخلاف ذلك في العلم! ـ يقول بعض من يعتبرون أنفسهم خبراء ـ، فالعناء الذي نتجشمه من أجل الحقيقة سيقرر بالضبط قيمة الحقيقة! مصدر هذه الأخلاقية المعتوهة هي فكرة كون « الحقائق » مجرد أجهزة رياضية علينا أن نتمرن عليها ببطولة حتى ينال منا التعب، ـ إنها أخلاقية تخص الرياضيين وأبطال العقل.

5. استعمال اللغة والواقع.

هناك ازدراء مصطنع لكل الأشياء التي ينظر إليها الناس بأشد ما يمكن من الجدية، ازدراء لكل الأشياء اللصيقة بالحياة. يقولون مثلا :« نأكل لنعيش» ـ إنها كذبة لعينة، مثل ذلك الذي يتحدث عن الإنجاب كما لو كان هو الهدف الحقيقي من وراء كل شهوة حسية. وعلى عكس ذلك يكاد التقدير الكبير لـ« الأشياء المهمة » لا يكون صادقا أبدا : لا شك أن القساوسة والميتافزيقيين قد عودونا في هذه الميادين على استعمال للغة يتسم بغلو فيه نفاق، إلا أنهم لم يقلبوا رأسا على عقب ذلك الإحساس الذي ينظر إلى هذه الأشياء المهمة بجدية أقل من التي ينظر بها إلى الأشياء اللصيقة بالحياة المزدراة.من العواقب المحزنة لهذا النفاق المزدوج تجنب الناس اتخاذ هذه الأشياء اللصيقة بالحياة، مثل الغذاء، السكن، الملبس، والعلاقات الاجتماعية، موضوعا لتأمل وإصلاح دائمين، غير متحيزين وشاملين، بل على العكس، وبما أن ذلك يعتبر مهينا،فهم يصرفون عنها اهتمامهم الفكري والفني، بحيث أن العادة والطيش يحققان نصرا سهلا على الطائشين ، خاصة على الشباب عديمي التجربة، في الوقت الذي تجعلنا فيه خروقاتنا المستمرة لأبسط قوانين الجسد والعقل، كلنا، شيبا وشبابا، في تبعية وعبودية مخزية ـ أعني تبعيتنا غير المجدية للأطباء والأساتذة ومديري الوعي الذين مايزالون يمارسون ضغطهم على المجتمع كله.

6. علة العجز الأرضي الكبرى.

إننا نجد دائما ، حين ننظر حولنا، أناسا قد تناولوا البيض طيلة حياتهم دون أن يتنبهوا إلى أن البيض الطويل الشكل هو الألذ، ولا يعرفون أنه يكون للعاصفة أثر جيد على الأمعاء، أن رائحة العطر تكون أقوى في الجو البارد والصحو، أن حاسة الذوق تختلف داخل فمنا من نقطة لأخرى، أن كل وجبة تحدثنا خلال تناولها كثيرا أو استمعنا كثيرا تضر بالمعدة. قد لا تشفي غليلكم هذه الأمثلة عن ضعف حس الملاحظة، ولكنكم قد تقبلون اعتبار أغلب الناس لا يرون جيدا الأشياء التي تعنيهم ونادرا ما يلاحظونها. وهل هذا شيء غير مهم ؟ هذا العيب هو الذي تترتب عنه تقريبا كل العاهات الجسدية والمعنوية لدى الناس وهي: عدم معرفتهم لما ينفعهم أو يضرهم في تنظيم حياتهم، في تقسيم الأيام، في معاشرتهم للناس وفي اختيار من يعاشرون، في العمل و وقت الفراغ، في الأمر و الطاعة، في الإحساس الذي تثيره الطبيعة والأحاسيس التي يثيرها الفن، في الغذاء والنوم، و التفكير. الجهل بالأمور اليومية التافهة وعدم امتلاك عينين تبصران جيدا هو ما يجعل من الأرض، بالنسبة لكثير من الناس، « حقلا من التعاسة ». لا نقولن أن

المذنب هنا، كما في كل شيء، هي اللامعقولية الإنسانية : على العكس من ذلك هناك ما يفوق الكفاية من العقل، ولكننا نوجهه وجهة خاطئة، نتكلف تحويلة عن هذه الأشياء التافهة الحميمة للغاية. فالقساوسة والأساتذه واستبداد المثاليين الرائع، بما فيهم الأفظاظ والرقيقون، يقنعون الطفل بأن المهم شيء أخر : هو خلاص الروح، خدمة الدولة و تقدم العلم أو الإعتبار والثروة، وهي وسائل لخدمة الإنسانية بأسرها، أما حاجات الفرد وهمومه طيلة اليوم وطلية الأربع وعشرين ساعة فهي محتقرة وغير مهمة. ـ لقد كان سقراط يقاوم بكل قواه هذا الإهمال المتعجرف للأمور الإنسانية لفائدة الإنسان، وكان يحب، مستشهدا بهوميروس، أن يذكر بالمدى الحقيقي وبجوهر كل الهموم والأفكار : هذا، كان يقول، « هو ما يحدث لي في بيتي من خير وشر ».

7. عــزاءان.

كان أبيقور، الذي منح طمأنينة النفس للقدم الآيل للنهاية، يملك تلك المعرفة الرائعة، النادرة الوجود في وقتنا الحاضر، بأن حل المشاكل العويصة والنظرية ليس ضروريا لطمأنينة القلب. وهكذا كان يكفيه أن يقول للذين يعذبهم « الخوف من الآلهة » : « إن كانت هناك آلهة فهي لا تهتم بنا »، عوض أن يدخل معهم في جدال عقيم حول معرفة ما إن كانت هناك آلهة أم لا. هذا الوضع إيجابي وقوي: ندع الآخر يسبقنا بضع خطوات لنجعله بذلك مهيأ أكثر للإستماع والموافقة. وإن استعد للبرهنة على العكس : على أن الآلهة تهتم بنا، فإن المسكين سيوقع نفسه حتما في متاهة وأدغال شائكة، دون أن يكيد له محدثه الذي عليه فقط أن يبدو إنسانيا ولبقا بما يكفي لإخفاء شفقته أمام هذا المشهد. وفي نهاية المطاف يصل هذا الآخر إلى الإشمئزاز، الذي هو الحجة الأقوى ضد كل أطروحة، من إقراره، ثم يتابع وقد فتر حماسه، مثل الملحد الخالص :« ما جدوى الآلهة، فعلا! فلتذهب إلى الجحيم! » ـ في حالات أخرى، وخاصة حين تُظلم الروح بسبب فرضية تجمع بين المادية والأخلاقية، فإنه لم يكن يدحض تلك الفرضية بل يسلم بأن الأمر قد يكون كذلك، ثم يضيف بأن هناك فرضية ثانية لتفسير نفس الظاهرة، وهي أن الأمور قد تجري بخلاف ذلك أيضا. مايزال تعدد الفرضيات، بخصوص أصل تبكيت الضمير مثلا، صالحا حتى في وقتنا الحاضر لتخليص الروح من ذلك الظل الذي ينشأ من اجترار فرضية واحدة مفهومة هي فقط ومبالغ في تقدير قيمتها أضعافا مضاعفة. فليتذكر من يرغب في مواساة التعساء، الأشرار، المرضى بالوهم، والمحتضرين، صيغتي أبيقور التي تنطبق على كثير من القضايا. وأبسط صياغة لها قد تكون : أولا، إن افترضنا أن الأمر هكذا فإنه لا يعنينا في شيء، ثم، قد يكون الأمر هكذا، ولكن قد يكون بخلاف هذا أيضا.

8. أثناء الليل.

بمجرد ما يرخي الليل سدوله على الكون يتغير إحساسنا بالأشياء التي حولنا. فها هي الريح تدور، كما في مسارب خفية، وكأنها تبحث عن شيء ما، غاضبة من عدم العثور عليه. وها هو ضوء المصباح ببريقه المضطرب،بنظرته المنهكة، يقاوم الليل على مضض، هذا الليل المتلهف إلى ساهره تلهف العبد إلى سيده. ها هو تنفس النائم وإيقاعه المرعب الذي يبدو أن الإيقاع ُيعزف عليه هماً يعود باستمرار، ــ إننا لا نسمعه، ولكن حين يرتفع صدر النائم نشعر بانقباض في قلبنا، وحين يخفت نفسه ويكاد يختفي في صمت الموت نقول لأنفسنا :« استريحي قليلا، أيتها الروح المعذبة !» ــ نتمنى الراحة الأبدية لكل الناس ماداموا يعانون من هذا الإرهاق، فالليل يوحي بالموت. ــ أية فلسفة كانت ستشمل الناس بخمارها لو كان عليهم أن يحرموا من الشمس ويقاوموا الليل فقط بضوء القمر وبالقناديل ! فسنرى جيدا إذا تأملنا طبيعة الإنسان الفكرية والنفسية إلى أي حد قد عتمها كلية نصف الظلام والحرمان من الشمس الذي تتلفع به الحياة.

9. من ابتكر عقيدة حرية الإختيار.

يسيطر اللزوم على الواحد متخذا شكل أهوائه، ويخضع الثاني من خلال عادة السمع والطاعة، وبالنسبة للثالث يكون هو وعيه المنطقي، أما الرابع فيتخذ صورة نزوته، صورة رغبته النزقة في كل الإنحرافات. والحالة هذه فإن كل واحد من هذه النماذج الأربعة يبحث بالضبط عن حرية إرادته هناك حيث هو مقيد بقيود متينة : إنه كما لو كانت دودة القز تسعى لنيل حريتها من خلال نسج شرنقتها. فما سبب هذا ؟ من الواضح أن سببه هو كون كل واحد منهم يعتقد نفسه أكثر حرية حين يكون إحساسه بالحياة قويا جدا، أي، كما رأينا، تارة في الهوى و تارة في الواجب و في المعرفة وتارة أخيرة في النزوة. يظن الفرد تلقائيا أن ما يقويه ويجعله يشعر بأنه ممتلئ حيوية يكون بالضرورة عنصر حريته كذلك: إنه يربط بين التبعية وفقدان الحس، بين الاستقلالية وحس الحياة، كأزواج لازمة. ــ نرى هنا تجربة قام بها الإنسان في السياسة والمجتمع وقد نقلت خطأً إلى ميدان الميتافزيقا الأكثر تجريدا : هنا يكون الإنسان القوي إنسانا حرا كذلك، هنا تكون مشاعر الفرحة والألم القوية، وعلو الطموح، وجسارة الرغبات، وقوة الكره، وقفا على المهيمنين والمستقلين، أما الإنسان الخاضع، العبد، فيعيش حياة مضطهدة ولا حس فيها. ــ حرية الإختيار عقيدة ابتكرتها الطبقات المهيمنة.

10. عدم الإحساس بالقيود الجديدة.

مادمنا لا نشعر بالتبعية لأي شيء كان فإننا نعتبر أنفسنا مستقلين : إنها مغالطة منطقية تكشف كم هو الإنسان متكبر ومستبد. فهو يسلم هنا بأنه، في كل الأحوال، سيلاحظ تبعيته ويعرفها بمجرد ما يقع فيها، ومسلمته هي كونه يحيا عادة في استقلالية وسيشعر على الفور بتناقض في مشاعره لو حدث استثناء أن فقدها، ولكن ماذا لو كان العكس هو الصحيح، أي يعرف أنه يحيا باستمرار في تبعية متعددة الأشكال لكنه يعتبر نفسه حرا حين يكف عن الإحساس بضغط قيوده بفعل طول الاعتياد ؟ وإن كان مازال يعاني فمن قيوده الجديدة: « حرية الإختيار » لا تعني شيئا آخر غير عدم الإحساس بالقيود الجديدة.

11. حرية الإختيار وعزل الوقائع.

يعتبر إدراكنا العادي وغير الدقيق مجموعة من الظواهر وحدةً ويسميها واقعة، ويضيف خياله فضاء فارغا بين هذه الواقعة وواقعة أخرى ليفصل بينهما. ليست الأفعال التي نقوم بها والمعارف التي نكتسبها، متواليات من الوقائع والفواصل الفارغة، بل سيلا لا ينقطع. والحالة هذه فإن الإيمان بحرية الإختيار لا يقبل التوافق مع تمثل سيل متتابع في وحدة لا تقبل التقسيم أو التجزيء: إنها تفترض أن كل فعل منفصل هو فعل منعزل ولا يتجزأ، إنها ذَرية (atomisme)* في مجال الإرادة والمعرفة. إننا نفهم الوقائع مثلما نفهم الطباع، بشكل غير دقيق، فنتحدث عن الطباع المتماثلة وعن الوقائع المتماثلة : إنه شيء لا وجود له. ومع ذلك فإننا لا نمدح ولا نذم إلا بموجب هذه المسلمة الخاطئة التي تقول بأن هناك وقائع متماثلة، وأن هناك نظاما تراتبيا من أصناف الوقائع يقابله نظام تراتبي من القيم، إذن فنحن لا نعزل الوقائع واحدة واحدة فقط، بل كذلك مجموعات الوقائع التي نزعم أنها متماثلة (كالأفعال الحسنة والقبيحة، التي فيها شفقة أو حسد، إلخ.) مرتكبين في كلتا الحالتين خطأ. ــ الكلمة والتصور (con-cept) هما السبب الواضح الذي يجعلنا نؤمن بكون مجموعات الأفعال هذه منعزلة: إنهما لا يصلحان فقط لتسمية الأشياء، بل إننا نتصور أنهما يجسدان حقيقة هذه الأشياء. لازالت الأسماء والتصورات الآن أيضا تجعلنا باستمرار نتصور الأشياء أبسط مما هي، معزولة بعضها عن بعض، لا تتجزأ، كل واحدة موجودة في ذاتها ولذاتها. هناك في اللغة ميثولوجيا فلسفية خفية تظهر ويتجدد ظهورها في كل لحظة، مهما احترسنا. اللغة هي التي تبشر بالإيمان بحرية الإرادة، أي بحرية الوقائع المتماثلة والوقائع المنعزلة، وتدافع عنه باستماتة.

12. الأخطاء الأساسية.

لكي يشعر الإنسان بالانشراح أو بالإشمئزاز لا بد أن يهيمن عليه أحد الوهمين التاليين : إما وهم الإعتقاد في تماثل بعض الوقائع والأحاسيس، وحينها ستجعله مقارنة أوضاعه الحالية بأوضاع سالفة، التي سيؤكد أنها متشابهة أو مختلفة (وهو ما يحدث عند كل استذكار)، يشعر بانشراح أو باشمئزاز، وإما وهم الاعتقاد في حرية الإختيار حين يقول لنفسه :« ما كان علي أن أفعل هذا »، « ربما كانت الأمور ستجري بخلاف ما جرت عليه »، ويجد في ذلك أيضا شعورا بالانشراح أو بالإشمئزاز. لولا هذه الأخطاء التي تصنع كل انشراح أو اشمئزاز يشعر به الإنسان لما وُجدت الإنسانية قط، ـ مع هذا الإحساس الأساسي بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الحر في عالم التبعية و هو صانع المعجزات الأزلي، سواء أحسن أم أساء، هو الاستثناء الخارق، هو ما فوق الحيوان، هو الشبيه بالإله، هو معنى الخلق، الحضور الذي لا غنى عنه، هو حل اللغز الكوني، هو سيد الطبيعة و مزدريها، و الكائن الذي يسمي تاريخه الخاص تاريخ الكون ! الإ نسان المتبجح في غرور.

13. تكرار القول مرتين.

من الأفضل أن نكرر قول الشيء مرتين ونمنحه بذلك رجلا يمنى وأخرى يسرى. ولا شك أن الحقيقة تستطيع الوقوف على رجل واحدة، ولكنها على رجلين ستمشي وتشق طريقها.

14. الإنسان ممثل العالم الهزلي.

يستلزم الأمر كائنات أكثر روحانية من الناس لتتذوق الهزل الذي نجده في كون الإنسان يعتبر نفسه الغاية من وجود العالم وكون الإنسانية، وبجدية كبيرة، لا ترضى إلا إذا كانت مهمتها عالمية. إن كان الإله هو من خلق العالم فإنه قد جعل من الإنسان قردا، خلقه وسيلة سرمدية للتسلية، ولا شك أن موسيقى الأفلاك حول الأرض ستكون هي القهقهات الساخرة الصادرة عن الحيوانات المحيطة بالإنسان. هذا السرمدي الملول يدغدغ حيوانه المفضل بواسطة الألم ليتسلى في افتخار مأساوي بالمواقف والتأويلات التأويلات التي تلهمها إياه معاناة هذا الحيوان، ليتسلى بالإبتكار المميز لعقل أشد مخلوقاته غرورا... باعتباره هو مبتكر هذا المبتكر. الرب الذي تخيل الإنسان فخلقه ليتلاعب به نبيه أكثر من الإنسان، كما أنه يجد لذة أكثر في كونه نبيها. ولكن حين تقبل إنسانيتنا أن تهان طواعية فإن غرورنا هو من يحتال علينا بخبث إذ يجعلنا نريد أن

نكون شيئا خارقا ودون نظير.إنه من غير المحتمل، مع الأسف، أن يكون وضعنا فريدا في هذا العالم ! فعلماء الفلك، الذين تتاح لهم فرصة الاستمتاع بأفق أبعد من الأرض أحيانا، يخبروننا أن قطرة الحياة هذه لا أهمية لها وسط الخاصية العامة لمحيط الصيرورة والفناء الهائل، بأن كواكب كثيرة تعرف ظروفا مشابهة لظروف الارض الملائمة لنشأة الحياة، وهو ما يجعل عددها كبيرا، ولكنه يبقى ضئيلا اذا ما قورن مع عدد لا يحصى من الكواكب التي لم تعرف آفة الحياة أبدا أو شفيت منها منذ أمد طويل، بان الحياة على كل واحد من هذه الكواكب، إذا ما قورنت مع عمره، لم تمثل سوى لحظة، بارقة قصيرة جدا تتلوها فترات زمنية طويلة وطويلة جدا – ، إنها لم تكن إذن هي الهدف والغاية الاخيرة من وراء وجودها. ربما تتصور النملة داخل الغابة نفسها على انها هدف الغابة وغايتها الاخيرة بنفس القوة التي نربط بها بشبه تلقائية، في خيالنا، بين نهاية الانسانية ونهاية الارض، بل إننا نكون متواضعين إذا توقفنا عند هذا الحد ولم نتصور أن جنازة الإنسان الأخير سيصاحبها انحطاط العالم والآلهة الشامل. ان الفلكي الاقل انحيازا لن يشعر كثيرا بالارض وهي خالية من الحياة الا كقبر الإنسانية اللامع الدائرة في فلكه.

15. تواضع الانسان

كم يكفي أغلب الناس قليل من المتعة ليجدوا الحياة جميلة، كم هو الانسان متواضع !

16. ما يجعل اللا مبالاة ضرورية

من الخطإ أن ننتظر ما سيحسم به العلم يوما في شأن المسلمات الأولية والنهائية وأن نظل نفكر (ونؤمن بالخصوص) حتى ذلك اليوم بطريقة تقليدية، مثلما ينصحوننا به في الغالب. الميل الى الاحتفاظ في هذا الميدان باليقينيات فقط هو من مخلفات الغريزة الدينية،لا غير، بل هو نوع خفي وشكوكي، في ظاهره فقط، من «الحاجة الميتافزيقية»، تصاحبه بالفكرة المبطنة القائلة أنه لن يكون هناك على المدى الطويل أي أمل في اكتشاف هذه اليقينيات النهائية وان «المؤمن» قد كان، حتى الان، على حق في عدم اهتمامه بتاتا بهذا الميدان. إننا لا نحتاج بتاتا الى هذه اليقينيات في أفقنا البعيد لنعيش إنسانيتنا كاملة وبشكل صحيح، مثلما لا تحتاجها النملة لتكون نملة صالحة. يجب بالاحرى ان نتنبه الى مصدر هذه الاهمية التي عادة ما أوليناها لهذه الأشياء، ولأجل ذلك نحتاج الى تاريخ الاحاسيس الاخلاقية والدينية. لأن تأثير هذه الأحاسيس وحده هو الذي جعل هذه القضايا مهمة جدا ومرهوبة الجانب في فجر الثقافة : لقد حمل

الناس إلى تلك المناطق القديمة، التي لايزال نظر الأذكياء يبلغها ولكن دون أن ينفذ إليها، حملوا إليها مفاهيم مثل مفهومي الخطأ والعقاب (مفهوم العقاب الأبدي!)، وذلك بتهور يوازي غموض تلك المناطق. لقد حلم الناس عبر كل العصور بجسارة هناك حيث لا يمكن إثبات أي شيء يقيني وأقنعوا ابناءهم بأخذ أحلام اليقظة تلك مأخذ الجد واعتبارها حقيقة صحبة وسيلة النجاح الكريهة هذه : الإيمان أفضل من المعرفة. والحالة أن ما يتطلبه الأمر الآن تجاه هذه الغايات ليس هو المعرفة مقابل الإيمان بل اللامبالاة بالإيمان وبالمعرفة المزعومة في هذه الميادين! ـ يجب أن يشغلنا أمر آخر غيرما لقنوه لنا حتى الآن باعتباره هو الأهم، أعني الأسئلة من هذا النوع : ما هي نهاية الإنسان ؟ ما هو مصيره بعد الموت ؟ كيف سيتصالح مع الله ؟ وغرابات أخرى من هذا الشكل. ومثل أسئلة رجال الدين لا تعنينا أسئلة الفلاسفة الوثوقيين سواء كانوا مثاليين أم ماديين أم واقعيين. كلهم يحاولون، بما هم كذلك، دفعنا إلى اتخاذ قرار في تلك المجالات التي لا ضرورة فيها للإيمان ولا للمعرفة. حتى بالنسبة لخدام المعرفة المتحمسين يكون مفيدا جدا أن يحاط كل المجال القابل للإكتشاف من طرف العلم، والذي هو في متناوله، بحزام من المستنقعات ومن الضباب الغرار، بمنطقة من الأمواج التي لا يمكن اختراقها وتحديدها، التي لا تكف عن التموج. مقارنة مع مملكة الظلام داخل حدود أرض المعرفة نجد أن عالم المعرفة الصافي والأقرب إلينا لا يفتأ يزداد قيمة. ـ علينا أن نعود مرة أخرى جيرانا صالحين للأشياء الأقرب إلينا ولا ندع نظرنا يرمقها بازدراء ليتجاوزها ويستقر على عراصات الليل ووحوشه. لقد عاش الإنسان زمنا طويلا، وعاش في بؤس، في الغابات والكهوف، في الأراضي ذات المستنقعات وتحت السماء الغائمة، مثلما عاش مستويات كثيرة من الحضارة طيلة ألفيات. هناك تعلم أن يحتقر الحاضر، قرب الأشياء منه، والحياة ذاتها ـ ولانزال حتى الآن، نحن سكان مناطق الطبيعة والعقل الأكثر تنورا، بفعل الوراثة، نتلقى في دمنا شيئا من هذا السم الذي هو احتقار الأشياء القريبة جدا إلينا.

17. تفسيرات عميقة.

من يفسر فقرة ما بعمق أكثر من الذي صاغها به المؤلف سوف لن يكون قد سلط الضوء على المؤلف بل يكون قد عتمه. ذلك ما يفعل ميتافزيقيونا مع نص الطبيعة، بل يفعلون ما هو أسوأ. لأنه لكي يجعلوا لتفسيراتهم موضعا غالبا ما يبدأون بترتيب النص بهذا الشكل، أي يفسدونه. ولنعطي مثالا غريبا عن إفساد النص وتعتيم المؤلف دعونا نذكر هنا أفكار شوبنهاور بخصوص حمل النساء. يقول أن علامة وجود إرادة الحياة

في الزمن هي الجماع، وأن علامة كون نور المعرفة قد اقترن من جديد بإرادة الحياة هذه، صار منفتحا على إمكانية الخلاص، وذلك بأقصى درجات الوضوح، هي تجسيد متكرر لإرادة الحياة. الدليل على هذا التجسيد هو الحمل الذي يعلن عن نفسه بصراحة وحرية، بل بافتخار، بينما الجماع يتلبد كمجرم. يؤكد شوبنهاور أن أية امرأة، إذا ما فوجئت وهي في حالة مضاجعة، قد تموت خجلا، ولكنها «تظهر حملها بشكل جلي وبلا خجل، بل وبنوع من الفخر». قبل كل شيء، ليس من السهل الإعلان عن هذه الحالة بشكل أكثر جلاء مما تفعله هي ذاتها، ولكن شوبنهاور، بإبرازه فقط لقصدية العرض، يرتب نصه بحيث يقبل «التفسير» الجاهز. ثم، إن ما يقوله عن عالمية الظاهرة المتعين تفسيرها ليس صحيحا: إنه يتحدث عن «أية امرأة»، ولكن كثيرا من النساء، والشابات بالخصوص، غالبا ما يبدين في هذه الحالة،خاصة أمام أقاربهن، انزعاجا محتشما، وإن كان صحيحا أن النساء الناضجات، خاصة نساء العامة، يجدن في تلك الحالة فخراً، فإنهن يهدفن من وراء ذلك إلى التدليل على أن رغبة أزواجهن فيهن لازالت لم تنطفئ. وإذا ما رآهن جار أو جارة أو أحد المارة قالوا أو فكروا : «هل من الممكن...»، ودائما يقبل هذه الصدقة غرور النساء المتجانس مع مستوى فكري منخفض. حسب ما يمكننا استنتاجه من أطروحات شوبنهاور فإن النساء الرقيقات والذكيات، على العكس، هن اللواتي سيستقبلن حالة الحمل بأكبر علامات الفرحة أمام الناس، مادام سيكون لهن وحدهن حظ إنجاب طفل آية في الذكاء قد «تنفي الإرادة نفسها» لديه لصالح الكل، ويكون للبليدات كل الحق، في المقابل، في إخفاء حملهن بحياء أكثر من كل الأشياء الأخرى التي يخفينها. ـ لا يمكننا أن نقول أن هذه الأشياء مأخوذة من الواقع. حتى وإن افترضنا أن شوبنهاور على حق، بشكل عام، بخصوص كون النساء في فترة الحمل يظهرن الإعجاب بأنفسهن أكثر منه في الأوقات العادية، فإنه سيكون هناك تفسير أبسط من تفسيره. إننا نستطيع تصور قوقأة دجاجة قبل وضعها البيضة وكأنها تريد القول : انظروا، انظروا! إني سأضع بيضة! إني سأضع بيضة!

18. ديوجين الحديث.

قبل البحث عن الرجل علينا أن نجد المصباح. فهل يجب أن يكون مصباح الكلبي؟

19. لا أخلاقيون.

على الأخلاقيين الآن أن يقبلوا نعتنا إياهم باللاأخلاقيين، نظرا لكونهم يُشرحون الأخلاق. والحال أن من يريد التشريح عليه أن يقتل في سبيل غاية وحيدة هي تحسن

المعرفة والحكم (jugement) والحياة، وليس لكي يباشر كل الناس التشريح. يعتقد الناس دائما، لسوء الحظ، أنه على كل أخلاقي أن يكون، من خلال سلوكه كله، نموذجا يجب على الآخرين أن يحتذوا به، إنهم يخلطون بينه وبين الداعية إلى الأخلاق. كان الأخلاقيون القدماء يعظون أكثر مما يُشرحون، وهذا هو ما جعل أخلاقيي الوقت الحاضر يقعون في هذا اللبس وهذه النتيجة غير السارة.

20. لا ينبغي الخلط بينهما.

الأخلاقيون الذين يبحثون المشاكل الصعبة في المعرفة مثل العظمة والقوة ونكران الذات، مثلا لدى أبطال بلوتارك، أو الحالة المعنوية الخالصة، المنورة والودية لدى الرجال والنساء الطيبين حقا، ويبحثون عن أصلها مظهرين التعقيد الذي في بساطتها الظاهرة ومثيرين الإنتباه إلى تشابك الدوافع، إلى الأوهام الفكرية المحبوكة بدقة، إلى الأحاسيس الفردية والجماعية الموروثة منذ زمن طويل والتي تم تكثيفها ببطء، هؤلاء الأخلاقيون يختلفون أشد الإختلاف عن الأخلاقيين الآخرين الذين يظن الناس أنهم مثلهم، أولئك الحقيرين الذين لا يؤمنون البتة بطرق التفكير والحالات المعنوية التي كنا بصدد الحديث عنها، والذين يتخيلون أن تحت بريق عظمتها وصفائها يستتر بؤسها. يقول الأخلاقيون : « هذه قضايا »، ويقول هؤلاء البؤساء : « هذا خداع وهؤلاء خداعون »، إنهم ينكرون إذن وجود ذلك الشيء الذي يثابرون على تفسيره.

21. الإنسان هو الكائن الذي يقيس الأشياء.

ربما يكون أصل أخلاقية الناس كلها هو ذلك الشعور الداخلي الخارق الذي غمر البدائيين حين اكتشفوا القياس وفنه، الميزان وفن الوزن (فكلمة إنسان تعني فعلا ذلك الذي يقيس، لقد أراد أن يتسمى حسب اكتشافه الكبير!) وبمعونة هذه المفاهيم ارتفع إلى مناطق لا يطالها أي قياس وأي وزن، ولكنها لم تكن تبدو كذلك في الأصل.

22. مبدأ التوازن.

يبدو أن سيد الجماعة القوي الذي يعدها بأن يحميها من قاطع الطريق يشبه هذا الأخير في جوهره، خلا كون الأول يضمن امتيازه بخلاف ما يضمنه به الثاني، أي من خلال الإتاوات المنتظمة التي تؤديها له الجماعة وليس من خلال النهب. (إنها نفس العلاقة الموجودة بين التاجر والقرصان اللذين يشكلان، ولمدة طويلة، شخصا واحدا: حين لا يمارس التجارة فإنه يمارس النهب والعكس. في الواقع، ليست الأخلاق التجارية كلها اليوم سوى صيغة ملطفة من أخلاق القراصنة: الشراء بأبخس ثمن ممكن أوالشراء

دون مقابل إن أمكن، ماعدا المصاريف العامة ـ والبيع بأعلى الأسعار.) فالأساسي هو كون هذا السيد القوي يعد بأن يوازن قاطع الطريق، إذ يرى الضعفاء في ذلك إمكانية الحياة. لأنه إما أن يتحدوا ويشكلوا قوة توازي قاطع الطريق أو يسلموا قيادهم لمن سيوازيه (خدمته مقابل الحماية التي يوفرها). ويفضل الناس الطريقة الأخيرة لأنها في الحقيقة تمنع شخصين خطيرين من العمل: السيد القوي يمنع قاطع الطريق، والربح المرتقب يمنع السيد القوي، ومن مصلحة هذا الأخير أن يعامل رعاياه بطريقة رحيمة أو مطاقة حتى يتمكنوا من إعالة أنفسهم وسيدهم. في الواقع، قد تجري الأمور بكثير من القسوة والوحشية ولكن الناس قد صاروا، مقارنة مع الإفناء الشامل الذي كان ممكنا في الماضي، يتنفسون الصعداء في ظل هذه الوضعية. ـ تكون الجماعة، في البداية، منظمة يتكتل فيها الضعفاء بغية موازاة قوى مهددة. وتكون المنظمة الرامية إلى التفوق مفضلة إن كانت ستوفر القوة الكافية لإبادة قوة الخصم دفعة واحدة، وذلك ما سيحاول أفرادها فعله بكل تأكيد إن كان الأمر يتعلق بمكتسح قوي ولكنه معزول.أما إذا كان قاطع الطريق هذا زعيم قبيلة أو إذا كان له أنصار كثيرون، فإن القضاء الجذري والسريع عليه يكون من غير المحتمل، وقد تدوم المقاومة البطولية. والحالة أن هذه المقاومة تجعل الجماعة في وضع هو أقل الأوضاع المرغوبة، وذلك لأنها تضيع فيه الوقت الذي عليها تخصيصه للحفاظ على حياتها بالانتظام الضروري، وترى فيه نتاج عملها كله مهددا في كل لحظة. كما تفضل الجماعة البلوغ بقوتها الدفاعية والهجومية تماما إلى مستوى قوة الجار الخطر وتفهمه أن هناك الآن في كفتها نفس الكمية من البرونز: فلم لا يكونان صديقين جديدين ؟ ـ التوازن إذن مفهوم مهم في نظرية الأخلاق والقانون القديمة، التوازن أساس العدل. إن قال العدل في عصور متوحشة: « العين بالعين، والسن بالسن» فلأنه يفترض أن التوازن متحقق ويريد الحفاظ عليه من خلال هذا الثأر بحيث أنه إذا ألحق زيد ضررا بعمر فإن هذا الأخير سوف لن ينتقم بضراوة عمياء. مقابل ذلك تعاد إقامة توازن علاقات القوى المضطربة بمقتضى شريعة الذحل (Jus Talionis)، لأن عينا أو ذراعا زائدين هما، في مثل تلك الأوضاع البدائية، جزء من القوة، وزن زائد. ـ داخل الجماعة التي يعتبر كل الأفراد أنفسهم متساوي القوة يوجد، ضد الجرائم، أي ضد خرق مبدأ التوازن، العار والعقاب، العار ثقل موازن يوضع في كفة الفرد الذي اغتصب ملكية ما وحصل بذلك على بعض الإمتيازات ولكنه، في المقابل، يعاني بفعل ذلك العار من أذية توازن الإمتيازات السابقة، بل تفوقها. كذلك الأمر بالنسبة للعقاب: إنه يضع في الميزان مقابل كل تفوق قد يمني به المجرم نفسه ثقلا موازنا أكبر بكثير، الزنزانة مقابل العنف، الغرامة وإرجاع المسروق مقابل السرقة.

وبذلك يتم تذكير المجرم أنه بفعلته تلك قد أخرج نفسه من الجماعة ومن امتيازات أخلاقها : إنها تعامله كشخص متلون وضعيف يبقي نفسه خارجها، لذلك لا يعتبر العقاب مجرد انتقام، إن فيه شيئا أكثر من ذلك، شيئا من قسوة حالة الفطرة، وتلك الحالة بالضبط هي ما يريد أن يذكر به.

23. هل لأنصار عقيدة حرية الإختيار الحق في المعاقبة؟

يسعى الذين يمتهنون المحاكمة والعقاب لأن يلاحظوا في كل حالة إن كان الجاني، على العموم مسؤولا عن فعلته، إن كان في وسعه استخدام عقله حينها، إن كان قد تصرف بسبب دوافع معينة وليس لا شعوريا أو تحت الإكراه. وإن عوقب فعلى تفضيله الأسباب غير الوجيهة على الأسباب الوجيهة التي قد عرفها. وحين لا تكون لدى الإنسان هذه المعرفة فإنه، حسب الرأي السائد، لا يكون حرا ولا مسؤولا، اللهم إلا إذا كان جهله، بالقانون مثلا، ناتجا عن إهماله المتعمد للإستعلام، ففي هذه الحالة يكون قد فضل الأسباب غير الوجيهة على الوجيهة منذ اللحظة التي رفض فيها تعلم ما كان يجب تعلمه، وعليه الآن أن يكفر عن عواقب سوء اختياره. أما إن لم يكن قد عرف الأسباب الوجيهة، بسبب البلادة أو الغباوة، فقد جرت العادة بأن لا يعاقب : إنه لم يوضع أمام اختيار، كما يقال، لقد تصرف بغباوة. إن ما يتم افتراضه الآن في حالة الجريمة التي تستحق العقاب هو تعمد الجاني نفي أفضل ما في عقله. ولكن كيف يمكن لشخص ما أن يكون لامعقولا أكثر مما يمكنه ؟ ومن أين يصدر القرار بكون الأسباب غير الوجيهة أو الوجيهة ترجح كفتي الميزان ؟ ليس من الخطأ، أي ليس من الغباوة، وليس من الإكراه الخارجي ولا من الإكراه الداخلي (ولتتفضلوا باعتبار أن كل إكراه يقال أنه « خارجي » ليس سوى إكراه داخلي ناجم عن الخوف والألم) فمن أين ؟ نتساءل ونعيد التساؤل، ليس العقل إذن هو السبب مادام لا يستطيع معارضة الأسباب الوجيهة ؟ وها هم يطلبون عون « حرية الإختيار »: الإرادة المطلقة هي من ستقرر، ستأتي لحظة لن يكون فيها أي دافع وراء الفعل، وسيتم الفعل كمعجزة خارجة من العدم. إنهم يعاقبون هذا العسف المزعوم في حالة لا ينبغي أن تقبل فيها الإرادة المطلقة بتاتا : لا شك أن العقل الذي يعرف القانون والتحريم والتنبيه الرسمي قد تخلى عن الإختيار عمدا وتصرف كإكراه وقوة فوقية. سيعاقب المجرم إذن لأنه استخدم «حرية الإختيار»، أي لكونه تصرف دون أي دافع هناك حيث كان عليه أن يتصرف بدافع ما. ولكن لماذا فعل ذلك ؟ هذا هو بالضبط مالا يحق لنا أن نسأل عنه : لقد كان فعلا بلا «لماذا»، بلا دافع، بلا أصل، فعلا عاريا من الهدف و السبب. لكنه لا ينبغي، بمقتضى

الشرط الأول المتعلق بأية عقوبة،المذكور آنفا، معاقبة مثل هذا الفعل ! كما ليس لنا الحق في إقرار العقوبة الأخرى وكأنه لم يتم هنا ارتكاب أية جناية ولم يكن هناك أي إهمال، وكأن العقل لم يستخدم هنا، مادام الإهمال قد وقع في كل الحالات عن غير قصد ! وأن وحده الإهمال المتعمد للتنبيه الرسمي هو من يستحق العقاب. لا شك أن المجرم قد فضل الأسباب غير الوجيهة على الوجيهة ولكن دون سبب أو قصد، لا شك أنه لم يستخدم عقله ولكن ليس لكي لا يستخدمه. إن افتراضنا أن المجرم، في حالة الجريمة المستحقة للعقاب، قد تعمد نفي عقله، هو الإفتراض الذي يسقط إذا ما قبلنا «حرية الإختيار». ليس لكم الحق في أن تعاقبوا يا معشر أنصار عقيدة «حرية الإختيار»، مبادئكم تمنعكم! لكن هؤلاء الأنصار ليسوا في الواقع سوى ميثولوجيا تصورية غريبة، والدجاجة التي فرختهم قد حضنت بيضها بعيداً عن الواقع كله.

24. للمساعدة على محاكمة المجرم وقاضيه.

المجرم الذي يعرف مجريات الأحداث كلها لا يرى فعلته خارج النظام والمعقولية مثلما يراها القضاة والرقباء، ولكن عقوبته يتم تحديدها بالضبط بالتناسب مع درجة الدهشة التي تتملك القضاة والرقباء عند رؤية فعلته باعتبارها شيئا غير مفهوم. ـ لو أن المدافع عن مجرم ما كانت له معرفة أوسع بقضيته وبسابقاتها فإن الظروف التي يقال عنها ظروف التخفيف التي سيكشف عنها ستؤدي حتما إلى الإلغاء التام للخطأ. بتدقيق أكبر، سيخفف المدافع بالتدريج ذلك الإندهاش الذي يدين ويحدد العقوبة إلى أن يمحوه تماما مرغما بذلك كل مستمع صادق على الاعتراف في قرارة نفسه وضميره:« كان عليه أن يتصرف كما فعل، إن كنا معاقبين فلنعاقب الفقر.» أليس تحديد العقوبة حسب المعرفة المتوفرة لدينا، أو التي قد نتوصل إلى امتلاكها، بشأن جريمة ما وقوفا في وجه الإنصاف ؟

25. المقايضة والإنصاف.

لن تكون عملية المقايضة مطابقة للشرف والقانون إلا إذا طلب كل واحد من الطرفين قدر ما يبدو له ثمنا لسلعته، مع الأخذ بعين الاعتبار العناء الذي تجشمه ليحصل عليها، ندرتها، الوقت الذي استغرقه إنتاجها، إلخ، وكذلك قيمتها العاطفية. وبمجرد ما يحدد أحدهما الثمن مراعيا حاجة الآخر فإنه يكون قاطع طريق، نهابا لطيفا شيئا ما. ـ إن كانت النقود موضوع مقايضة فإننا قد نتوقع أن الريال (écu) في يد وارث غني، في يد مياوم أو تاجر أو طالب، سيكون شيئا مختلفا : سيكون لكل واحد منهم الحق، بحسب ما إذا كان قد حصل عليه دون بذل أي جهد أو بعد جهد كبير، في الحصول

مقابله على القليل أو الكثير، وسيكون ذلك عدلا، ولكن الذي يحصل في الحقيقة، كما نعلم، هو العكس. في عالم الأموال تكون مردودية ريال الغني الكسول أكبر من مردودية ريال الفقير أو العامل.

26. شروط القانون وسائل.

يدوم القانون، المرتكز على اتفاقيات بين الأنداد، مادامت قوة المتعاقدين متساوية أو يضاهي بعضها بعضا، الحذر هو الذي خلق القانون ليجعل حدا للصراع وللتبذير عديم الجدوى للقوى المتماثلة. وقد وضعت فيه عبارة حاسمة في حالة ما إذا ضعف أحد الطرفين : يكون الخضوع حينها ويعلق القانون، ولكن النتيجة تكون هي نفسها التي كانت تنجم عن القانون. لأن حكمة المهيمن هي التي تنصحه الآن بأن يحافظ على قوة المهزوم وألا يبذرها سدى، وغالبا ما تكون وضعية المهزوم أفضل من وضعيته يوم كان ندا. ــ شروط القانون هي إذن وسائل مؤقتة ينصح بها الحذر وليست غايات في حد ذاتها.

27. تفسير الفرحة الماكرة.

تصدر الفرحة الماكرة عن كون كل واحد يشعر بالإنزعاج نتيجة اعتبارات عدة يعرفها، وسواء شعر بالهم أو بالحسد أو بالألم فإن الضرر الذي يصيب الغير يعوضه عن ذلك ويطهره من حسده. ــ حتى وإن كان هو في أحسن حال فإنه سيراكم في وعيه الحظ العاثر الذي يصيب شخصا آخر، بمثابة رأس مال، يعارض به حظه العاثر هو حين يحل به، وبذلك تكون له «الفرحة الماكرة». إذن فالمشاعر المساواتية تلقي بمعيارها في ميدان الحظ والصدفة: الفرحة الماكرة هي التعبير الأكثر شيوعا عن الإنتصار وعن عودة المساواة، حتى في الطبقة العليا من الناس. لقد كان ميلاد الفرحة الماكرة يوم تعلم الإنسان أن يرى في الآخرين أنداداً له، أي منذ نشأة المجتمع.

28. التعسف في تحديد العقوبات.

لقد قضى أغلب المجرمين عقوباتهم مثلما تلد النساء أطفالهن. فعلوا نفس الشيء عشر مرات، مائة مرة، دون أن يشعروا بعواقبه الوخيمة، وفجأة يتم اكتشافهم ثم تتلوه العقوبة. وقد كان ينبغي للعادة أن تجعل خطأ الفعلة التي من أجلها يعاقب المجرم يبدو أكثر قابلية للصفح، فقد صار لديه بذلك ميل تصعب مقاومته. وعوض ذلك تتم معاقبته بقساوة حين يشكون في كون جريمته متأصلة، إنهم يعتبرون العادة سببا معارضا لأي تخفيف. إن ما يجب أن يظهر الجرم أخطر هي حياة المجرم المثالية في الماضي والتي تناقضها الجريمة بشكل صارخ ! إلا أنها عادة ما تخفف العقوبة. هكذا إذن يتم قياس

كل شيء ليس بمقياس المجرم بل بمقياس المجتمع، بالنظر إلى المضرة التي تصيبه والخطر الذي يتهدده : توضع فائدة الفرد السابقة في كفة والأذية التي سببها مرة واحدة في الكفة الأخرى، تضاف أذيته السابقة الى التي تم اكتشافها حديثا، ثم تصدر في حقه أقسى عقوبة. والحالة هذه، إذ كنا بهذا نعاقب ماضي الانسان أيضا، أو ان كنا نجازيه (وهذا يخص الحالة الاولى التي يعتبر فيها تخفيض العقوبة جزاء)، فانه علينا ان نرجع كثيرا الى الوراء ونعاقب أو نجازي سبب هذا الماضي أو ذاك، أعني الوالدين، المربين، المجتمع، الخ، وسوف نجد، في كثير من الحالات، ان القضاة يساهمون بشكل أو بآخر في الخطأ. انه لمن التعسف ان نتوقف عند المجرم حين نعاقب الماضي، وعلينا، ان لم نشأ قبول امكانية الصفح مطلقا عن أي خطأ، أن نتناول كل حالة بشكل منعزل ولا ننظر بعيدا الى الوراء، اي ان نعزل الخطأ ولا نربطه مطلقا بالماضي، - والا فاننا نخطىء في حق المنطق. وهكذا اذن، يا معشر معتنقي حرية الاختيار، استنتجوا الخلاصة الضرورية من عقيدة «حرية الارادة» واعلنوا بجسارة : «كل الأفعال لا ماضي لها».

29 . الغيرة وأختها النبيلة

هناك حيث تكون المساواة قد تعمقت وترسخت تولد الغيرة، هذا الميل الذي يعتبر لا أخلاقيا في مجمله، والذي قلما يتصور الناس وجوده في حالة الفطرة. الغيور حساس اتجاه ارتفاع الآخر فوق النموذج المشترك ويريد ارجاعه اليه - أو الارتفاع للحقاق به، وينتج عن ذلك نوعان مختلفان من السلوك سماهما هزيود ايريس الشريرة وايريس الطيبة. كما يولد في حالة المساواة التذمر من ثروة شخص لا تناسبه ثروته لانها اقل من كرامته ، ولان ثروة شخص آخر أفضل مما تتطلبه المساواة: هذه هي محبة الأشخاص النبلاء. إنهم يحزنون لغياب العدل والانصاف في الاشياء التي لا تتوقف على عسف الناس، أي انهم يطالبون بان تعترف الطبيعة والحظ بهذه المساواة التي اعترف بها الانسان : انهم يغتاظون من الا يكون للانداد مصير واحد.

30 . حسد الآلهة.

يولد «حسد الآلهة» حين يقف الشخص الذي في مرتبة أدنى ندا لمن هو أعلى منه مقاماً (مثل أجاكس)، أو حين يحابيه القدر فيضعه ندا له (مثل نيوبي (Niobé) *، الأم التي تم إرضاؤها بسخاء). يتطلب هذا الحسد، في حدود التراتبية الاجتماعية، الا يكون لاي فرد استحقاق يفوق وضعه، وأن توافق سعادته هي الاخرى هذا الوضع، وخاصة الا يتجاوز وعيه بقيمته هذه الحدود. غالبا ما يشعر القائد المنتصر، وكذلك المريد الذي أبدع عملا عظيما، بـ«حسد الآلهة».

31. الغرور نتاج الوضع اللاإجتماعي.

بما ان الناس قد جعلوا من انفسهم أندادا قصد ضمان امنهم وتأسيس الجماعة، وبما ان هذا التصور يناقض طبيعة الفرد الذي يفرض عليه بالقوة، فان نباتات جديدة من غريزة الهيمنة القديمة تعود للحياة بالتدريج كلما تم ضمان الأمن العام بشكل أفضل : فتظهر في تحديد الطبقات الاجتماعية، في الامتيازات الشرفية التي تطالب بها نقابة الحرفيين، وبشكل عام في الغرور (مثل السلوكات، الملابس، اللغة، إلخ). وبمجرد ما يتم الشعور مرة اخرى بالخطر المهدد للحياة الجماعية تعمل الأغلبية، التي لم تتمكن من فرض تفوقها أثناء حالة الهدوء الشامل، على ابراز حالة المساواة من جديد، فتختفي الامتيازات والغرور العبثيين لبعض الوقت. ولكن اذا انهارت الجماعة تماما وعمتها الفوضى فان غريزة الفطرة وعدم المساواة الوقح والوحشي ينفجران في الحين، مثلما حدث في جزيرة كورسير حسب ما رواه ثوسيديد. ليس هناك لا قانون طبيعي ولا جور طبيعي.

32. الإنصاف.

يعتبر الانصاف تطورا للعدل، ويولد بين أولئك الذين لا يرتكبون مخالفات في حق المساواة داخل الجماعة، انه يعيد لبعض الحالات التي لا يخصصها القانون باي نص احتراما دقيقا للتوازن ينظر الى الامام والى الوراء مراعيا للكل، وحكمته هي: «كما تدين تدان». الانصاف يعني بالضبط: «هذا مطابق لمساواتنا، فهي تحول خلافاتنا الصغيرة كذلك الى مظهر من المساواة وتريد منا ان نستغني عن الاشياء التي لسنامدينين بها».

33. عناصر الانتقام.

إننا ننطق كلمة انتقام بسرعة كبيرة، ويبدو أنها لا تستطيع احتواء أكثر من أصل فكرة أو إحساس واحد. وهكذا نسعى دائما للعثور على هذا الاصل، مثلما لا يزال اقتصاديونا يسعون لتخمين وحدة مماثلة في كلمة قيمة ويبحثون عن المفهوم الاول، عن أصل القيمة. مثلما الكلمات كانت أكياسا يضع الناس فيها تارة هذا الشيء، تارة ذاك، وتارة أخرى أشياء كثيرة دفعة واحدة ! كذلك الانتقام يكون تارة هكذا، تارة كذلك، وتارة أخرى يكون شيئا مركبا. سنلاحظ أولا هذا الانتقام الدفاعي الذي نقوم به بشبه تلقائية حتى من أشياء جامدة أضرت بنا (كما من آلات متحركة) : إن المبتغى من رد فعلنا هو وقف الضرر الذي تلحقه بنا الآلة وذلك بتوقيفها. ولكي يحقق الرد هذا

الهـدف يجب أن تكون قوته أحيانا شـديدة بحيث تحطم الآلة، وان كانت الآلة قـوية جدا بحيث لا يحطمـها الفرد علـى الفور، فان هـذا الفرد سيـوجه لهـا مع ذلك أعنف ضربة يستطيعها، ـ وكأنها محاولة اخيرة. هكذا نتصرف كذلك مع الذين يضرون بنا حين احساسنا المباشر بالضرر، ويمكن، اذا أصررتم، أن نسمي ذلك انتقاما، غير أنه علينا أن نعتبر أن البـقاء الشخصي هو الذي حرك آلة العقل، وأننا في الحـقيقة لا نفكر في من ألحق الضـرر بنا، بل في أنفسنا : نتـصرف بتلـك الطريقة دون أن نسـعى للإضـرار بمن آذانا، ولكن فقـط لكي نخرج من ذلك سالمين. ـ نـحتاج وقـتا لكي نمر من التـفكير في نفسـنا إلى التفكير في الخصم ونتـساءل عن الطريقـة التي قد تمكننـا من إصابتـه إصابة بالغـة. هذا مـا يقع في هذا الصنف الثـاني من الإنـتقـام، شـرطه الأول هو التـفكيـر في جروحية الآخر وقدرته على المعاناة، لأن الذي ينتقم يريد أن يؤذي، في المقابل، لا يتنبه إلى الأضرار التي تـنجم عن انتقامـه لاحقـا، بحيث أنه يتـسبب بشكل شبـه منتظم في تلك الأضرار التي تـصيبـه مرة أخرى، وغـالبا ما يراها مـسبقـا آتية على مـهل. إن كان الخـوف من الضـربة الثـانيـة هو مـا يجـعل الرد أقـوى مـا يمكن فـي الصنف الأول من الإنتـقـام، فإن مـا يحـدد قـوة الرد في الصنف الثـاني هو مـا ألحـقـه بنا الخـصم، وتكاد لامبـالاتنا بما سيـفعله لاحـقا تكون مطلقـة. ـ فمـا الذي فعله ؟ ومـاذا يفيدنا أن يـعاني الآن، بعد أن تسبب لنا في المعاناة ؟ يتعلق الأمر هنا بالترضية، بينما الإنتقام في الصنف الأول يهدف إلى البقاء الذاتي فقط. ربما يكون الخصم قد تسبب لنا في فقدان الثروة أو المكانة أو الأصدقـاء أو الأبناء، ـ ولا نسترجـعها بالإنتـقام، الترضـية تهم فقط خـسارة ثانوية إذا ما قورنت بالتي ذكرناها. ثأر الترضية لا يحمينا من الأضرار اللاحقة، كما أنه لا يعـوض الخسـارة التي تعـرضنا لها، ـ إلا في حـالة واحـدة. إذا كان شـرفنا هو الذي هاجمـه الخصم فإنه بمقـدور الإنتقام أن يعـيده. لقـد لحقه الضـرر في كل الحالات التي لحقنا فيها الضرر عمدا، ذلـك أن الخصم قد أبان بذلك أنه لا يخشانا. وبالإنتقام سنبين أننا نحن هم الذين لا نخشـاه، هذا هو مقتضى التـعويض والترضية. (تذهـب نية إظهار غيـاب الخوف التـام لدى بعض الأشخـاص إلى حد اعـتبارهم خطـر الإنتقام عليـهم ـ كـفقـدان صـحتـهم أو حيـاتهم أو أشيـاء أخـرى ـ شـرطا لازما لكل انتـقـام. وهكذا يسلكون سبيل المبارزة رغم كون المحاكم تعرض عليـهم مساعدتها لنيل ما يرضيهم ممن أهانهم، ولكنهم يعتبـرون الترضية غير كـافية إن لم تصحبها المخـاطرة بالشرف لأنها لن تكون معبرة عن غيـاب الخوف لديهم.) ـ في الصنف الأول من الإنتقام يكون الخوف هو من ينتـقم، أمـا هنا فإن الخـوف هو الذي يريد أن يثبت ذاته من خـلال الإنتقـام. ـ يبدو البـاعث الداخلي لكلا السلوكين اللذين نطلق عليـهما كلمـة انتقـام مختلفـا أشد

الإختلاف، ومع ذلك يحدث كثيرا أن لا يتنبه منتقم بإحدى هاتين الطريقتين بوضوح إلى الذي جعله يقرر الإنتقام، ربما يكون قد فعل ذلك بدافع الخوف وضمان البقاء، ولكنه بعد برهة، وقد سنح له الوقت بالتفكير من منظور الشرف المثلوم، يقنع نفسه بأنه قد انتقم لشرفه : ـ هذا الدافع هو في الواقع، ومهما يكن الأمر، أكثر تميزا من الآخر. تبقى هناك نقطة أساسية، والحالة هذه، وهي معرفة إن كان يعتبر الضرر قد لحق بشرفه في نظر الآخرين (الناس) أم فقط في نظر من أهانه. في هذه الحالة الأخيرة سيفضل الإنتقام السري، وأمام الملأ في الحالة الأولى. وسيكون انتقامه ضاريا أو معتدلا بحسب تصوره لكيف يراه المجرم، أقويا أم ضعيفا، وإن لم يكن لديه هذا التصور مطلقا فإنه لن يفكر في الإنتقام البتة، لأنه في هذه الحالة لا يملك إحساسا بالشرف، إذن لن ينجرح. كما أنه لن يفكر في الإنتقام إن كان يحتقر المجرم والشهود لأنهم لا يستطيعون، وهم موضوع احتقار، أن يمنحوه الشرف أو أن يسلبوه منه. أخيرا، سيتخلى عن الإنتقام إذا كان يحب المجرم، وهي حالة جد استثنائية، ولا شك أنه سيفقد بذلك شيئا من شرفه في نظر هذا المجرم ويصير، في مقابل ذلك، أقل جدارة بالحب. ورفض تلقي المقابل تضحية يقبل المحب القيام بها لكيلا يجبر على إيذاء المحبوب : وهذا يعني إيذاء المرء لنفسه أكثر مما قد تؤذيه هذه المسماة تضحية. ـ في الختام أقول أن كل الناس قد ينتقمون إلا من كان بلا شرف أو مفعما بالاحتقار أو بالحب لمن آذاه وأهانه. حتى الذي يلجأ إلى المحكمة يسعى إلى الإنتقام كفرد، ويسعى علاوة على ذلك وبالتبعية، باعتباره عضوا واعيا في المجتمع وحريصا عليه، إلى انتقام المجتمع من الذي لا يحترمه. وهكذا فإن العقوبة القانونية تعيد الشرف للفرد وللمجتمع : وهو ما يعني أن العقوبة انتقام. ـ لا ريب أن فيها كذلك عنصر الإنتقام الآخر الذي وصفناه في المقام الأول، وهو كون المجتمع يستخدمها من أجل بقائه وينتقم لنفسه في حالة الدفاع عن النفس. تريد العقوبة أن تمنع حدوث أضرار أخرى، إنها تريد التخويف. بهذا يكون عنصرا الإنتقام المختلفين كثيرا متحدين فعلا في العقوبة، وقد يساهم ذلك بالخصوص في الحفاظ على غموض الأفكار الذي تحدثنا عنه، والذي بسببه لا يعرف الفرد الذي ينتقم ما يريد.

34. الفضائل التي تجلب الخسارة.

إننا نعتقد، باعتبارنا أعضاء في المجتمع، أنه لا ينبغي لنا أن نمارس بعض الفضائل التي تكسبنا، باعتبارنا أفرادا، كثيرا من الشرف وبعض المتعة، كالتسامح مع المجرمين من كل صنف والعفو عنهم، ـ وبشكل عام مع كل السلوكات التي قد تعاني منها مصلحة المجتمع بفعل فضيلتنا. لا تستطيع أية هيأة قضائية أن تسمح لنفسها صراحة بالعفو :

وحده الملك، باعتباره فردا، هو من يتمتع بهذا الإمتياز، وحين يستعمله يفرح الناس ليبينوا أنهم يودون العفو ولكن ليس بوصفهم مجتمعا. فهذا المجتمع لا يعترف إلا بالفضائل المفيدة أو التي لا تسبب له الأذى على الأقل (التي تتم ممارستها دون خسارة أو بفائدة، كالعدالة مثلا). ولا يمكن بالتالي للفضائل التي تجلب الخسارة أن تكون قد نشأت داخل المجتمع مادامت حتى في وقتنا الحاضر، داخل مجتمع في إطار التكون، حتى وإن كان صغيرا، تصطدم مع التناقض. إنها فضائل لا يستوي فيها كل الناس، لأن مبتكرها هو الفرد المتفوق، لذلك فهي فضائل المهيمن، مع هذه الفكرة المبطنة : «إنني أقوى من أن أقبل خسارة بينة، هذا دليل على قوتي» ـ فهي إذن فضائل تَمُتُّ بصلة إلى الكبرياء.

35. ذمامة المصلحة».

لولا ذمامة المصلحة لما كانت ذمامة الأخلاق. إذا لا يكفي الذكاء الحر والدقيق عادة للإختيار بين شيئين بطريقة تجعل المصلحة الكبيرة تصاحب حتما ذلك الإختيار. في مثل هذه الحالات نختار لأنه علينا أن نختار، وبعد برهة نشعر بنوع من غثيان الإحساس.

36. التحول إلى منافق.

كل متسول يصير منافقا، مثلما أي كان يتخذ من النقص ومن الضيق حرفة (سواء كانا خاصين أو عامين). لو أراد المتسول فقط أن يعيش من التسول لما شعر بنقصه بالقدر الذي عليه أن يجعل الآخرين يشعرون به.

37. نوع من عبادة الأهواء.

إنكم تتحدثون معشر الملمحين الكئيبين والفلاسفة المرائين لتتهموا طبع الكون كله بأنه طبع الأهواء الإنسانية المرعب. كما لو أن الرعب قد وجد في كل مكان فيه الهوى! كما لو أن الأمر قد تطلب دائما وجود هذا النوع من الرعب في العالم ! إنكم أنتم الذين تركتم في أول الأمر الأهواء تكبر بإهمالكم الأشياء التافهة وبقلة ملاحظتكم لأنفسكم ولمن يتعلق الأمر بتربيتهم، تركتموها تكبر حتى صارت مخيفة جدا بحيث ترتعدون خوفا لمجرد سماع كلمة هوى ! يتوقف عليكم وعلينا أمر تجريد الأهواء من طبعها المرعب وتحويل اتجاهها بحيث لا تصير سيولا جارفة. لا يجب أن نضخم غلطاتنا ونعتبرها قدرا سرمديا، علينا بالأحرى أن نساهم بصدق، وسنفعله، في مهمة تحويل كل الأهواء الإنسانية التي تعاني إلى أفراح متقدة.

38. الندم.

الندم حماقة مثل حماقة عض الكلب للحجر.

39. أصل القوانين.

تعود القوانين إلى تقليد (tradition)، والتقليد إلى ميثاق قديم. لقد شعر الناس بالرضى لبعض الوقت من نتائج ذلك الميثاق وظلوا بقية الوقت خاملين فلم يجددوا شكله. وهكذا عاشوا وكأن الميثاق يتغير باستمرار، وكلما نشر النسيان ضبابه حول أصله صار الناس إلى الإعتقاد بأنه شيء مقدس وثابت يجب على كل جيل أن يستمر في التأسيس عليه. ومنذ ذلك الحين صار التقليد إكراها حتى بعد أن لم تعد فيه تلك الفوائد التي من أجلها تم وضع الميثاق في البداية. ـ وقد وجد فيه الضعفاء، على مر العصور، حصنهم المنيع: إنهم يميلون إلى تأبيد الميثاق الذي لا يصلح إلا مرة واحدة، وقد نالوا تلك النعمة.

40. دلالة النسيان في الإحساس الأخلاقي.

التصرفات التي كانت توحي بها مراعاة المنفعة العامة، في المجتمعات البدائية، قد قامت بها أجيال أخرى فيما بعد بسبب دوافع أخرى : بدافع الخوف من الذين يتطلبونها أو بدافع احترامهم، أو بدافع العادة لأنهم كانوا يرون الناس منذ طفولتهم يأتون تلك التصرفات، أو بدافع الإحسان، لأنها كانت تشيع الفرحة في كل مكان والإستحسان على الوجوه، أو بدافع الغرور لأن الناس يطرونها. هذه الأفعال، التي نُسي دافعها الأساسي الذي هو المنفعة، هي التي تسمى فيما بعد أخلاقا : ليس لأن الناس يأتونها بسبب تلك الدوافع الأخرى، بل لأنهم لا يأتونها بدافع المنفعة وهم يعلمون. ـ ما مصدر الحقد على المنفعة الذي يظهر هنا، أين الحد الفاصل بين السلوك الحميد والسلوكات التي دافعها المنفعة ؟ ـ من الواضح أن المجتمع، موطن كل أخلاق وكل ثناء على الفعل الأخلاقي، قد اضطر لخوض صراع طويل وضار ضد المصلحة الشخصية والأنانية الفردية لكي لا تصل في النهاية إلى اعتبار أي دافع آخر أسمى أخلاقيا من المصلحة. وهكذا يتولد الوهم بأن الأخلاق لم تصدر عن المنفعة، والحالة أن مصلحة المجتمع هي التي وجدت في الأصل صعوبة كبيرة في فرض نفسها على كل المصالح الخاصة واكتساب نفوذ أكبر.

41. ورثة الأخلاقية الأغنياء.

هناك في الأخلاق غنى متوارث، إنها ملك النفوس الوديعة، الحليمة، الشفوقة، الرحيمة، التي تلقت من أسلافها طيبة السلوك هذه، ولكنها لم تتلق العقل (الذي هو

مصـدرها). تقتضي متعة هذا الغنى أن يتم منحها وتقاسمها باستمرار، لأنها بذلك تعمل تلقائيا على تقليص الفارق بين الفقراء والأغنياء من حيث الأخلاق، وتفعل ذلك، وهو أروع وأفضل ما فيها، ليس بغرض تحقيق توازن مستقبلي بين الفقراء والأغنياء، بل لفائدة إغناء أو إفراط في الغنى يكونان عامين. يمكننا، مثلما فعلنا هنا، أن نلخص الرأي السائد بخصوص الغنى الأخلاقي المتوارث، ولكن يبدو لي أن الناس يحتفظون بهذا الرأي لأجل مجد الأخلاقية الكبير أكثر منه على شرف الحقيقة. والتجربة، على كل حال، تمنحنا مبدأ علينا أن نعتبره على الأقل تحديدا مهما لها إن لم نعتبره دحضا للأطروحة العامة المعبر عنها أعلاه. تؤكد لنا هذه التجربة أنه إن لم تكن لدى ورثة الأخلاقية الأغنياء الفطرة السليمة الدقيقة ولا ملكة الإختيار الدقيق، ولا ميل قوي لالتزام الحذر، فإنهم قد يبذرونها : باستسلامهم المطلق لميولهم الشفوقة، الرحيمة، المصالحة، والمهدئة، سيجعلون كل من حولهم أكثر إهمالا وجشعا وعاطفية. لهذا السبب من السهل أن يكون أطفال هؤلاء الموزعين للأخلاقية الرفيعة بسخاء (وهو شيء ينبغي قوله، مع الأسف، للتوضيح) واهنين، لطيفين، ودون أية كفاءة.

42. القاضي وظروف التخفيف.

«يجب على المرء أن يكون صادقا حتى مع الشيطان ويؤدي له ديونه» قال جندي هرم رويت له قصة فاوست بتفصيل ممل، «إن مكان فاوست هو الجحيم!» ـ «يا لفظاعتكم أيها الرجال!» صاحت زوجته، «إنه لم يفعل شيئا، خلا أن دواته جف مدادها! الكتابة بالدم إثم ولا شك، ولكن هذا الرجل الوسيم لن يحرق بسبب هذا الشيء القليل ؟»

43. مشكلة الواجب تجاه الحقيقة.

الواجب شعور يُكرهنا، يدفعنا إلى الفعل، ونقول عنه أنه طيب ونعتقده غير قابل للنقاش (وسوف لن نقول أي شيء عن أصل وحد هذا الشعور أو عن تبريره، وكأننا لم نتحدث عنه قط). يرى المفكر أن كل شيء ينتج عن تطور ويرى أن كل نتيجة قابلة للنقاش، فهو إذن رجل بلا واجب، ـ مادام مفكرا لا غير. وبما هو كذلك فلن يعترف أبدا بواجب العثور على الحقيقة وقولها؛ لن يخامره هذا الشعور، فهو يتساءل : ما مصدره ؟ إلى أي شيء يؤدي ؟ ويبدو له أن هذه الأسئلة نفسها يجب أن تكون موضع سؤال. ولكن ألن تكون عاقبة ذلك هي أن آلة المفكر سوف تسوء حالها منذ اللحظة التي سيشعر فيها حقا أنه متحلل من كل واجب حتى في فعل اكتساب المعرفة نفسه ؟ وهكذا يبدو أن العنصر الضروري للتسخين هو نفسه الذي يتعلق الأمر بدراسته بواسطة

الآلة. ــ وربما تكون الصيغة هي: إذا افترضنا أن هناك واجبا هو معرفة الحقيقة، فأية حقيقة ستكون تلك المتعلقة بأشكال الواجب الأخرى كلها ؟ ــ ولكن ألن يكون الشعور الافتراضي بالواجب عبثا ؟

44. درجات الأخلاق.

الأخلاق هي قبل كل شيء وسيلة للحفاظ على وحدة المجتمع ومنعه من التفكك، ثم هي بعد ذلك وسيلة للحفاظ على المجتمع في مستوى وجودة معينين. تكون دوافعها هي الخشية والأمل، وهما من الشدة والقوة والفظاظة بمكان بحيث أن الميل إلى الموقف المعاكس والمحدود والشخصي قوي جدا هو أيضا. ويجب أن تستخدم هنا وسائل التخويف الرهيبة ما دامت الوسائل الأخرى، اللطيفة، لا تريد أن تفعل، ومادمنا لن نتمكن من الحصول بغير ذلك على الحفاظ المزدوج (وإحدى أقوى الوسائل هي ابتكار عالم ماورائي فيه جحيم أزلي). هناك بعض درجات الأخلاق الأخرى، يعني وسائل أخرى تؤدي إلى نفس الغاية، هي أوامر إله ما (كالشريعة الموسوية)، وهناك درجات أخرى أسمى، هي أوامر مفهوم مطلق للواجب، بأمره «يجب عليك»، ــ وهناك درجات هيئت بغلظة أكثر من كل هذه، ولكنها رحبة، مادام الناس لا يعرفون بعد كيف يضعون القدم على الدرجات الرقيقة الضيقة. ثم هناك أخلاق الانحناء، أخلاق الذوق، وأخيرا أخلاق الذكاء الصافي، ــ التي تجاوزت كل الدوافع الوهمية للأخلاق ولكنها تنبهت بوضوح إلى أن الإنسانية لن تستطيع أن تتخذ لها أخلاقا أخرى قبل وقت طويل.

45. أخلاق الشفقة التي يشربها المتطرفون.

كل أولئك الذين ليست لهم سلطة كبيرة على أنفسهم ولا يعرفون الأخلاقية كتحكم في النفس وسيطرة عليها باستمرار، في الأمور العظيمة والتافهة، يجعلون من أنفسهم من غير تعمد مرتلين للاقتراحات الطيبةو الشفوقة، والمتسامحة التي في هذه الأخلاقية الغريزية التي تبدو وكأن لها فقط قلب وأياد مسعفة، وليست لها رأس. بل إن مصلحتهم أن يثيروا الريبة حول أخلاقية العقل ويجعلوا من الأخرى الوحيدة التي لها قيمة.

46. بواليع الروح.

لا بد أن تكون للروح كذلك بواليع محددة تفرغ فيها قاذوراتها، وهذا ما يصلح له الناس، الأوضاع، الظروف أو الوطن أو العالم، أو في الأخير، بالنسبة للمتكبرين (أقصد «المتشائمين» المحدثين)، الرب.

47. نوع من الهدوء والتأمل.

احذر أن يشبه هدوؤك وتأملك هدوء الكلب أمام وضم الجزار، يمنعه الخوف من التقدم والرغبة من التراجع، ويفتح عينين واسعتين كما لو كانتا فمين.

48. منع دون حجة.

المنع الذي لا نفهم حجته أولا نقبلها يكاد يكون أمرا، ليس فقط للرجل العنيد، بل كذلك للمتلهف للمعرفة : وسيحاولان خوض التجربة ليعرفا سبب كون المنع أمرا. الموانع الأخلاقية، كموانع الوصايا العشر، لا تناسب إلا العصور التي يكون فيها العقل مستعبدا، أما اليوم فإن منعا مثل «لا تقتل» أو «لاتزن»، إن لم يستندا على حجة، فإن ضررهما سيكون أكثر من نفعهما.

49. وصف.

من أي صنف الرجال ذلك الذي قد يقول عن نفسه :«إنني أحتقر بسهولة، ولكنني لا أحقد. في كل إنسان أكتشف شيئا يدعو للاحترام فأحترمه، أما الخاصيات التي يقال أنها محبوبة فقليلا ما تثيرني» ؟

50. الشفقة والإحتقار.

إننا نشعر بإظهار الغير الشفقة علينا كعلامة على احتقاره لنا، لأن الذي يشفق علينا يكون قد كف، منذ تلك اللحظة، عن خشيتنا. لقد نزلنا إلى ما دون مستوى التوازن الذي لم يعد يكفي غرور الإنسان، وحدهما الاستعلاء والخشية اللذان نوحي بهما يجعلان الروح تشعر بأكثر الأحاسيس المرغوبة. وإنها لمشكلة أن نعرف كيف فرض احترام الشفقة نفسه، كما أنه ينبغي تفسير سبب كون الغيرية اليوم تحظى بالثناء: لأنها في الأصل محتقرة أو مهابة باعتبارها شيئا خادعا.

51. معرفة التصاغر.

يجب أن نكون أقرب إلى الأزهار والأعشاب والفراشات من الطفل الذي لا يجاوز طولها كثيرا، أما نحن الكبار فقد جاوزناها ويجب علينا أن ننحني لنصلها. أظن أن الأعشاب تبغضنا حين نعبر عن حبنا لها. ــ على الذي يريد المساهمة في كل شيء جميل أن يعرف كيف يتصاغر في أوقات معينة.

52. محتوى الوعي.

محتوى وعينا هو كل ما تَطلَّبه منا بشكل منتظم وبلا حجة، أثناء طفولتنا، أشخاص كنا نحترمهم أو نهابهم. إذن انطلاقا من الوعي تتم استثارة الشعور بالواجب (« علي فعل هذا وترك ذاك ») الذي لا يسأل : لماذا يجب علي ؟ ــ في كل الحالات التي يقوم فيها الإنسان بشيء تصاحبه «لأن» و «لماذا» فإنه يتصرف بلا وعي، وهو ما لا يعني أنه يتصرف ضد وعيه. ــ الإيمان بالأوامر هو مصدر الوعي، فالوعي ليس إذن صوت الإله في قلب الإنسان، بل صوت بعض الناس في الإنسان.

53. الانتصار على الأهواء.

الذي ينتصر على أهوائه يحوز ملكية أخصب الأراضي، مثل المستعمر الذي استحوذ على الغابات والمستنقعات، وحينها تصير مهمته المباشرة والمستعجلة هي زرع بذرة حسنات الفكر على أرض الأهواء المهزومة. الإنتصار في حد ذاته ليس إلا وسيلة لا غاية، وإن لم ينظر إليها من هذا المنظور فإن مختلف أنواع الأعشاب الضارة والنباتات الشيطانية سرعان ما ستنمو على هذه الأرض الخصبة المهجورة، وقريبا تنتشر فيها الحماقات بشهوانية أكثر من أي وقت مضى.

54. موهبة الخدمة.

كل الرجال الذين نقول عنهم عمليون تكون لهم موهبة خدمة الآخرين : وهذا بالضبط هو ما يجعلهم عمليين بالنسبة للغير وبالنسبة لأنفسهم، لقد كان لروبنسن خادم أفضل من Vendredi، إنه كروزوي.

55. خطر اللغة على حرية الفكر.

كل كلمة هي حكم مسبق.

56. الفكر والضجر.

«المجري أبلد من أن يضجر »، هذا المثل يدعو للتفكير. وحدها الحيوانات الدقيقة والنشطة قادرة على الضجر. ــ وقد يكون ضجر الرب في اليوم السابع من الخلق فكرة جيدة بالنسبة لشاعر كبير.

57. العلاقة مع الحيوانات.

يمكننا أن نلاحظ نشأة الأخلاق من خلال علاقتنا مع الحيوانات. حين لا تكون هناك منفعة أو ضرر فإننا نشعر باللامسؤولية المطلقة، فنقتل ونجرح الحشرات مثلا أو

نتركها تعيش دون أن نفكر في ذلك إطلاقا. إننا بلداء جدا لدرجة أن رقتنا مع الأزهار والحيوانات الصغيرة تكاد تكون دائما قاتلة : وهو شيء لا يعكر أبدا تلك المتعة التي نجدها فيها. ـ اليوم عيد الحشرات، اليوم الأكثر حرارة من أيام السنة، الحشرات كثيرة وتتحرك حولنا، ودون أن نريد ذلك، وكذلك دون أن نحترس من فعله، تارة هنا وتارة هناك نسحق دويدة أو جعلا خمليا. ـ إذا كانت الحيوانات مضرة فإننا نسعى جاهدين إلى القضاء عليها بكل الطرق، وغالبا ما تكون الوسائل وحشية دون أن نريد ذلك حقا : إنها وحشية الحركة الآلية. وإذا كانت نافعة نستغلها إلى أن نتعلم من خلال تمييز دقيق أن مردودية بعض الحيوانات ستكون أجود لو عاملناها بطريقة أخرى، أي لو اعتنينا بها وربيناها، آنذاك فقط تظهر المسؤولية، نتفادى تعذيب الحيوان الداجن، وهناك من يشعر بالإهانة حين يقسو أحد على بقرته، منسجما في ذلك مع الأخلاق البدائية للجماعة التي ترى المصلحة العامة مهددة بمجرد ما ينتهكها أحد الأفراد. الذي يرى انتهاكا داخل الجماعة يخشى أن يلحقه منه ضرر غير مباشر، ونخشى على جودة اللحم أو الزراعة أو وسائل المواصلات حين نرى الحيوانات الأليفة تساء معاملتها. وفضلا عن ذلك، فالذي يكون قاسيا مع الحيوانات يثير الريبة بأنه قد يكون كذلك مع الناس الضعفاء، غير المتساوين، والعاجزين عن الإنتقام، إنه يعتبر نذلا مجردا من الأنفة النبيلة. وهكذا يتولد مخطط (amorce) أحكام وأحاسيس أخلاقية تكمله الخرافة فيما بعد بأفضل ما لديها. كثير من الحيوانات تحث الإنسان، من خلال نظراتها وأصواتها وحركاتها، على أن يتخيل نفسه داخلها، وكثير من الديانات تعلم الناس أن يروا في الحيوان، في بعض الحالات، مقر روح الناس والآلهة، لذلك تأمرهم على العموم بمراعاتها بنبل، بل بخشيتها خشية احترامية. وحتى بعد اندثار هذه الخرافة تستمر الأحاسيس التي أثارتها فاعلة، تنضج وتزهر. ـ وقد ظهرت المسيحية، كما نعلم، فقيرة ومتخلفة في هذا الشأن.

58. الممثلون الجدد.

ليس هناك بين الناس تفاهة أكبر من الموت، وتأتي بعده الولادة، إذ ليس كل الذين يموتون يولدون، ثم يأتي بعد ذلك الزواج. غير أن هذه المآسي الهزلية الصغيرة التي بليت من فرط تمثيلها يتم تمثيلها وإعادة تمثيلها، في كل عرض من عروضها التي لا تحصى، من طرف ممثلين جدد، وبهذا يكون لها دائما متفرجون مهتمون، والحالة أننا قد نظن أن متفرجي المسرح الأرضي قد علقوا أنفسهم في كل الأشجار من شدة التقزز. كبيرة هي أهمية الممثلين الجدد، وكبيرة هي تفاهة المسرحية.

59. ما هو «العنيد» ؟

ليس الطريق المستقيم هو الطريق الأقصر، بل الطريق التي تهب فيها الرياح المواتية لأشرعتنا : هذا ما تقوله نظرية الملاحة. ومن لم يتبعها فهو عنيد : وهكذا تفسد الحماقة الطبع الحازم.

60. كلمة «غرور».

من المحزن أن تكون بعض الكلمات التي لا نستطيع، نحن الأخلاقيون، الإستغناء عنها بتاتا، تحمل نوعا من الرقابة الأخلاقية منذ العصور التي اعتبرت فيها اقتراحات الإنسان العادية والطبيعية هرطقة. اليقين الأساسي بأن سفينتنا تمضي سالمة في بحار المجتمع أو أنها ستغرق بسبب كوننا نمثل أكثر منه بسبب كوننا كائنين (وهو اليقين الذي ينبغي أن يكون دفتنا في كل سلوك له علاقة بالمجتمع) موسوم الآن بالمصطلح العالمي «غرور»، vanitas*، وهو ما يعني وسم شيء مملوء وغني من حيث المضمون بعبارة تصوره كشيء فارغ وتافه، وسم شيء كبير باسم صغير، بل بملامح كاريكاتورية. لا شيء يجدي مع هذا، علينا أن نستعمل هذه الكلمات ونصم آذاننا عن إيحاءات العادة القديمة.

61. القدرية التركية.

في القدرية التركية عيب كبير جعل الإنسان مقابلا للقدر كشيئين منفصلين : تقول إن الإنسان يستطيع مقاومة القدر ومحاولة إدارته، ولكن القدر هو الذي ينتصر دائما في نهاية المطاف، لذلك من الحكمة أن يستسلم المرء أو يعيش كما يحلو له. في الحقيقة، كل إنسان هو نفسه جزء من القدر، وحين يظن أنه يقاومه بالطريقة السالفة الذكر فإن القدر يتحقق بذلك أيضا. والمقاومة، وكذلك الاستسلام للقدر، وهذه الأوهام كلها يشملها القدر. إن خوف أغلب الناس من عقيدة إرادة القنانة (serf arbitre) هو خوف من القدرية : يتصورن أن الإنسان سينتظر المستقبل باستسلام العاجز مكتوف اليدين لأنه عاجز عن تغييره، أو أنه سيسلم القياد كلية لمزاجه النزوي لأن هذا المزاج ذاته لن يستطيع أن يزيد ما قد أعلن من قبل سوءاً. حماقات الانسان، مثل حذره، هي أيضا جزء من القدر: وهذا الخوف من الإيمان بالقدر هو أيضا قدر. أنت نفسك، أيها القلق، هو ربة القدر القاسية التي تتصدر الآلهة في كل ما سيحدث، أنت الرحمة واللعنة، وعلى كل حال أنت هي القيود التي يرسف فيها الأقوى، إن مستقبل العالم الإنساني محدد فيك مسبقا، ولن يجديك الخوف من نفسك.

62. محامي الشيطان.

« وحدتها تعاستنا تصيرنا حكماء، وحدها تعاسة الغير تصيرنا طيبين »، تقول تلك الفلسفة الغريبة التي تحول أخلاقية الشفقة وعقلانية عزلة الإنسان عن مجراهما، وبذلك تكون، دون أن تدري، هي المدافع عن كل الشرور الأرضية، لأن الشفقة تحتاج للمعاناة، والعزلة لازدراء الغير.

63. الطباع الأخلاقية.

في العصور التي تعتبر فيها سمات الأوضاع الإجتماعية محددة بشكل نهائي، مثل هذه الأوضاع نفسها، سيجد الأخلاقيون أنفسهم مستدرجين إلى اعتبار الطباع الأخلاقية مطلقة وإبرازها على أنها كذلك. وهكذا يمكننا فهم موليير على أنه معاصر لمجتمع لويس الرابع عشر، أما في مجتمعنا الذي هو مجتمع التحولات والدرجات المتوسطة فسيبدو متحذلقا بارعا.

64. المزية الأكثر تميزا.

في المرحلة الأولى من عمر الإنسانية الراقية تكون المزية الأكثر تميزا هي الشجاعة، في المرحلة الثانية تكون هي العدل، في الثالثة الاعتدال، وفي الرابعة الحكمة. ففي أية مرحلة نحن ؟ وفي أية مرحلة أنت ؟

65. ما يجب أولا.

الذي لا يريد التحكم في نزقه، في غيظه الحقود والانتقامي، في شهوته الحسية، ويسعى لأن يملك ناصية أشياء أخرى يكون بليدا مثل المزارع الذي يقيم حقله بجانب سيل دون أن يحميه منه.

66. ما معنى الحقيقة ؟

شوارزرت (Melanchton) :« يبشر المرء بعقيدته الدينية بالضبط حين يكون قد فقدها وصار يبحث عنها في الأزقة، ــ وحينها يجيد التبشير بها!» ــ لوثر: « إنك تقول الحق اليوم مثل ملاك، يا أخي!» ــ شوارزرت :« ولكنها فكرة أعدائك، وهم يعنونك بها.» ــ لوثر :«إذن فهي كذبة خرجت من أست الشيطان.»

67. عادة الأضداد.

الملاحظة السوقية وغير الدقيقة ترى الأضداد في كل مكان من الطبيعة (مثل «ساخن وبارد»)، والحالة أنه لا يوجد أضداد وإنما درجات في الاختلاف فقط. وقد

أدت بنا هذه العادة السيئة الى إرادة فهم الطبيعة الداخلية والعالم الأخلاقي والروحي وتحليلهما تبعا لهذه الأضداد. إننا لا ندري مقدار الميل إلى الألم، مقدار الغطرسة والقسوة والبرودة الجافية، الذي دخل في الحساسية الانسانية، من اعتقاد الناس أنهم يرون أضدادا بدل التحولات.

68. هل يمكن أن نصفح ؟

كيف يمكننا أن نصفح عنهم ان كانوا لا يدركون ما يفعلون ! ليس هناك ما نصفح عنه البتة. وهل يدرك المرء أبدا تمام الادراك ما يفعله ؟ واذا ما ظل هذا دوما موضع شك على الاقل فانه لا يكون هناك بالتالي ما يستوجب صفح الناس عن بعضهم البعض، وسيكون العفو شيئا مستحيلا بالنسبة للعاقل. وأخيرا، لو أدرك المجرمون حقا ما فعلوه فانه لن يكون لنا حق الصفح الا اذا كان لنا حق التجريم والعقاب، ولكننا لا نملك هذا الحق.

69. حياء اعتيادي.

لماذا نشعر بالحياء حين يحسن الناس الينا أو حين يميزنا امتياز ما ونقول «إننا لا نستحق ذلك» ؟ يبدو لنا حينها أننا قد ولجنا ميدانا لا موضع لنا فيه، ميدانا يجب أن نستبعد منه، وكأننا في معبد أو في قدس الاقداس الذي يحرم على أقدامنا أن تطأه. بسبب خطأ شخص آخر ولجناه، وها قد تملكنا شيء من الخوف، شيء من الاحترام، وشيء من المفاجأة، دون آن ندري ان كان علينا ان نفر أو نستمتع بهذه اللحظة المباركة، بمزايا فضلها.هناك في كل حياء لغز يبدو اننا دنسناه او هو مهدد بالتدنيس، كل عفو يولد الحياء. ـ واذا ما اعتبر المرء أنه لم «يستحق» شيئا أبدا، واذا تبنى وجهة النظر هذه داخل مجموع التصور المسيحي للأشياء، فان الشعور بالحياء يصير مألوفا لديه، ويبدو له فعلا ان الرب يبارك ويعفو باستمرار. وبعيدا عن هذا التفسير المسيحي ستكون حالة الحياء المألوف هذه ممكنة كذلك بالنسبة لحكيم ملحد يتبنى اللامسؤولية والاعتباط الاساسيان في كل الافعال ولدى كل الافراد : اذا ما عامله الناس كما لو انه قد استحق هذا الشيء أو ذاك فانه سيتكون لديه انطباع بولوجه طبقة راقية من الاشخاص الذين لهم استحقاقات فعلا، والذين هم أحرار وقادرون على التحمل الفعلي لمسؤولية إرادتهم ونشاطهم. ومن يقول له : «لقد استحقيت ذلك» يبدو انه يطمئنه بقوله: «لست إنسانا، بل الها.»

70 . المربى الأرعن.

هذا شخص نشأت كل فضائله الحقيقية في روح المعارضة ، وذاك غيره نشأت فضائله في عدم قدرته على الرفض، اي في روح القبول لديه، وهذا ثالث استخرج كل فضائله من أنفته المتوحدة، ورابع أخرجها من غريزة الالفة القوية لديه. لنفترض الآن ان المربين والصدف الذين تجمعهم صفة الرعونة لم يغرسوا بذور هذه الفضائل في طباع هؤلاء الأشخاص الغنية والخصبة فانهم سيكونون اشخاصا بلا أخلاقية، عاجزين ومحزنين. واي من مربي هؤلاء الاربعة ومن قدرهم الماكر كان أشد رعونة ؟ إنه الأخلاقي المتطرف الذي يعتقد أن الخير لا ينتج الا عن الخير ولا ينمو الا منه.

71 . أسلوب الحذر.

أ : ولكن، لو عرف كل الناس هذا فانه سيكون ضارا بالنسبة لأغلبهم. تقول أن هذه الآراء خطر على العقول التي في خطر، ورغم ذلك تعلنها للعموم ؟

ب : أكتب بشكل لن يجعل الدهماء ولا الناس ولا الأحزاب من كل صنف ترغب في قراءتي. وبالتالي لن تصبح هذه الآراء شعبية أبدا.

– أ : ولكن كيف تكتب إذن ؟ – ب : إن كتابتي لن تفيد هؤلاء الثلاثة ولن تسرهم.

72. مرسلون الهيون.

يشعر سقراط هو أيضا انه مكلف برسالة إلهية، الا أني أرى ظلا من سخرية أثينية ومن ميل الى الدعابة ينكشف، هنا أيضا، مخففا من هذه الفكرة القدرية والدعية. انه يتحدث عن ذلك بلا عذوبة، وصوره، التي هي المكبح والفرس الاصيلة، بسيطة، وليست كهنوتية إطلاقا، والرسالة الدينية التي يشعر أنه مكلف بها، و التي هي مساءلة إلهه بشتى الطرق ليرى إن كان قد قال حقا، تمكنه من الخلوص الى موقف حر جسور يرفع المرسل الى مقام الهه. هذا الاختبار الذي يخضع له الاله هو واحد من أدق صكوك التراضي التي تم تخيلها بين الدين وحرية الفكر على الاطلاق.– أما اليوم فاننا لم نعد في حاجة الى هذا الصك .

73 . صدق فنان.

لم يقم رفائيل، الذي كان شديد التعلق بالكنيسة (لانها كانت موسرة)، ولكنه لم يكن يتعلق، مثل النخبة آنذاك، إلا قليلا بموضوعات الايمان الديني، لم يقم بأية خطوة

في اتجاه التقوى اللدنية الخاصة بكثير من أولئك الذين كان يتلقى منهم الأوامر، لقد حافظ على صدقه حتى في تلك اللوحة الخارقة التي كانت في الاصل مخصصة لتكون بيرق زياح* ، اعني صورة العذراء (la Madone sixtine). لقد أراد هنا، لمرة واحدة، ان يرسم رؤيا، ولكنها احدى الرؤى التي قد تخطر كذلك لشرفاء شباب بلا «دين» أو قد يرونها، صامتة وجميلة جدا، تحمل اول مولود لها بين ذراعيها. يبدو ان رفائيل يقول لنا : فليبجل أجدادنا، الذين اعتادوا الصلاة والتعبد، ليبجلوا في هذه الصورة، مثل ذلك الشيخ الوقور الذي على اليسار، شيئا فو انسانيا، اما نحن الشباب فننحاز الى جانب الفتاة الجميلة التي على اليمين التي تقول، من خلال نظرتها المثيرة والخالية من أي ورع، لمن يرى هذا المشهد : «أليس صحيحا أن هذه الأم وابنها يشكلان لوحة ممتعة وجذابة ؟» ويلقي هذا الوجه وهذه النظرة شعاعا من الفرحة على وجوه المشاهدين، وبهذا يستمتع بنفسه الفنان الاصيل الذي أبدع كل هذا ويضيف فرحته الى تلك التي يتلقاها المشاهدون من الفن. ـ أما فيما يخص عبارة «المسيح المخلص» المتجلية في راس طفل فان رفائيل الصادق، الذي لم يكن ينوي رسم حالة نفسية لا يؤمن بوجودها، قد خدع بطريقته الجميلة معجبيه المؤمنين، لقد رسم هذا التصور الطبيعي الذي ليس نادرا، عين رجل في رأس طفل، بل وعين رجل شجاع يهب للمساعدة وقد أبصر إنسانا في شدة. هذا الوجه يتطلب لحية، وان غيابها وقراءة عمرين مختلفين على نفس الوجه الواحد هي المفارقة الممتعة التي فسرها المؤمنون من منطلق إيمانهم بالمعجزة، تماما مثلما كان الفنان ينتظره منهم، بمهارتهم في التأويل والتحريف.

74. الصلاة.

لا يكون لأي صلاة ـ هذه العادة القديمة التي لم تنقرض بعد تماما ـ اي معنى الا بشرطين : لابد ان يكون ممكنا حمل المعبود على تغيير نيته، ولابد للمصلي أن يعرف معرفة جيدة ماهو في حاجة اليه، ما يرغب فيه فعلا. وهذين الشرطين، التقليديين المقبولين في كل الديانات الاخرى، قد أنكرتهما المسيحية، وان حافظت على الصلاة مع ذلك، رغم ايمانها بكون عقل الرب كله حكمة وفطنة، وهو ما يجعل هذه الصلاة غير ذات معنى في الواقع، بل تجديفية، فلتبين عن حيلة الحية المدهشة لديها، لان الامر الواضح «لا تصل» قد يؤدي بالمسيحيين، بسبب الضجر، الى جحود المسيحية. في الدعاء والعمل المسيحيين يشغل الدعاء مكان اللذة، وبدونه ماذا كان سيفعل أولئك التعساء الذين يحرمون على أنفسهم العمل، أعني القديسين ! – وقد اعتبروا محاورة الله، سؤاله كل الأشياء الممتعة، سخرية المرء من حمقه المتجلي في أن له رغبات رغم أن له أبا طيبا، قد اعتبروا هذا اكتشافا ممتازا.

75 . كذبة مقدسة .

الكذبة التي نطقت بها آريا - Arria -* المحتضرة (إني لا أتألم) تلقي ظلا على كل الحقائق التي نطق بها المحتضرون. وهي الكذبة المقدسة الوحيدة التي صارت مشهورة، بما أن صيت القداسة لا يرتبط عادة إلا مع الاخطاء.

76 . الحواري الأكثر ضرورة .

لا بد أن يكون دائما من بين الإثنا عشر حواري واحد صلب كالصخر ليبنى عليه صرح الكنيسة.

77 . أيهما أسرع زوالا، الشكل أم الجوهر؟

في المسائل القانونية والأخلاقية والدينية يكون الجانب الخارجي، الملموس، أي الإستعمال، السلوك، الطقس (Cérémonie)، أدوم : كل هذا يشكل الشكل الذي تنضاف إليه دائما روح جديدة. لاتنفك العبادة يعاد تأويليها، مثل نص حرفيته حقيقية، الأفكار والأحاسيس هما عنصرها السائل، و العادات هي الجزء الصلب.

78 . مرض الايمان بالمرض.

المسيحية هي أول من قدم للعالم رسما لصورة الشيطان، وهي أول من أدخل الخطيئة في عالم الناس. وشيئا فشيئا تَزعزع حتى أعمق جذوره الايمان بالعلاجات التي كانت تقدمها ضد الخطيئة : وما يستمر الآن هو الايمان بالمرض الذي تعلمه هذه المسيحية وتنشره.

79. كلمات وكتابات القساوسة.

إن لم يكشف أسلوب الكاهن وتعبيره العام، حديثا وكتابة، عن الانسان المتدين فيه فانه لن يكون على الناس ان يأخذوا آراءه في الدين، أو المؤيدة له، مأخذ الجد. انها لن تكون مؤيدة بقوة لمضمونها ذاته اذا كان الكاهن، مثلما يشي بذلك أسلوبه، ساخرا، مدعيا، ماكرا، حاقدا، وتعرف حالته النفسية اضطرابات وتغيرات تماما مثل غير المتدينين، - وما أقل القوة التي ستبقى فيها لتقنع المستمعين والقراء ! باختصار، انه سيصلح ليزيد قلة تدين هؤلاء.

80. الخطر في الشخص

كلما ازدادت قيمة الرب بصفته ربا، كلما أخلص له الناس أقل، باعتباره شخصا. يتعلق الناس بالصور التي يشكلها فكرهم أكثر مما يتعلقون بأعز من يحبون: لذلك

يضحون بأنفسهم من أجل الدولة او الكنيسة أو الرب، ما دام ذلك من ابتكارهم، مادام فكرتهم، ولا اعتبار له كشخص. لانهم يتناقشون معه تقريبا دائما في حالة كونه شخصا، وحتى أتقاهم جميعا قد أفلتت منه هذه الكلمة المرة التي نعرفها: «إلهي، لم تخليت عني ؟»

81. العدالة غير الدينية.

من الممكن تقويض العدالة غير الدينية من خلال عقيدة لامسؤولية الناس التامة وبراءتهم، وقد كانت هناك محاولة في هذا الاتجاه بالارتكاز بالضبط على العقيدة المضادة، عقيدة مسؤولية الانسان التامة وإثمه. منشيء المسيحية هو الذي أراد إلغاء العدالة غير الدينية وإلغاء المحاكمة والعقاب، لأنه كان يفهم كل خطأ على أنه «إثم»، اي جريمة في حق الرب وليس في حق الناس، وكان، من جهة اخرى، يعتبر أيا كان آثما، في أعلى درجات الاثم وبكل الاعتبارات تقريبا. غير ان عدالته تعلن بانه لا ينبغي للمذنبين أن يحاكموا أمثالهم. لقد كان يرى كل قضاة العدالة الدنيوية مذنبين مثل أولئك الذين يحاكمونهم، وكانت براءتهم تبدو له منافقة وفريسية * وقد كان، فضلا عن ذلك، ينظر الى دافع الفعل لا الى النجاح، اما بشأن تقدير الدوافع فقد كان يرى ان هناك شخصا واحدا ثابت النظر، هو نفسه (او الرب، كما كان يقول).

82 . تصنع في الوداع.

يتصور الذي يريد الانفصال عن حزب او ديانة ما انه يتحتم عليه دحضهما. وهذه فكرة تنم عن الغطرسة. الشيء الوحيد الذي يتحتم عليه هو ان يرى بوضوح الروابط التي كانت تشده الى ذلك الحزب او الدين حتى ذلك الحين ثم آنفصمت الآن، ان يرى النوايا التي دفعته اليهما والتي تدفعه الآن في اتجاه آخر. إن انضمامنا لهذا الحزب وهذه الديانة لم يتم لأسباب معرفية محضة : ولا يجب، حين ننفصل عنهما، ان نتصنع هذا.

83 . المخلّص والطبيب.

من المسلم به ان منشيء المسيحية لم يكن، بوصفه عارفا بالنفس الانسانية، سالما من الثغرات والاحكام المسبقة الكبيرة، وبصفته طبيبا فانه قد وقع في الايمان الحقير والدنيوي بطب شامل. انه يشبه أحيانا في طريقته طبيب الاسنان الذي يزعم انه يشفي كل الآلام بقلعه للضرس، وهكذا يحارب الحسوية بهذه النصيحة : «اذا جرتك عينك نحو الشر فاقلعها». - الفارق الذي بينهما هو كون طبيب الاسنان يحقق هدفه في

القضاء على آلام المريض بهذه الطريقة السمحة بحيث يصير ضحكة، اما المسيحي الذي يعمل بهذه النصيحة ويظن انه قد تخلص من حسويته فانه يخدع نفسه : انها تظل حية، مثل مصاص دماء، وتظل تعذبه متقنعة بأقنعة بشعة.

84 . السجناء.

دخل السجناء ذات صباح الى الساحة التي يعملون فيها فلم يجدوا الحارس هناك. اما بعضهم فقد شرعوا في العمل، لانهم طبعوا على ذلك، واما الآخرون، وقد صاروا عاطلين، فقد القوا حولهم نظرات تحد. آنذاك تقدم واحد منهم وقال بصوت مرتفع : «اعملوا قدر ما شئتم او لا تفعلوا شيئا، فالأمر سيان. لقد انكشفت مؤامرتكم، لقد ترصدكم السجان هذه الايام الاخيرة وسوف يحاكمكم في الايام القادمة محاكمة مرعبة. انكم تعرفونه، انه قاس وحقود. الآن تنبهوا جيدا : انكم لم تعرفوني حتى الان، اني لست من أبدوا لكم، ولكن أكثر : أنا ابن السجان، وهو يقيم لي اعتبارا لا حد له. استطيع أن أنقذكم، اريد ان انقذكم، ولكن، واعلموا هذا جيدا، فقط أولئك الذين يؤمنون بأنني ابن السجان، اما الآخرون فليجنوا ثمار عدم ايمانهم». ـ « طيب، قال بعد صمت احد القدماء، ولكن ماذا سيجديك ان نؤمن بك أو لا نؤمن ؟ ان كنت ابنه فعلا وان كنت قادرا على ما تقوله التمس لنا الرحمة، سيكون ذلك احسانا منك. أما مسألة الايمان او عدمه هذه فدعها جانبا !» ـ «وانا ايضا لا أصدقه، قال سجين شاب : لقد راودته فكرة ما، هذا كل ما في الامر. أراهن اننا سنلتقي هنا في غضون ثمانية ايام مثلما نحن مجتمعون اليوم، وان السجان لا يعرف شيئا» ـ «وحتى ان كان يعرف شيئا فانه لم يعد يعرفه» قال سجين آخر حل لتوه بالساحة، «لقد مات السجان فجأة». ـ ياابن الرب، صاح الكثير منهم وقد اختلط حابلهم بنابلهم، يا ابن الرب، وماذا عن الارث ؟ أنكون الآن سجناءك أنت ؟ ـ «لقد قلت لكم عن ذلك، رد عليهم برقة، ساخلص كل من يؤمن بي، وهذا صحيح مثلما هو أبي حي.» ـ لم يضحك السجناء ولكن هزوا اكتافهم ثم انصرفوا وتركوه.

85. مُضطهِد الرب.

القديس بولس هو الذي اكمل الفكرة التي رددها كالفن والقائلة بان عذاب جهنّم معد منذ الأزل لعدد لا يحصى من الناس وان هذا النظام الكوني قد تم ترتيبه بهذا الشكل لتتجلى فيه عظمة الرب. اذن فالجنة والجحيم والانسانية قد خلقت لترضي... غرور الرب ! اي غرور وحشي وشره هذا الذي سيحرق روح الانسان الذي كان هو الاول او الثاني في تخيل هذه الاشياء ! ـ وقد ظل القديس بولس هو شاول* ـ مضطهد الرب.

86. سقراط.

إذا سارت الامور على احسن ما يرام فانه سيأتي الوقت الذي سيفضل فيه الناس، لكي يبلغوا الاتقان في الاخلاق والفكر، اللجوء الى مأثورات سقراط عوض الانجيل، وسيستخدمون مونطيني وهوراس دليلين (guides) يريانهم السبيل المؤدية الى فهم الحكيم والوسيط البسيط والخالد من بين كل الآخرين، سقراط. اليه تقود مختلف سبل انماط الحياة الفلسفية التي هي في الواقع أنماط حياة طباع متعددة حددها العقل والعادة، وكلها منعطفة نحو ملذات الحياة ونحو تحقيق الكينونة، ومن ثمة يمكن ان نستنتج أن السمة الأصلية لسقراط هي اشتراكه في كل الطباع. ـ انه يمتاز على منشيء المسيحية بتلك الابتسامة التي تفرق بين رصانته وبين تلك الحكمة المفعمة خبثا، تلك الابتسامة التي تترك الانسان في أفضل حال نفسية، كما يتفوق عليه، علاوة على ذلك، بالذكاء.

87. تعلم اجادة الكتابة.

لقد ولى عصر اجادة الحديث، لان عصر الحضارات الحضرية قد مضى. الحد الاقصى الذي سمح به ارسطو للحاضرة الكبيرة ـ على نذير الحرب ان يكون قادرا على اسماع الجماعة مجتمعة ـ لا يهمنا كثيرا، مثلما لا تهمنا الجماعات الحضرية، نحن الذين نريد ان نفهم من طرف الأمم الأخرى . لهذا يجب على كل انسان تحركه مشاعر أوربية طيبة ان يتعلم الان كيف يكتب جيدا ودائما أفضل : لابد من المرور بهذه المرحلة، حتى وان كان المرء قد ولد في المانيا حيث تعتبر رداءة الكتابة مزية قومية. واجادة الكتابة تعني اجادة التفكير، العثور على شيء يستحق إطلاع الناس عليه ومعرفة إبلاغه لهم، تعني قابلية كتابتنا لأن تترجم الى لغات الدول المجاورة، ان تكون في متناول الاجانب الذين يتعلمون لغتنا، العمل على ان يصير كل ملك ملكا جماعيا، ان يكون كل شيء تحت تصرف الرجال الاحرار، واخيرا تهييء الظروف، وان كان هذا لا يزال بعيدا جدا، التي سيتلقى فيها الاوربيون الصالحون، وقد اكتمل نضجهم، رسالتهم الكبرى التي هي قيادة الحضارة الأرضية كلها وحراستها. ـ والذي يمجد العكس، أي عدم الانشغال بإجادة القراءة والكتابة ـ هاتين المزيتين تنموان او تضعفان معا ـ يري في الواقع الشعوب طريقا لتتمكن من أن تكون قومية أكثر : انه يزيد مرض هذا القرن استفحالا ويجعل من نفسه عدو الاوربيين الصالحين وعدو المفكرين الأحرار.

88. قاعدة أفضل أسلوب.

قد تكون قاعدة الأسلوب أولا هي العثور على العبارة التي بفضلها ينقل الكاتب أية حالة نفسية الى القارىء أو المستمع، ثم العثور على العبارة المناسبة للحالة النفسية

المرغوبة لدى شخص ما، والتي يكون تبليغها ونقلها مرغوبين هما كذلك أشد ما تكون الرغبة : انها وضع الشخص الصاحي والصادق، المنفعل أعمق انفعال، ذو الروح المرحة، الذي تغلب على أهوائه. تلك هي قاعدة أفضل أسلوب: انه يوافق الانسان الصالح.

89 . اعتبار المظهر.

يعبر مظهر الجمل عما اذا كان المؤلف متعبا، واذا اخذنا جملة واحدة بشكل منفصل فقد نجدها رغم ذلك قوية وجميلة نظرا لكون الكاتب قد عثر عليها لذاتها من قبل في اللحظة التي أشرقت لديه الفكرة لأول مرة. ويحدث الامر هكذا مرارا لدى غوته الذي كان غالبا ما يملي حين يكون متعبا.

90 . الآن وقبل الآن.

أ : «ما يزال النثر الالماني شابا : وأبوه، كما يرى غوته، هو فيلاند.»

ب : لا يزال شابا جدا، ولكنه قد صار قبيحا جدا ! ج : «ولكن ... حسب ما أعلم، لقد كان القس فولفيلا يكتب نثرا المانيا : اذن فعمر هذا النثر حوالي خمسة قرون.» ب : انه جد قديم، وايضا جد قبيح.

91. ألمانية أصيلة.

النثر الالماني، الذي لا يتبع أي نموذج وله من الصفات ما يجعله نتاجا أصيلا للذوق الالماني، قد يعطي للمدافعين المتحمسين عن حضارة ألمانية أصيلة مستقبلية دليلا على المظهر الذي سيكون فيها مثلا، دون احتذاء أية نماذج، لثوب ألماني حق، لحياة مجتمع ألماني، لتزيين داخلي ألماني، لفطور الماني. ـ وقد ينتهي احد الذين فكروا في هذه المنظورات بان يصيح، وقد أصابه الهلع : «اننا ربما نملك هذه الحضارة الاصيلة الآن... غير اننا قلما نحب الحديث عنها !»

92. كتب ممنوعة.

لا تقرأوا ابدا اي شيء مما يكتبه هؤلاء المبدعون الحمقى المتغطرسون والمشوشون الذين يتصفون بذلك الخطل المقيت، اي المفارقة المنطقية : انهم يستعملون الاشكال المنطقية هناك حيث يرتجلون بسفاهة ويتوهمون. («إذن» لديهم تعني : «ايها القارىء البليد، ليست اذن هُنَا لَكَ، بل لي انا» ـ وهو ما يليق ان نجيب عنه كما يلي: «ايها الكاتب البليد، لماذا تكتب إذن ؟»)

93 . إظهار النباهة.

الذي يريد إظهار النباهة يكشف بذلك انها تنقصه كثيرا. فهذا الخطل الذي لدى الفرنسيين الروحانيين، الذي هو مجانسة افضل التماعاتهم بظل من الازدراء، أصله هو نية الظهور أغنى مما هم في الواقع : انهم يريدون العطاء بلا مبالاة، وكانهم قد تعبوا من هذا السخاء الابدي المستمد من كنوزهم الوفيرة.

94. الادب الفرنسي والادب الالماني.

مأساة الأدباء الالمان والفرنسيين خلال المائة سنة الاخيرة تعود الى كون الالمان قد غادروا مدرسة الفرنسيين مبكرا، وكون الفرنسيين بالتالي قد دخلوا مدرسة الالمان مبكرا.

95. نثرنا.

ليس هناك شعب متحضر معاصر له نثر رديء مثل الشعب الالماني، وحين يقول الفرنسيون الروحانيون المتقززون : ليس هناك نثر ألماني، فلا داعي لأن نغضب، لان هذا قد قيل بلطافة اكثر من التي نستحق. واذا بحثنا عن أسباب ذلك فسنصل الى هذه النتيجة الغريبة وهي ان الالماني لا يعرف غير النثر المرتجل ولا يتصور اي نثر آخر. أنه قلما يفهم اذا ما قال له ايطالي بان النثر اصعب من الشعر نظرا لكون تجسيد الجمال العاري أصعب، بالنسبة للنحات، من تجسيد الجمال المكسو. البيت الشعري، الصورة، الايقاع والقافية يتطلبون مجهودات كبيرة، ـ يفهم الالماني هذا ايضا ولكنه ليس ميالا لاضفاء قيمة كبيرة بوجه خاص على الارتجال الشعري. ولكن كتابة صفحة نثر مثلما تنحت تمثالا ؟ ـ يعد بالنسبة له مثل حكاية من بلاد الحكايات (pays de la fable).

96. الاسلوب الرفيع.

يولد الأسلوب الرفيع حيث يتفوق الجمال على الفظاعة.

97. محاشاة.

إننا لا ندري مكمن رقة التعبير والصياغة، لدى المفكرين الكبار، ما دمنا لا نستطيع معرفة الكلمة التي كان سيستعملها حتما اي كاتب رديء ليعبر عن نفس الشيء. كل الفنانين الكبار، حين يسوقون سياراتهم، يبدون ميلا الى التحاشي، الى الخروج عن الطريق، ـ ولكن ليس الى قلب السيارة.

98. شيء مثل الخبز.

الخبز يضعف ذوق المواد الغذائية الأخرى ويمحوه، لذلك يدخل في كل وجبة طويلة. لا بد أن يكون في كل الأعمال الفنية شيء مثل الخبز لكي تكون لها تأثيرات متنوعة تؤدي، بتتابعها المباشر الذي لا يتوقف من حين لآخر، بسرعة إلى إثارة التعب والنفور، بحيث تصير وجبة فنية طويلة شيئا مستحيلا.

99. يوحنا بولس.

لقد كان يوحنا بولس (Jean Paul) يعرف الكثير، ولكن لم يكن لديه علم، كان بارعا في مختلف أنواع زخارف الأسلوب، ولكن لم يكن لديه فن، لم يكن يعاف أكل أي شيء تقريبا، ولكن لم يكن له ذوق، كان عاطفيا وجديا، ولكنه كان يضيف إليهما، حين يريد إظهارهما، عصيدة من الدموع منفرة، بل كان نبيها، ولكن نباهته كانت مفرطة القلة، مع الأسف، بحيث لا تشبع شهيته القوية : وهذا ما يجعله يخيب آمال القارئ بنقص نباهته. إجمالا، لقد كان نبتة ضارة فاقعة الألوان وقوية الرائحة نبتت بين عشية وضحاها على تربة القمح الطيبة، تربة شيلر وغوته، ورغم كونه رجلا طيبا ورهيف الإحساس فقد حولها إلى مصيبة ترتدي مبذلا.

100. معرفة تذوق التناقض.

لكي نتذوق عملا أدبيا من الماضي مثلما أحس به معاصروه لا بد أن يكون على لساننا الذوق الذي كان سائدا حينها والذي تجرد منه هذا العمل.

101. مؤلفون كالكحول.

كثير هم الكتاب الذين ليسوا لا عقلا ولا خمرا، بل كحولا: قد يلتهبون، وحينها يمنحون بعض الدفء.

102. الحاسة الوسيطة.

غالبا ما حمل الذوق، وهو الحاسة الوسيطة حقا، الحواس الأخرى على تبني نظرته للأشياء ونفث فيها قوانينه وعاداته. يمكننا، ونحن على مائدة الطعام، أن نحصل على معلومات تخص أدق أسرار الفنون : ما علينا إلا ملاحظة ما نتذوقه، اللحظة التي نتذوقه فيها، الذوق الذي نجده فيه، وكم من الوقت نجده فيه.

103. ليسينك.

لدى ليسينك (Lessing) مزية فرنسية أصيلة، وقد تردد بمثابرة، بوصفه كاتبا، على المدرسة الفرنسية : إنه يعرف كيف يرتب أموره ويعرضها بشكل جميل في الواجهة. لولا هذا الفن الحقيقي لظلت أفكاره، تماما مثل مواضيعها، في دائرة الظل، ودون أن يخسر العالم بذلك كثيرا. ولكن الكثيرين (وخاصة الجيل الأخير من الأطباء الألمان) قد تعلموا من أدبه، وعدد الذين استمتعوا به لا يحصى. صحيح أن هؤلاء التلاميذ لم يكونوا في حاجة، مثلما حدث ذلك كثيرا، إلى استعارة تصنعه المقرز في النبرة، وخليطه الجامع بين مجادلته الكتابية غير المتقنة وبين البساطة. الإجماع متحقق الآن بشأن ليسين «الشاعر الغنائي»، وسوف يتحقق بشأنه ككاتب مسرحي.

104. قراء غير مرغوبين.

القراء الطيبون البلداء والخرقى، الذين يقعون أرضا كلما اصطدموا بشيء ما، وفي كل مرة يتألمون، يعذبون الكاتب أشد العذاب.

105. أفكار الشعراء.

كل الأفكار الحقيقية، لدى الشعراء الحقيقيين، تمشي محتجبة، مثل نساء مصر: لا تنفذ من تحت الحجاب إلا عين الفكر الثاقب. ـ ليس لأفكار الشعراء معدل القيمة التي نعطيها إياها: إننا ندخل في تلك القيمة قيمة الحجاب وقيمة فضولنا.

106. اكتبوا ببساطة وبشكل نافع.

إننا نبرئ المؤلف من تحولات وتطورات وبرقشة الهوى الذي نجلبه معنا ونجعل كتابه يستفيد منه شريطة أن يمتعنا هو بشيء ما.

107. ڤيلانـد.

لقد كتب ڤيلاند (Wieland) بالألمانية أفضل من أي كان، ووجد فيها رضاه وسخطه الجديرين به (ترجمته لرسائل شيشرون وترجمته لوسيان هما أفضل الترجمات الألمانية)، ولكن أفكاره لم تعد تجعلنا نفكر. كما أننا لم نعد نطيق أخلاقياته الباسمة ولاأخلاقياته الباسمة: فهما منسجمتان إلى حد كبير. الناس الذين كانوا يجدون فيها متعة كانوا أفضل منا ولا شك، ـ ولكنهم كانوا بلداء أيضا، أولئك الذين كانوا في أمس الحاجة إلى مثل هذا الكاتب. لم يكن الألمان في حاجة إلى غوته، لذلك لم يعرفوا ما يفعلون به. لننظر بهذا المفهوم إلى أفضل رجالات الدولة والفنانين لدينا : ليس منهم من كان له غوته مربيا.

108. أعياد نادرة.

حيثما وجدت مزية الإقتضاب في الأسلوب ومزية الهدوء والنضج لدى مؤلف ما توقف وأقم عيدا وسط البيداء، فإن هذا الحبور لن يعود إليك إلا بعد أمد طويل.

109. كنز النثر الألماني.

إذا استثنينا أعمال غوته، وخاصة محاوراته مع إيكرمان، وهو أفضل الكتب الألمانية، فماذا يبقى من الأدب الألماني المنثور الذي يستحق أن يقرأ وتعاد قراءته ؟ يبقى كتاب لشتنبرغ، الأمثال، وأول كتاب في السيرة الغيرية لمؤلفه يونغ ستيلين، وكتاب صيف سان مارتان لأدالبرت ستيفتر، وكتاب ناس سيلدڤيلا لغوتفريد كيلر، ـ يكفي هذا الآن.

110. أسلوب الكلام وأسلوب الكتابة.

يتطلب فن الكتابة، قبل كل شيء، طرق تعويض أشكال التعبير التي تتوفر عليها الذات المتكلمة وحدها : الحركة، النبرة، الجرس، والنظرة، كما أن أسلوب الكتابة يختلف كثيرا عن أسلوب الكلام، وهو أصعب منه بكثير : إنه يريد، بوسائل أقل، أن يسمع صوته مثله تماما. لقد كان ديموستين يلقي خطبه بطريقة تخالف التي نقرأها بها : إنه يعيد صياغتها قبل أن يدع الناس يقرأونها. كان لا بد لخطب شيشرون أن تصاغ أولا على طريقة ديموستين لنفس الغرض، أما إذا أخذناها كما هي فإننا نجد فيها من ميدان الخطابة الروماني أكثر مما قد يطيقه القارئ.

111. حذر في الاستشهادات.

يجهل الكتاب الشباب أن العبارة الجميلة والفكرة الجيدة لا يكون لهما تأثير جيد إلا وسط مثيلاتهما، وأن استشهادا ممتازا قد يلغي صفحات بأكملها، بل الكتاب كله، منبها القارئ بصوت عال :« انتبه، أنا الحجر الكريم وكل ما حولي رصاص، رصاص بخس وباهت.» لا تستطيع أية فكرة أو كلمة أن تعيش إلا وسط ما يلائمها: إنها أخلاق الأسلوب المنقح.

112. كيف نقول الأخطاء ؟

قد نجادل في أيهما أكثر ضررا، أن نسيء التعبير عن الأخطاء أم أن نحسن التعبير عنها مثل أفضل الحقائق. الشيء المؤكد هو أنها في الحالة الأولى تلحق ضررا مضاعفا بالعقل الذي يصعب إخراجها منه، وصحيح مع ذلك أنه ليس لها تأثير أكيد إلا في الحالة الثانية : تكون عدواها أقل.

113. التحديد والتكبير.

لقد حدد هوميروس مقاييس موضوعه وصغَّرها، ولكنه ترك المشاهد البعيدة الواضحة تتسع وتكبر تلقائيا ـ وذلك ما سيفعله ويعيد فعله الشعراء المأساتيون فيما بعد: سيتناول كل واحد منهم أجزاء من الموضوع أصغر من التي تناولها من سبقه، ولكنه سيحصل على ازهرار أوفر داخل تلك الوشائع التي تحد بستانه.

114. الأدب والأخلاقية ينيران بعضهما.

يمكننا أن نبين من خلال مثل الأدب الإغريقي القوى التي في ظلها يزدهر العقل الإغريقي، والطريقة التي سلك بها طرقا مختلفة، والسبب الذي أدى إلى ضعفه. كل هذا يرسم لوحة ما وقع كذلك بالنسبة للأخلاقية الإغريقية وما سيقع لكل أخلاقية، إننا نرى فيها كيف كانت في البدء إكراها، كيف أظهرت القسوة، ثم لانت تدريجيا، كيف تولدت عنها في الأخير متعة في بعض الفعال، في بعض الأشكال والأعراف، ومن هذه المتعة تولد ميل إلى التطبيق، إلى الامتلاك الخاص لها، كيف يمتلئ الميدان ويزدحم بالمتسابقين، كيف يرهقهم ذلك ثم يشرعون في البحث عن مواضيع جديدة للمنافسة والطموح، يعيدون الحياة لمواضيع أخرى كانت مهجورة، كيف يتكرر المشهد ويكل المتفرجون من المشاهدة، لأن الدائرة قد تم عبورها كاملة ـ حينها يحدث توقف، تكون نهاية : تضييع الجداول في الرمل، هذي النهاية، نهاية واحدة على الأقل.

115. المناظر الدائمة المتعة.

لهذا المنظر الطبيعي سمات دالة، إنه قابل للرسم، ولكني لا أستطيع إيجاد صيغة لذلك، إنه يبقى على العموم متفلتا. إني ألاحظ أن كل المناظر التي تخاطبني بشكل دائم تخفي تحت تنوعها ترسيمة خطية بسيطة، هندسية. ودون مثل هذا الأساس الرياضي لن يصير أي منظر موضوع لذة فنية. وربما تجوز استعارة هذه القاعدة لتطبيقها على الإنسان.

116. القراءة بصوت عال.

تتطلب القراءة بصوت مرتفع امتلاك فن القول : يتعلق الأمر باستعمال نبرات باهتة في كل مكان، وبتحديد كثافة الألوان الرمادية في تواز تام مع لون الخلفية ذات الألوان القوية والثابتة، والتي فكرتها الرئيسية دائمة الحضور في العقل، وهو ما يعني احترام إلقاء نفس الفقرة. لا بد إذن من إتقان الإلقاء.

117. الحس الدرامي.

الذي لا يملك حواس الفن الأربعة الدقيقة يسعى لأن يفهم كل شيء من خلال الحس الخامس، وهو أكثرها فظاظة: إنه الحس الدرامي.

118. هــردر.

ليس هردر أبدا مثلما جعل الناس يعتقدونه (وكان هو نفسه يتمنى أن يعتقده) : لا مفكرا كبيرا ومبدعا، ولا أرضا خصبة ذات نبت جديد، ذات مزايا غير مستعملة مثل مزايا الغابة الغفل. إلا أنه كان يمتلك حاسة الشم، كان يرى بواكير الفصل ويقطفها قبل الآخرين، وبذلك يعتقدون أنه هو الذي انبتها بنفسه. لم يكن عقله واضحا ولا غامضا، لا قديما ولا جديدا، بل في موضع وسط بينها، وكان مثل صياد دائما يترصد الأماكن التي فيها تحولات، انهيارات، اضطرابات، علامات انبجاس ونمو داخليين، كان اضطراب الربيع يعذبه؛ ولكنه لم يكن يريد تصديق نفسه، هو الكاهن الطموح الذي رغب كثيرا في أن يصبح باب العقول في عصره! ثمة كانت معاناته. يبدو أنه عاش طويلا وهو يطمع بممالك عديدة، بل بإمبراطورية عالمية، وقد كان هناك من يصدقونه: وغوته الشاب كان واحدا منهم. ولكنه كان يعود صفر اليدين من كل مكان ينتهي فيه الناس بمنح العرش، فقد سلب منه كانط وغوته، ثم أوائل المؤرخين وفقهاء اللغة الألمان الحقيقيون ما كان يعتقد أنه قد اختص به، ــ ولكنه لم يكن يرتدي طوعا لباس الكرامة والحماس، لقد كانا لباسا يخفي الكثير، ويخدعه ويواسيه هو نفسه. صحيح أنه كان لديه حماس وحمية، ولكن طموحه كان أكبر ! وهو الذي كان يؤجج النار ويجعلها تطقطق وتطلق دخانا ــ له أسلوب يتأجج، يطقطق ويطلق دخانا ــ ولكنه كان يرغب في لهب كبير، إلا أن اللهب لم يتصاعد أبدا! إنه لم يجلس إلى طاولة المبدعين الحقيقيين، وطموحه كان يمنعه من الجلوس بتواضع بين المستهلكين الحقيقيين. لقد كان إذن مواكلا قلقا، كان متذوق كل الأطعمة الفكرية التي بحث عنها الألمان جماعة، خلال نصف قرن، في كل العصور وتحت مختلف أشكال المناخ العالمية. إنه لم يشعر أبدا بالشبع والرضى، كما أنه كان في الغالب مريضا، لذلك كانت الغيرة أحيانا تجلس عند رأسه، وكان النفاق كذلك يعوده. وقد تبقى له من ذلك شيء مسلوخ ومرغم، وتنقصه، أكثر من أي واحد من كلاسيكيينا المزعومين، الرجولية البسيطة والقوية.

119. رائحة الكلمات.

لكل كلمة رائحتها. هناك تناغم وتنافر في الألوان، وبالتالي في الكلمات.

120. الأسلوب المنشود.

الأسلوب الجاهز إهانة لمن يحب الأسلوب المنشود.

121. قسم.

لن أقرأ أبدا لمؤلف يظهر لنا أنه أراد تأليف كتاب، ولكن فقط للمؤلفين الذين تصير أفكارهم كتابا فجأة.

122. التقاليد الفنية.

ثلاثة أرباع ما كتبه هوميروس أصله التقاليد (convention)، نفس الشيء يقال بالنسبة لكل الفنانين الإغريق الذين لم يكن هناك أي شيء يدفعهم لهذا الحب الجنوني المعاصر للأصالة. إنهم لم يكونوا يخشون التقاليد، لأنها هي التي كانت تربطهم بجمهورهم. التقاليد إذن هي طرق فنية تم إخضاعها ليفهمها المستمعون، هي اللغة المشتركة التي يتعلمها الفنان بمشقة ليتواصل بها. خصوصا إذا أراد، مثل الشاعر والموسيقي الإغريقيين، أن يتفوق في الحال بكل واحد من أعماله ـ وقد اعتاد أن يواجه خصما أو اثنين أمام الملأ ـ، والشرط الأول هو أن يفهم العمل في الحال: وهو ما لا يمكن حصوله إلا بفضل التقاليد. أما ما يبتكره الفنان ما وراء التقاليد فإنه يستخدمه بمبادرته الخاصة، متحملا كل التبعات، وتكون النتيجة، في أفضل الأحوال، هي إبداع تقاليد جديدة. عادة ما ينظر إلى الأصالة بدهشة، وأحيانا يتم الهيام بها، ولكنها نادرا ما تفهم، وتجنبك التقاليد بعناد يعني عدم الرغبة في فهم الآخرين لك. فعم يدل الحب الجنوني المعاصر للأصالة ؟

123. تكلف العلم لدى الفنانين.

كان شيلر يعتقد، مثل بعض الفنانين الألمان الآخرين، أن النباهة تمنح الحق في الإرتجال، حتى والقلم في اليد، في كل المواضيع الصعبة. وهكذا جاءت مقالاته النثرية، ـ نماذج، بكل المقاييس، من الطريقة التي لا ينبغي بها تناول القضايا العلمية في الجمالية والأخلاق، ـ وخطراً على القراء الشباب الذين لا يملكون الشجاعة، نظرا لإعجابهم بشيلر الشاعر، ليكونوا فكرة سيئة عن شيلر المفكر والكاتب. ـ الإغراء الذي يستولي بسهولة وبشكل مفهوم على الفنان ليطأ مرة واحدة ذلك الحقل الممنوع عليه ويقول رأيه في العلم ـ لأن الراسخين أحيانا يجدون مهنتهم ومحرفهم غير مطاقين ـ، هذا الإغراء

يؤدي بالفنان لأن يظهر للناس ما ليسوا في حاجة إلى رؤيته، وهو أن حجيرة تفكيره ضيقة ومشعثه ـ ولم لا؟ مادام لا يسكنها؟ ـ أن مخازن معرفته نصفها فارغ ونصفها مملوء من هنا وهناك ـ ولم لا؟ فهذا لا يعتبر غير مناسب في الواقع للطفل الذي هو الفنان ـ، خاصة وأن ألفاظه متصلبة وصدئة لتقوم بأسهل تمارين المنهجية العلمية المألوفة حتى لدى المبتدئين ـ وليس له أن يخجل حتى من هذا، حقا! وفي مقابل ذلك، يبين عن فن هائل في تقليد كل العيوب والنقائص والمعرات المتحذلقة لدى العلماء، متخيلا أن ذلك بشكل جزءاً، إن لم يكن من الشيء فمن ظاهره على الأقل، والجانب الممتع بالضبط في أعماله الجمالية هو كونه يظهر فيها، دون أن يقصد ذلك، ما هو كفء فيه : المحاكاة الساخرة للعلماء وليس للفنانين. ولا ينبغي أن يكون له من العلم موقف آخر غير هذا الموقف الساخر، نظرا لكونه فنانا لا غير.

124. فكرة فاوست.

تم إغواء خياطة صغيرة وحلت بها مصيبة، كان المجرم طبيبا تخرج من أربع كليات. ولكن هذا لم يحدث بشكل عادي ؟ لا، بكل تأكيد! لولا مساعدة الشيطان نفسه لما استطاع الطبيب أبدا فعل ذلك. ـ أتكون هذه هي أكبر «فكرة مأساتية» ألمانية، كما نسمع الألمان يقولونه فيما بينهم ؟ ـ لقد كانت هذه الفكرة بالنسبة لغوته فكرة فظيعة، فقلبه الحنون لم يملك إلا أن يضع الخياطة الصغيرة بجوار القديسين بعد موتها، «تلك الروح الطيبة التي قصرت في واجبها مرة واحدة فقط». بل أكثر من ذلك، لقد مكنته الهرجة (farce) التي راهن فيها على الشيطان في اللحظة الحرجة من انتزاع الطبيب الكبير نفسه من أيدي السماء، في الوقت المرغوب، ذلك «الرجل الطيب» ذو «الطموح الغامض» : ـ وهناك في السماء يلتقي الأحبة. ـ لقد قال غوته يوما أن طبعه متسامح جدا ولا يصلح للمأساتي الحق.

125. هل هناك « كلاسيكيون ألمان » ؟

يقول سانت بوف (Sainte-Beuve) في مكان ما أن كلمة كلاسيكي لا تنطبق بتاتا على شكل بعض الآداب : فمن سيتحدث بسهولة، مثلا، عن «الكلاسيكيين الألمان » ؟ ـ وماذا يقول عن ذلك كتبيونا، الذين هم في طريق إضافة خمسين كلاسيكي ألماني جديد إلى الخمسين المفترض أن نصدقهم أنهم كذلك ؟ يكاد الأمر يبدو أنه يكفي أن يكون الكاتب قد مات منذ ثلاثين سنة أو تكاد، أن يترك بعد موته فريسة سهلة للجمهور، لكي يسمع فجأة أبواق البعث، وقد صار كلاسيكيا! يحدث هذا في عصر ولدى شعب نجد فيهما أنه، من بين الستة الكبار الذين أسسوا أدبنا،

خمسة يشيخون أو قد شاخوا ـ دون أن يخجل من هذا لا هذا العصر ولا هذا الشعب! لأن هؤلاء الأجداد قد تراجعوا أمام قوى هذا الزمن، ـ ولنتفكر في ذلك بكل إنصاف! ـ سوف أستثني غوته، مثلما أسلفت، لأنه ينتمي إلى نوع أدبي أسمى من «الآداب القومية»: ولذلك ليس لوجوده أية علاقة مع أمته، سواء تعلق الأمر بالأصالة أو بالشيخوخة. إنه لم يعش في الماضي ولا الآن إلا بالنسبة للبعض، أما بالنسبة للأغلبية فإنه ليس سوى جوقة غرور ترسل، من حين لآخر، لازمتها الغنائية إلى ما وراء الحدود الألمانية. غوته الذي ليس فقط رجلا طيبا وعظيما، بل ثقافة، يعتبر في التاريخ الألماني فاصلا ترفيهيا لا خلق له: من يستطيع أن يدلنا في السياسة الألمانية خلال السبعين عاما الأخيرة، مثلا، عن أثر لغوته مهما يكن بسيطا! (بينما نجد أثرا لشيلر وأثرا صغيرا لليسين قد بديا فيهما نشطين على كل حال). ولكن الخمسة الآخرين! لقد شاخ كلوبسطوك، وهو ما يزال حيا، بطريقة جد مشرفة وبشكل جذري بحيث أنه لا أحد أخذ مأخذ الجد الكتاب التأملي الذي أصدره بعدما تقدم به العمر، جمهورية العلماء. هردر أصابته لعنة كون كتبه دائما تكون بكيرة أو بالية منذ صدورها. ڤيلاند، الذي عاش كثيرا وبذر الحياة، تدارك بموته، وهو مايزال فطنا، تراجع تأثيره. ليسين لايزال حيا حتى الآن ـ ولكن بين علماء شباب! وشيلر قد انتقل من أيدي الشباب إلى أيدي الأطفال، كل الأطفال الألمان! من المعروف أن الكتاب يشيخ إذا صار متداولا بين أجيال يتناقص نضجها. ـ فما الذي استبعد هؤلاء الخمسة إلى درجة أن المثقفين والمجدين لم يعودوا يقرأونهم ؟ إنه الذوق الأفضل، العلم الراسخ، التقدير الكبير للحقيقي والواقعي : وكلها مزايا كان هؤلاء الخمسة هم من أعاد زرعها في ألمانيا (ومعهم عشرة أو عشرون آخرون أقل شهرة)، الذين ينشرون الآن حول قبورهم، مثل شجرة كبيرة، ظل الاحترام، وعلاوة على ذلك، ظل النسيان. ـ والحالة أن الكلاسيكيين ليسوا زارعي المزايا الفكرية والأدبية بل هم من يكملها، وتظل أضواء سامقة وقصية تحلق فوق الشعوب حتى بعد موت هؤلاء، لأنهم أكثر خفة وحرية وصفاء منهم. سيصير مستوى أعلى من الإنسانية ممكنا حتى تصير أوربا الأمم ماضيا قاتما منسيا، وحين تحيا أوربا في ثلاثين من الكتب القديمة جدا والتي لا تنسى، كتبها الكلاسيكية.

126. مهم، ولكنه ليس جميلا.

هذا المنظر يخفي معناه، ولكن فيه معنى نود تخمينه : حيثما نظرت أقرأ كلمات وإيحاء كلمات، ولكني لست أدري أين تبدأ الجملة التي تحل لغز كل هذه الإيحاءات، وأصاب بالإجل* من جراء محاولتي رؤية ما إن كان علي أن أقرأها من هنا أم من هناك.

127. ضد مُوَلدي الألفاظ.

الإيمان البليد بالكلمات المبتكرة أو المهجورة في اللغة، تفضيل النادر والغريب، الميل إلى وفرة المفردات عوض الميل إلى تحديدها، كل ذلك يكون دائما علامة ذوق لايزال ناقصا أو قد صار فاسدا. إن ما يميز فناني الخطابة الإغريق هو فقر نبيل وحرية كبيرة داخل حدود هذه الثروة المتواضعة، إنهم يريدون أن يكون لهم أقل مما للشعب ــ لأن الشعب غني للغاية بالأشكال القديمة والجديدة ــ، ولكنهم يريدون امتلاك هذا القليل أفضل ما يكون الإمتلاك. سرعان ما نحصي المفردات المهجورة وشواذ اللغة لديهم، ولكننا لا نكف عن الإعجاب بهم إن توصلنا إلى إدراك تلك الطريقة البارعة والدقيقة التي يتناولون بها ما نجده في الكلمات والصيغ من اليومي ومما يبدو مستهلكا منذ أمد طويل.

128. مؤلف كئيب ورصين.

الذي يكتب ما يعانيه يكون مؤلفا كئيبا، ولكنه يكون رصينا إن قال لنا الشيء الذي عانى منه،والشيء الذي يجعله يجد الراحة الآن في الفرح.

129. صحة الذوق.

ما الذي يجعل الصحة غير معدية مثل الأمراض، عموما، وخاصة فيما يخص الذوق ؟ أم أن هناك أوبئة الصحة ؟

130. اقتراح حازم.

لا تقرأ أبدا أي كتاب تم تعميده (بالمداد) في اللحظة التي رأى فيها النور.

131. تصحيح الفكر.

تصحيح الأسلوب يعني تصحيح الفكر، لا غيرا ــ ومن لم يصلحه بسرعة فإننا لن نقنعه بذلك أبدا.

132. كتب كلاسيكية.

إن أضعف جانب في أي كتاب كلاسيكي هو كونه قد كتب باللغة الأم لمؤلفه.

133. كتب رديئــة.

للكتاب وحده حق المطالبة بالقلم والحبر و الطاولة،و لكن عادة ما يكون هؤلاء هم من يطالب بالكتاب، وذلك ما يجعل الكتب الآن غير ذات قيمة.

134. حضور الـ...حس.

حين يتأمل الجمهور لوحات فنية يجعل من نفسه شاعرا، وحين يتأمل قصائد شعرية يصير مجرد نظرة فاحصة. إن الحس المرغوب دائما يغيب عن الفنان في اللحظة التي يلتمسه فيها، إن ما يغيب عنه إذن هو حضور الحس وليس حضور البديهة.

135. أفكار مختارة.

لا يختار الأسلوب المنتقى في عصر مزدهر كلماته فقط، بل أفكاره كذلك، ويأخذها من الاستعمال الشائع والسائد. لا يجد الذوق الناضج الأفكار الجريئة والطرية أقل قبحا من الصور والتعابير الجديدة والمخاطرة. فيما بعد تشعر الفكرة والكلمة المختارتان بسهولة بالرداءة، لأن رائحة الشيء الشهي تتلاشى بسرعة، ولا تترك للذوق سوى التفاهة المعتادة.

136. السبب الأساس لفساد الأسلوب.

إن ما يفسد الأسلوب، في فنون اللغة وسائر الفنون الأخرى، هي إرادة إظهار شعور أكثر من الذي نشعر به فعلا تجاه شيء ما. كل فن كبير يميل بالأحرى إلى العكس : يجب، مثل رجال الأخلاقية الرفيعة، كبح جماح العاطفة وعدم تركها تستنفد نفسها تماما. هذا الحياء الذي لا يكشف من العاطفة إلا نصفها نلاحظه بشكل جميل جدا لدى صوفوكليس مثلا، ويبدو أن ملامح الإحساس تتغير حين يظهر أكثر اعتدالا مما هو فعلا.

137. ليكون عذرا للأقلام البليدة.

إن ما نقوله بدقة نادرا ما يتم سماعه بنفس وزن الشيء الذي قيل ـ وسبب ذلك هي الآذان سيئة التربية، التي أرغمت على المرور من التكوين الذي كان يسمى حتى الآن بالموسيقى إلى مدرسةالفن العالي للأصوات، أي إلى الخطاب.

138. منظور جوي.

هذه سيول تنحدر من عدة جوانب إلى الوادي، حركتها مندفعة جدا وتجذب الأبصار بشدة بحيث أن منحدرات الجبل العارية والمشجرة التي حول الوادي تبدو، ليس كأنها تغوص، ولكن كأنما تفر إلى الأسفل. لدى رؤية هذا المشهد يخنقك ضيق، كما لو كان كل هذا يخفي شيئا معاديا اضطر كل شيء أمامه للفرار، شيء قد تحمينا منه الهاوية. هذا المنظر يستعصي على الرسم، اللهم إلا إذا حلقنا فوقه في الأجواء مثل

طائر. هنا، ولمرة واحدة، لا يكون المنظور الذي نسميه جويا نزوة فنان، بل هو الإمكانية الوحيدة.

139. مقارنات محفوفة بالمخاطر.

حين لا تكون المقارنات المحفوفة بالمخاطر دليلا على صلف الكاتب فإنها تكشف تعب خياله. ولكنها في كل الأحوال تشهد على رداءة ذوقه.

140. الرقص في الأغلال.

يمكن أن نتساءل بشأن كل فنان أو شاعر أو كاتب إغريقي : ما هو الإكراه الجديد الذي يفرضه على نفسه ويجعله إكراها جذابا لمعاصريه (إلى حد إيجاد مقلدين له) ؟ لأن ما نسميه «ابتكارا» (في بحور الشعر مثلا) هو دائما واحد من تلك القيود التي يضعها المبدع لنفسه. «الرقص في الأغلال»، جعل المهمة سهلة، ثم تغطيتها بوهم السهولة، هذه هي الموهبة التي يريدون إظهارها لنا. يمكننا أن نكشف لدى هوميروس قدرا من الصيغ الموروثة ومن قواعد السرد الملحمي التي كان عليه أن يرقص داخل تخومها، وقد ابتكر هو بنفسه تقاليد جديدة للذين يأتون بعده. هذه هي المدرسة التي تكون فيها الشعراء الإغريق. أولا، قبول الخضوع لإكراه متعدد يضعه الشعراء القدامى، ثم ابتكار إكراه جديد من عدم الرضى بالسابق، الخضوع له ثم التغلب عليه بسهولة بحيث يلاحظ الناس الإكراه والتغلب ويعجبون بهما.

141. بدانة المؤلف.

آخر ما يطرأ على المؤلف الجيد هي البدانة، والبدين لن يصير مؤلفا جيدا أبدا. خيول السباق الأصيلة تكون نحيفة، ما لم يسمح لها بأن تستريح من انتصاراتها.

142. أبطال لاهثون.

الشعراء والفنانون الذين يعانون من ربو الإحساس يجعلون أبطالهم يلهثون تقريبا دائما، ليس لهم فن التنفس السهل.

143. الأعمش.

الأعمش هو العدو اللدود لكل المؤلفين الذين يرخون العنان للكتابة. عليهم أن يدركوا ذلك الغيظ الدفين الذي يغلق به الكتاب الذي يتنبه فيه إلى أن المؤلف قد احتاج خمسين صفحة ليمنحه خمسة أفكار، إنه غيظ من جازف بما تبقى له من النظر دون الحصول على تعويض تقريبا. ـ قال أعمش : كل المؤلفين قد أرخوا للكتابة الأعنة.

ـ « الروح القدس أيضا ؟» ـ هو أيضا. ولكنه كـان يملك الحق في ذلك، فقـد كان يكتب للعميان.

144. أسلوب الخلود.

كان ثوسيديد وطاسيت، وهما يكتبان أعـمالهما، يفكران في أنها ستكون خالدة: إننا سنخمن ذلك من أسلوبهم وحده لو لم نعلم ذلك من مصدر آخر. كان الواحد منهما يعتقد أنه يمنح لأفكاره الخلود بوضعها في الملح، والآخر باختزالها، ويبدو أنهما لم يخطئا كلاهما.

145. ضد الصور والمقارنات.

الصور والمقارنات تقنع ولا تبـرهن، لذلك يستفظعهـا العلماء، فهم لا يريدون في العلم ما يخلف يقينا ولا تصديقا، ويثيرون بالأحرى الريبة الشديدة، حتى وإن لم يكن ذلك إلا من خلال الأسلوب والجدران العاريين، لأن الريبة هي محك ذهب اليقين.

146. حذر.

الذي ينقصـه علم راسخ، في ألمانيا، سيحـسن صنعا بتجنبـه للكتابة، لأن الألماني الطيب لن يقـول حينها :« إنه جـاهل »، بل:« إن له طبعـا مرتابا». ـ هذا الإستنتاج المتسرع، إجمالا، يشرف الألمان.

147. هياكل عظمية ملونة.

هياكل عظمية ملونة هم أولئك المؤلفـون الذين يريدون تعويض ما ينقصهم من لحم بألوان صناعية.

148. أسمى من الأسلوب الجزل.

نتعلم الكتابة بأسلوب جزل أسرع مما نتعلم الكتـابة بسهولة وبساطة. تزول أسباب ذلك في الأخلاق.

149. سباستيان باخ.

إن لم نستمع إلى موسيقا باخ ونحن على معرفة تامة ودقيقة بالطباق* وبكل أنواع الأسلوب المتسلسل، وإن لم نستغن عن المتعة الفنية الخالصة، فإنه سيكون لدينا انطباع لدى سماعها (لكي أعبر عنه بطريقة غوته السامية) بأننا نحضـر اللحظة نفسها التي خلق الله فيهـا العالم. أريد أن أقول أننا نشعر أن شيئا عظيما يعتمل فيها، ولكنه لم

يخرج للوجود بعد: وهو موسيقانا العصرية العظيمة. لقد تجاوز العالم بتجاوزه للكنيسة والقوميات والطباق. ولايزال في باخ كثير من المسيحية، من الجرمانية، من المدرسية*، وكلها في وضعها الخام، إنه يقف على عتبة الموسيقى الأوربية (الحديثة)، ولكنه من هناك يدير بصره نحو العصر الوسيط.

150. هاندل.

كان هاندل، المجدد الجريء في ابتكاراته الموسيقية، والصادق، القوي، المتجه، بسبب القرابة، إلى بطولية يقدر عليها شعب بأكمله، كان غالبا ما يتضايق ويصيبه الفتور أثناء مباشرته للعمل، بل ويضجر من نفسه، وآنذاك يطبق بعض الطرق المجربة في العزف، يؤلف كثيرا وبسرعة، ويكون سعيدا حين ينتهي من ذلك، ـ ولكن سعادته لا تكون مثل سعادة الإله والمبدعين الآخرين عشية إنهاء عملهم.

151. هايدن.

لقد امتلك هايدن العبقرية بالقدر الذي ترتبط فيه مع الطيبة الخلقية الصافية والبسيطة. إنه يذهب بالضبط إلى الحد الذي تفرضه الأخلاقية على الذكاء، إنه يمنحنا موسيقى « لا ماضي لها ».

152. بتهوفن وموزار.

غالبا ما تبدو موسيقى بتهوفن تأملا عميقا منفعلا عند الاستماع مرة أخرى استماعا غير متوقع لجزء كان الناس يعتقدونه مفقودا منذ مدة طويلة، وهو براءة النغم، إنها موسيقى على الموسيقى. في أغاني المتسولين أو أطفال الشوارع، في أنغام المتشردين الإيطاليين الرتيبة، في أغنية الرقص في ملجأ القرية أو أثناء ليالي الكرنفال، هنا كان بتهوفن يجد « ألحانه»ه : مجمعا من هنا وهناك نوطة أو مجموعة قطع راقصة. إنها بالنسبة له ذكريات مجملة من «عالم أفضل»، مثلما كان أفلاطون يتخيل أفكاره. ـ لموزار علاقة مغايرة تماما مع ألحانه، إن الإلهام لا يأتيه وهو يسمع الموسيقى، بل وهو ينظر إلى الحياة، الحياة المتوسطية النشيطة : لقد كان دائما يحلم بإيطاليا حين لا يكون فيها.

153. إلقاء مُلَحَّن.

فيما مضى كان الإلقاء الملحن جافا، أما اليوم فإننا نحيا عصر الإلقاء الملحن المبلل : لقد وقع في الماء وصارت الأمواج تذهب به حيث تشاء.

154. موسيقى « مرحة ».

حين نحرم من سماع الموسيقى مدة طويلة ثم نسمعها فإنها تسري في الدم بسرعة مفرطة، مثل خمر الجنوب، فتترك الروح فاترة وكأنها تناولت مخدرا، متسرنمة، كلها رغبة في النوم، هذا بالضبط ما تفعله الموسيقى المرحة خاصة، التي تمنح، في نفس الوقت،المرارة والألم، النفور والحنين، وترغمنا على استلذاذ وإعادة استلذاذ كل هذا وكأنه في مصفاة مسمومة، لكنها حلوة. في نفس الوقت، تبدو الغرفة الممتلئة بأمواج الفرح المرحة وكأنها تتقلص، يبدو النور يفقد صفاءه ويتعتم، ويتكون لدينا في الأخير انطباع بأن الموسيقى تصل كما لو إلى داخل زنزانة يقيم فيها رجل مسكين لا يدعه الحنين ينام.

155. فرانتز شوبرت.

رغم أن شوبرت كان فنانا أقل من الموسيقيين الكبار الآخرين فقد خلف أغنى تراث موسيقي. لقد وزعه بسخاء ونبل بحيث أن الموسيقيين سيعيشون خلال بضعة قرون على أفكاره وإلهامه. لدينا في أعماله كنز من الإبتكارات غير المستعملة، وسيجد بعض الموسيقيين الآخرين عظمتهم في استعمالها. ـ لو جاز أن نسمي بتهوڤن المستمع المثالي لعازف كمان لكان لشوبرت الحق في أن يقول أنه هو ذلك العازف.

156. أحدث أسلوب في العزف.

يدين الأسلوب الموسيقي المأساوي والمأساتي الكبير بخاصيته لتقليد حركات الآثم الكبير مثلما تتخيله وتتمناه المسيحية، إنه الرجل الذي يمشي مشية احتفالية متمهلة، الذي له تأملات هائمة، وتتقاذفه آلام ضميره في كل اتجاه، الفار من شدة الرعب، الممسك بما يستطيعه من النشوة، الذي يشله اليأس، ـ مع كل ما قد يكون فيه من علامات الخطيئة الكبرى. وحده هذا الوضع الذي يفترضه المسيحي، وهو كون كل الناس خاطئين ويرتكبون الخطيئة باستمرار، قد يبرر استعمال اسلوب العزف هذا في الموسيقى كلها، باعتبار الموسيقى تعكس كل الأنشطة والسلوكات الإنسانية وعليها بما هي كذلك أن تتحدث بلا توقف لغة الآثم الكبير الإيمانية. والمستمع الذي ليس مسيحيا كفاية ليفهم هذا المنطق قد يصيح من شدة الهلع أمام مثل هذا الأسلوب: « يالله، كيف دخلت الخطيئة في الموسيقى ؟»

157. فليكس مندلسون.

موسيقى مندلسون هي موسيقى الذوق الجميل المطبقة على الأشياء الجيدة كلها: إنها تعيدنا دائما إلى ما وراءها. كيف يمكن أن يكون لها كثير من أمام الذات، من المستقبل! ــ وهل أراد هو أن يكون له ذلك ؟ لقد كانت فيه مزية نادرة بين الفنانين، وهي مزية الامتنان دون فكرة مبطنة : وهذه المزية أيضا تعيدنا دائما إلى ما وراءها.

158. أم الفنـون.

في قرننا الذي هو قرن الشكوكية يكاد الورع الحقيقي يتطلب بطولية الطموح القوية، فإغماض العينين وثني الركبة مثل المتزمت لم يعد كافيا. أليس ممكنا أن الطموح إلى أقصى قمة التقوى قد كان يوما أم موسيقى كاثوليكية مقدسة أخيرة، كما كان أم آخر أسلوب معماري ديني ؟ (نسميه الأسلوب اليسوعي.)

159. الحرية في الأغلال حرية أميرية.

آخر الموسيقيين المحدثين الذي رأى الجمال وعشقه، مثل ليوباردي، هو البولوني شوبان الفذ (لا أحد ممن سبقه أو تبعه يستحق هذا الوصف)، لقد كانت له نفس الأناقة الأميرية الاصطلاحية التي كان رفائيل يبديها في استخدام الألوان التقليدية البسيطة، ــ ليس فيما يخص الألوان، بل فيما يخص التقاليد اللحنية والإيقاعية. لقد كان يتلقاها باعتبارها قد ولدت في جو من اللياقة ولكنها تلعب وترقص في هذه الأغلال مثل أكثر العقول حرية ورشاقة ــ وذلك دون أن يزدريها.

160. قاربية شوبان.

تكاد كل أوضاع العيش وطرقه تكون لها لحظة سعادة، وهي التي يعرف الفنانون الجيدون الإمساك بها. حتى الوجود بجانب البحر له لحظته، هذا الوجود المضجر، الوسخ، غير الصحي، والمجاور للوغد الأكثر ضجيجا وجشعا، ــ لحظة السعادة هذه قد نجح شوبان في جعلها تغني، في قاربيته (barcarole)، بحيث أن الإستماع إليها قد يجعل الرغبة تراود حتى الآلهة لقضاء مساءات صيف طويلة متمددين في قارب.

161. روبرت شومان.

« الرجل الشاب » مثلما حلم به الرومانسيون الألمان والفرنسيون مؤلفوا الليدات*، حوالي الثلث الأول من هذا القرن، قد ترجمه شومان إلى أصوات وأغاني، وشعر طيلة الوقت، من خلال هذا الشاب الخالد، أنه في كامل قوته. صحيح أن هناك لحظات تذكرنا فيها موسيقاه بـ« العانس » الأبدية.

162. مغنو الأوبرا.

لماذا يغني هذا الشحاذ ؟ ـ من غير المحتمل أن يكون عارفا كيف ينوح. ـ إذن حسنا يفعل، ولكن مغني الأوبرا عندنا، الذين ينوحون لأنهم لا يعرفون كيف يغنون... هل حسنا يفعلون هم أيضا ؟

163. الموسيقى التمثيلية.

تكون الموسيقى التمثيلية، بالنسبة للذي لا يرى ما يحدث على الخشبة، عبثية، تماما مثل تعليق يليه نص محذوف. إنها تتطلب أن تكون لنا أذنان في نفس موضع العينين، ولكن ذلك سيكون إهانة لأوتيرب (Euterpe)، ربة الموسيقى هذه تريدنا أن ندع أذنيها وعينيها حيث توجد عند ربات الفن الأخريات.

164. النصر والعقل.

إن القوة وليس العقل هي التي تحسم ،لسوء الحظ، في الحروب الجمالية التي يثيرها الفنانون بأعمالهم وبالخطب التي يلقونها لدعمها. الآن يقبل الكل، كواقع تاريخي، بأن Gluck كان على حق في مقاومته لبوتشيني، على أية حال، لقد انتصر، لقد كانت القوة إلى جانبه.

165. عن مبدأ العزف الموسيقي.

هل يعتقد فنانو العزف المحدثين حقا أن أسمى ما يقوم به فنهم هو إعطاء كل جزء أكبر قدر ممكن من النتوء، وجعله بأي ثمن يتكلم لغة مسرحية ؟ إذا ما طبقنا هذا على موزار ألن يكون ذلك إثما بينا في حق الروح، روح المرح المشمسة، روح الخفة الناعمة، روح موزار الذي يُظهر وقاره الرقة وليس الرعب، الذي لا تسعى صوره لأن تنبعث من الجدار لتجعل المتفرجين الغارقين في الرعب يفرون ؟ أم أنكم تظنون أن موسيقى موزار شبيهة بـ« موسيقى ضيف بطرس » ؟ وليس فقط موسيقاه، بل كل الموسيقى ؟ ـ سوف تجيبون بأن تأثير هذه الموسيقى القوي يؤيد مبدأكم، ـ وستكونون على حق لولا أنه تبقى معارضتكم بمعرفة من سيشعر بهذا الأثر، ومن الذي يكون للفنان المتميز إجمالا حق إرادة التأثير فيه. ليس الحشد، أو العقول غير الناضجة، أو العاطفيين، أو المرضى، أو بالخصوص المنهكين، أبدا!

166. موسيقى العصر الحاضر.

إن هذه الموسيقى الحديثة جدا، برئتيها القويتين وأعصابها الضعيفة، تبدأ دائما بالتراجع أمام نفسها من شدة الذعر.

167. حيث تكون الموسيقى في بيتها.

لا يكون للموسيقى تأثير قوي إلا على الذين يستحيل عليهم، أو يمنع عليهم، الجدال. وعلى رأس متعهدي الموسيقى نجد الأمراء، وهم لا يريدون من الذين حولهم أن ينتقدوا إلا قليلا، بل ألا يفكروا كثيرا. ثم المجتمعات التي يجب عليها، تحت ضغط ما (أميري أو ديني) أن تتعود على الصمت، ولكنها تسعى من وراء ذلك إلى إيجاد رقى قوية المفعول ضد سأم الإحساس (وعادة ما تكون هي العشق الخالد والموسيقى الخالدة). ثالثا، شعوب بأكملها لا يوجد فيها «مجتمع» بل فقط أفراد مدفوعون إلى الوحدة، إلى الأفكار الغسقية وإلى تبجيل كل ما لا يوصف : أولئك هم الموسيقيون. — لهذا لم يتحمل الإغريق، الذين هم شعب ثرثار ومماحك، الموسيقى إلا باعتبارها تتبيلا للفنون التي يمكنهم التجادل والتخاصم بشأنها، أما بشأن الموسيقى فإنهم لا يكادون يستطيعون التفكير بصدق. ـ كان الفيتاغوريون، أولئك الإغريق الرائعون، موسيقيين كبارا حسب ما يروى : هم الذين ابتكروا صمت خمس سنوات، ولكن ليس الجدل.

168. العاطفية في الموسيقى.

رغم ميلنا إلى الموسيقى الجدية والغنية فقد نسحر ونفتن، في بعض الأوقات، ونكاد نذوب من النشوة بسبب الموسيقى المضادة لها، أعني تلك الغنائيات الأوبرالية الإيطالية الشديدة البساطة التي، رغم توحدها الإيقاعي وسخافتها التناغمية، تبدو أحيانا وكأنها تغنى في أذاننا مثل روح الموسيقى بالذات. اقبلوا هذا أو ارفضوه، يا فريسيي الذوق الجميل، فالأمر هكذا، وغايتي هنا هي العمل على حل هذا اللغز ومحاولة التخمين. — حين كنا أطفالا ذقنا الحلاوة الأولى لكثير من الأشياء، ومنذ ذلك الحين لم يعد طعم الحلاوة كما كان، حينها كانت تدعونا إلى إغواءات الحياة، الحياة الطويلة جدا متخذة شكل أول ربيع، أولى الأزهار، أولى الفراشات، أول صداقة. إنها المرحلة، ربما كان عمرنا تسع سنوات ـ التي سمعنا فيها أول موسيقى، وكانت هي الموسيقى التي فهمناها أولا، موسيقى بسيطة وطفولية، ولم تكن سوى استمرار لترنيمة المرضعة، للحن عازف الكمان. (في الواقع يجب أن نكون مهيئين ومدربين لنتلقى حتى أصغر «تجليات» الفن : ليس للفن أي تأثير «مباشر»، رغم الأساطير التي نسجها الفلاسفة بهذا الشأن.) بهذا الإفتتان الموسيقي الأول، الأكثر حدة في حياتنا، يرتبط شعورنا عند سماع تلك الغنائيات الإيطالية، سعادة الطفل وفقدان الطفولة، الإحساس بأن الذي زال بلا رجعة هو أغلى ما نملك، كل هذا يحرك آنذاك أوتار روحنا بقوة لا يقدر عليها لوحده حضور الفن، ذلك الحضور القوي والغني. ـ هذا المزيج من المتعة الجمالية

والعناء المعنوي الذي اعتدنا الآن تسميته «عاطفية»، بشيء من الإستخفاف، كما يبدو لي (وهي الحالة النفسية لفاوست عند نهاية المشهد الأول)، «عاطفية» المستمعين هذه تخدم الموسيقى الإيطالية التي يلذ لذواقي الفن المحنكين، أي «الجماليين» الأقحاح، أن يتجاهلوها. ـ الحاصل، لا تشرع أية موسيقى، تقريبا، في ممارسة فتنتها السحرية علينا إلا انطلاقا من اللحظة التي نسمعها فيها تتحدث لغة ماضينا، وبهذا يبدو للجاهل بأصول الفن أن كل موسيقى قديمة تزداد جودة، وأن تلك الحديثة جدا لها قيمة قليلة لأنها لا تثير فينا «العاطفية» التي هي، مثلما أسلفنا، العنصر الأساسي في السعادة التي مصدرها الموسيقى بالنسبة لمن لا يستطيع الإستمتاع بهذا الفن بوصفه جماليا قحا.

169. أصدقاء الموسيقى.

في الختام، نحن أصدقاء الموسيقى وسنظل كذلك، مثلما نظل أصدقاء نور القمر. لا أحد منهما يريد أن ينزع ملك الشمس، ـ يريدان فقط أن ينيرا ليالينا ما استطاعا. ولكن سيسمح لنا، أليس كذلك ؟ بأن نمزح ونضحك بشأنهما ؟ قليلا على الأقل ؟ ومن حين لآخر ؟ بخصوص الرجل الذي في القمر! والمرأة التي في الموسيقى.

170. الفن في قرن العمل.

لدينا شعور أخلاقي بأن هذا القرن قرن عمل، وذلك لا يسمح لنا أن نخصص للفن أفضل ساعاتنا وصباحاتنا حتى وإن كان هذا الفن أعظم الفنون وأولاها. إنه بالنسبة لنا شأن من شؤون وقت الفراغ والتسلية : نخصص له ما يتبقى لنا من وقت وقوة. ـ هذا هو الواقع العام الذي وضعه الفن بالنسبة للحياة، إنه يجد ضده، حين يفرض متطلباته الكبيرة على الزمن وعلى قوى الهواة، وعي العمال القادرين، فيقتصر على الخاملين الذين لا وعي لهم والذين ليسوا، بطبعهم، متفانين في سبيل الفن الكبير، وهو ما يجعلهم يشعرون بمتطلباته مثل كثير من التطاولات المغرورة. وقد تكون بالتالي تلك نهايته، بما أن الهواء والتنفس الحر ينقصانه، اللهم إلا إذا حاول هذا الفن الكبير، متقنعا، أن يظهر بمظهر عامي، أن يتأقلم مع هذا الهواء الآخر (أن يصمد فيه على الأقل) الذي هو في الحقيقة عنصر طبيعي للفن الصغير فقط، فن التسلية والاستراحة الممتعة. يحدث هذا في كل مكان الآن، حتى أنصار الفن الكبير يعدون بالراحة والتسلية، هم أيضا يخاطبون الرجل المتعب، هم أيضا يطلبون منه مساءات أيام عمله، ـ تماما مثل الفنانين الممتعين الذين يفرحون حين يحققون انتصارا على ضنى الجباه القاتم، على نظرة العيون الغائرة. فما هي حيل زملائهم الفنانين الكبار ؟ إن لديهم في علبهم منشطات قوية تجعل بتأثيرها حتى المحتضر يقفز، لديهم مخدرات، نشوة، زلزلات، نوبات بكاء،

يسحرون بها الإنسان المنهك ويلقون به في تهيج الأرق، في استلاب تسببه النشوة والرعب. هل علينا إذن أن نحتج بقوة على الفن الكبير، بسبب خطورة وسائله، وعلى الأشكال التي يحيا فيها حاليا، كالأوبرا، المأساة، والموسيقى، وأن نحقد عليه كما على آثم خؤون ؟ بالطبع لا : لا ريب أنه سيحبذ كثيرا أن يحيا في العنصر الصافي لهدوء الصباح ويخاطب النفوس البكر القوية نفوس المتفرجين والمستمعين المفعمين بالإنتظار في الصباح. فلنكن ممتنين له على اختياره الحياة بهذا الشكل عوض الإختفاء، ولنعترف لأنفسنا كذلك بأن فننا الكبير سوف لن يكون قابلا للإستعمال في العصر الذي سيعيد إلى الحياة أيام أعياد وفرح حرة وكاملة.

171. خدام العلم والآخرون.

يمكن أن نطلق كلمة « خدام » على جميع العلماء الأكفاء حقا الذين يحققون نتائج، إبان شبابهم، حين تكون فطنتهم قد تمرنت كفاية، حين تكون ذاكرتهم قد اغتنت بالمعارف، حين يكونون قد صاروا واثقين من أعينهم وأيديهم ، يدلهم أحد من يكبرهم سنا على الميدان العلمي الذي ستكون لمزاياهم فائدة فيه. لاحقا، حين يكونون قد فتحوا أعينهم على ثغرات وعيوب العلم الذي يشتغلون به يتموضعون تلقائيا هناك حيث تكون الحاجة إليهم. هؤلاء الأفراد يهبون حياتهم كلها للعلم، وهناك أفراد نادرون مثلهم نادرا ما ينجحون ويبلغون النضج، و« العلم يوجد من أجلهم » ــ أو هذا ما يبدو لهم على الأقل ــ : إنهم غالبا ما يكونون منفرين، مزهوين، مختلين، ولكنهم تقريبا دائما فاتنون إلى حد ما. إنهم ليسوا خداما ولا مستخدمين، بل يستغلون النتائج الجاهزة، التي أكدتها أعمال الآخرين، بتسامح أميري وبثناء هزيل ونادر، كما لو كان أولئك الآخرون من صنف أدنى من الناس. ومع ذلك فإن لهم نفس المزايا التي يتميز بها هؤلاء الآخرون، وأحيانا تكون متطورة لديهم بشكل ناقص. ويتميزون، فضلا عن ذلك، بجانب محدود ليس لدى الأخرين، وبسببه يستحيل أن نعطيهم وظيفة ونرى فيهم أدوات عملية، ــ إنهم لن يستطيعوا العيش إلا في بيئتهم، على أرضهم الخاصة. هذه المحدودية هي التي تعطيهم فكرة كل ما هو «ملك لهم» في علم ما، حسب قولهم، أي ما يستطيعون العودة به إلى منازلهم، إلى بيئتهم، إنهم يحلمون دائما بجمع «ملك» هم المتفرق. إن منعوا من بناء عشهم هلكوا مثل عصافير بلا مأوى، انعدام الحرية يشبه الضنى بالنسبة لهم. إن درسوا بعض مجالات العلم المنفصلة على طريقة الآخرين فإنهم إنما يدرسون تلك التي تزدهر فيها الثمار والبذور التي هم في حاجة إليها، فما يجديهم إن كان في العلم، في مجمله، مجالات لا يعتني بها أو يرعاها

أحد؟ ليس لديهم اهتمام موضوعي بأية قضية من قضايا المعرفة : إنهم شخص واحد من أقصاهم إلى أقصاهم بحيث أن كل أنوارهم ومعارفهم تذوب بدورها في شخص واحد، في تعددية حية تتعلق أجزاؤها المتفرقة ببعضها البعض، تتداخل، تغذي بعضها، ولمجموعها بيئة ورائحة خاصتين به. ويخلق هؤلاء بإضفائهم شخصية على هذه الإبتكارات الفكرية، هذا الوهم بأن العلم (أو حتى الفلسفة بأكملها) يكون قد اكتمل، قد بلغ غايته، إن حياة ابتكارهم هي التي تمارس هذه الفتنة السحرية التي كانت، في بعض العصور، قاتلة للعلم، بإغوائها لهؤلاء الخدام الفكريين الأكفاء الذين وصفناهم آنفا، بينما في بعض العصور الأخرى التي ساد فيها الجفاف والنضوب، قد كانت مثل منشط، مثل هبة باردة من مرفأ منعش. ـ عادة ما نسمي هؤلاء الناس فلاسفة.

172. تقريظ الموهبة.

عند مروري بقرية S شرع مراهق في فرقعة سوطه بكل ما أوتي من قوة، ـ لقد كان يتقن ذلك الفن غاية الإتقان، وكان يدرك ذلك. نظرت إليه نظرة تقريظية، ولكني كنت في الواقع أتألم غاية الألم. ـ إننا نتصرف بنفس الطريقة ونحن نعترف بالموهبة. نحسن إليها في الوقت الذي تسيء فيه إلينا.

173. الضحك والإبتسام.

كلما صار العقل مرحا وواثقا من نفسه كلما فقد المرء عادة القهقهة، ومقابل ذلك تولد لديه باستمرار ابتسامة روحية، وهي دليل على تعجبه من العديد من مفاتن هذا الوجود الخفية.

174. تسلية المرضى.

مثلما نقتلع شعرنا، نضرب رأسنا، نجرح خدودنا، أو نفقأ عيوننا مثل أوديب، حين يصيبنا غم أخلاقي، فإننا نطلب النجدة أحيانا حين تصيبنا آلام جسدية فظيعة أو ننفعل انفعالا قويا وقاسيا، ونحن نتذكر المفترين والنمامين، أو ننظر إلى المستقبل بسوداوية، أو نمطر الغائبين بوابل من الأذى ومن طعنات خنجر خيالية. صحيح أن شيطانا يطرد شيطانا آخر أحيانا بهذه الطريقة، ـ ولكن حينها يتبقى لنا واحد منهم. ـ سنصف إذن للمرضى هذه التسلية الأخرى التي يبدو أنها تخفف الآلام : تخيلوا الخير الذي يمكن فعله والرقة التي يمكن إظهارها للأصدقاء والأعداء.

175. قناع الرداءة.

الرداءة أسعد قناع يمكن أن يرتديه العقل الراقي، لأنها لا تجعل عامة الناس يفكرون، أي الرديئين، في القناع. ومع ذلك فهو يرتديه بسببهم، لئلا يثيرهم، بل غالبا ما يفعل ذلك بدافع الطيبة والشفقة.

176. الصابرون.

يبدو الصنوبر مصغيا، والتنوب منتظرا، وكلاهما بنفاذ صبر : ـ إنهما لا يفكران في الإنسان الصغير تحتهما، الذي يتأكله جزعه وفضوله.

177. أفضل المزاح.

أحب المزحة التي تكون بمثابة فكرة رصينة، غير وقحة إطلاقا، تشير بالأصبع وتغمز بالعين في ذات الوقت.

178. ما يكمل التبجيل.

حيثما بجلنا الماضي فإنه يكون من المناسب ألا ندع الناس الأتقياء جدا، الذين يحبون التنظيف، يدخلون. فالشفقة قلما ترتاح دون شيء من الغبار أو الأزبال أو القاذورات.

179. الخطر الكبير على العلماء.

العلماء الأكفاء الراسخون هم بالضبط المهددون برؤية الهدف من وجودهم يوضع أسفل فأسفل، وهم على وعي بذلك، وبأن يصيروا في النصف الثاني من حياتهم حزينين ومتطلبين. يبدأون بالدخول في علمهم بسرعة اندفاع كبيرة تاركين كل أمل خارجا، وبتحديدهم لأنفسهم مهام جسورة جدا تكون أهدافها قد استبقها خيالهم أحيانا، ثم تأتي لحظات مثل التي تعرفها حياة البحارة الكبار مكتشفي البلدان، ـ المعرفة والحدس والطاقة ترقى ببعضها إلى أن يبدو شط لأول وهلة في الأفق، بعيدا وغير واضح المعالم. ولكن حينها يعرف الرجل القوي كل سنة أكثر كم هو مهم أن يتم التعامل مع قضية الباحث الخاصة بعد أن يتم حصرها قدر الإمكان، وذلك حتى يتمكن من حلها بشكل كامل ويتجنب هذا التبذير غير المطاق للقوى الذي عانت منه مراحل سابقة من العلم. ـ لقد كان العلماء يقومون بنفس العمل عشر مرات ودائما تكون الكلمة الفصل للمرة الحادية عشرة. وكلما ألم العالم بهذا الحل الكامل للألغاز وتدرب عليه كلما كانت المتعة التي يجدها في ذلك كبيرة، وفي ذات الوقت تزداد قوة متطلباته

بخصوص ما نسميه هنا « بشكل كامل ». إنه يُنَحي كل ما قد يبقى، بهذا المعنى، غير كامل، يشعر بنفور من كل ما لا يقبل سوى أنصاف الحلول، من كل ما لا يستطيع أن يمنحنا نوعا من اليقين إلا إجمالا وبشكل غامض. مخططات شبابه تنفك أمام أنظاره، بالكاد تبقى منها بعض العقد والعجيرات التي يجد هذا العالم الماهر الآن متعة في حلها ويظهر قوته في ذلك. وفي خضم هذا النشاط المفيد، وهو يعمل بلا كلل يفاجئه، الآن وقد شاخ، ويعاود مفاجأته، إحباط عميق، شكل من الألم الأخلاقي : ينظر إلى نفسه فيبدو له أنه رجل تم تغييره، تصغيره، إذلاله، تحويله إلى قزم عبقري، يتساءل عما إذا كانت الممارسة المصغرة لقوتة الهائلة تساهلا، مخرجا من الإخطار الرسمي بالقيام بما هو عظيم في الحياة وفي الإبداع الفكري. ولكنه لا يستطيع الآن العبور إلى الضفة الأخرى، لقد فات الأوان.

180. الأساتذة في قرن الكتب.

بما أن التكوين الذي ينكب عليه المرء وحده، أو ضمن جمعية أخوية، يتعمم، فإننا نستطيع تقريبا الإستغناء عن الأستاذ في صيغته المعتادة اليوم. الأصدقاء المولعون بالمعرفة، والذين يريدون جميعا تمثل معرفة ما، يجدون في هذا القرن الذي هو قرن الكتب طريقا أقصر وأشد طبيعية من « المدرسة » و « الأستاذ ».

181. الغرور هو المنفعة الكبرى.

في البدء كان الشخص القوي يعامل ليس الطبيعة فقط، بل كذلك المجتمع والأفراد الضعفاء، كمواضيع استغلال استنزافي : يستغلهم أقصى ما يمكن ثم يتابع طريقه. وبما أنه يعيش في شك كبير، متأرجحا بين الجوع وما يزيد عن حاجته، فإنه يقتل من الحيوانات أكثر مما يستطيع أكله، ينهب ويسيء معاملة الناس أكثر من اللازم. تعتبر تمظهرات قوته كلها انتقاما من وضعه الذي هو كله معاناة وكرب. إنه يريد أن يظهر أقوى مما هو، لذلك يغالي في استغلال الفرص : فائض الخوف الذي يثيره لدى الغير هو فائض قوته. إنه يتنبه باكرا إلى أن ما يرفعه أو يخفضه ليست هي كينونته بل ما يبدو للآخرين أنه هو : ثمة يكمن أصل الغرور. يسعى القوي بكل الوسائل إلى زيادة الإيمان بقوته. ـ الخاضعون الذين يرتعدون أمامه ويخدمونه يعرفون بالمقابل أن قيمتهم هي بالضبط تقديره لهم، لذلك يعملون بمقتضى ذلك التقدير وليس بمقتضى رضاهم. إننا لا نعرف الغرور إلا في أشكاله المخففة، في مظاهره المصعدة (sublimés) وبمقادير صغيرة، لأننا نعيش مرحلة من المجتمع جد متخلفة وملطفة، إنه في الأصل هو المنفعة الكبرى، أقوى وسائل البقاء. وبقدر ما يكون المرء نبيها يكون غروره كبيرا، لأن زيادة

الإيمان بسلطته أسهل من زيادة هذه السلطة نفسها، وذلك فقط بالنسبة للذكي أو، كما ينبغي القول في ظروف العيش البدائية، للداهية الكتوم.

182. علامات الأرصاد الجوية في الثقافة.

العلامات الجلية في الأرصاد الجوية للثقافة قليلة جدا بحيث يجب أن نسعد إن كانت لدينا على الأقل علامة واحدة لا تضللنا، من أجل الإستعمال المنزلي ومن أجل الحديقة. لكي نختبر شخصا ما إن كان منا أم لا (أعني إن كان من المفكرين الأحرار)، نختبر شعوره نحو المسيحية. إن كان له منها موقف آخر غير الإنتقاد أوليناه ظهرنا : إنه يلوث هواءنا ويجعل طقسنا رديئا. ـ لم تعد مهمتنا هي تعليم مثل هؤلاء ما تعنيه الشلوق*، لديهم موسى وأنبياء الزمن وفلاسفة الأنوار : إن لم يشاؤوا الإصغاء إليهم، إذن...

183. الغضب والعقاب عفى عليهما الزمن.

الغضب والعقاب هدية لازلنا نحتفظ بها من الحيوانية. ولن يبلغ الإنسان رشده إلا حين يعيد هدية الميلاد هذه إلى الحيوان. هنا تختبئ واحدة من أكبر الأفكار التي قد تخطر للإنسان، إنها فكرة التقدم الأكبر. ـ لنتقدم بضع آلاف من السنين أيها الأصدقاء! لايزال هناك الكثير الكثير من الفرحة المخبأة للناس، والتي لم تصل رائحتها بعد إلى أحياء اليوم! ولا ريب أنه من حقنا التمتع بهذه الفرحة، بل أكثر من ذلك، في التنبؤ بها وذكرها كحدث ضروري، شريطة ألا يتوقف تطور العقل الإنساني. سيأتي يوم لن يحمل فيه القلب على عاتقه الإثم المنطقي الخبيء في الغضب والعقاب اللذين يمارسان فرديا أو جماعيا : يوم يكون القلب والرأس قد تعلما أن يعيشا بقرب بعضهما بنفس قدر تباعدهما الآن. نظرة واحدة على المسيرة العامة للإنسانية توضح جيدا أنهما لم يعودا متباعدين مثلما كانا في البدء، والفرد الذي يستطيع أن يعانق ببصره حياة كاملة من العمل الباطني* سيعي، بفرحة فخورة، المسافة التي تم قطعها والتقارب الذي حصل ليتجرأ على أن يغذي بذلك آمالا كبارا.

184. قرابة « المتشائمين ».

غالبا ما تحسم لقمة واحدة من الطعام في ما إن كنا سننظر إلى المستقبل بعين غائرة أم متفائلة، يسري هذا حتى على الفكر الراقي. لقد ورث الجيل الحالي عدم الرضى والقدح في العالم عن جوعى الماضي. حتى فنانونا وشعراؤنا تنتبه أحيانا، رغم الترف الذي قد يعيشون فيه، أن لهم قرابة رديئة، أن أسلافا مضطهدين وناقصي التغذية قد

مرروا في دمهم ومخهم عناصر كثيرة تعاود الظهور في الموضوع كذا أو الفرق المقصود كذا في عملهم. حضارة الإغريق حضارة رفاهية، رفاهية قديمة، لقد عاشوا خلال عدد من القرون أفضل منا (بكل المعاني، خاصة في بساطة أكثر من حيث المأكل والمشرب)، وهو ما منحهم في نهاية المطاف تلك العقول الحازمة والدقيقة، ذلك الدم المتدفق بسرعة، مثل الخمرة الصافية، الذي أظهرته أفضل مزاياهم ليس من خلال نشوة معتمة وعنيفة بل في وضوح ساطع الجمال.

185. عن الموت المعقول.

أيهما معقول أكثر، أن نوقف الآلة حين ينتهي العمل أم أن نتركها تدور حتى تتوقف من تلقاء نفسها، أي حتى تفسد ؟ أليس هذا الحل الأخير تبذيرا لمصاريف الصيانة وسوء استعمال لقوة المستخدمين ولتيقظهم ؟ ألسنا نبذر هنا دون جدوى ما قد نحتاجه في مكان آخر ؟ ألن يؤدي الاحتفاظ بكثير من الآلات واستعمالها استعمالا عبثيا إلى انتشار ازدراء لهذه الآلات على العموم ؟ ـ أتحدث عن الموت غير الطوعي (الطبيعي) والموت الطوعي (المعقول). الموت الطبيعي هو الذي لا يتعلق بتاتا بالعقل، الموت العبثي المحض، الذي تحدد فيه قشرة الجوز، هذه القشرة التي تدعو للرثاء، المدة الزمنية التي قد تعيشها اللوزة، الذي يكون فيه السجان الفاني، الذي غالبا ما يكون مريضا وخاملا، هو الذي يحدد اللحظة التي سيموت فيها سجينه النبيل. الموت الطبيعي انتحار للطبيعة، أي إفناء الكائن العاقل من طرف الكائن غير العاقل المرتبط به. وحدها الأضواء الدينية تبدو فيها الأشياء معكوسة لأن العقل الأسمى (عقل الرب) يصدر الأمر، كما ينبغي، الذي على العقل الأدنى أن يخضع له. أما خارج الفكر الديني فإن الموت الطبيعي لا يستحق التمجيد إطلاقا. ـ يدخل التنظيم الحكيم والتخطيط الحر للموت ضمن أخلاق المستقبل التي لا يمكن تصورها اليوم حيث تبدو لا أخلاقية، والتي ينبغي أن تكون رؤية فجرها يشرق سعادة لا توصف.

186. أثر النكوص.

كل المجرمين يجعلون المجتمع بالقوة يعود إلى مستويات حضارية أكثر بدائية من التي هو فيها الآن : إنهم يدفعونه إلى النكوص. فلنتفكر في الأدوات التي يجد المجتمع نفسه مرغما على الحصول عليها والاحتفاظ بها من أجل الدفاع الشرعي عن النفس : الشرطي، السجان، الجلاد، وكذلك المدعي العام والمحامي، ولنتساءل أخيرا إن لم يكن القاضي نفسه والعقاب والدعوى، من خلال تأثيرهم على غير المجرمين، ظواهر محبطة عوض أن تكون محمسة : إننا لن نفلح أبدا في إلباس الدفاع الشرعي عن النفس

والإنتقام لباس البراءة، وفي كل مرة نضحي فيها بإنسان كوسيلة لخدمة غايات المجتمع تتضرر الإنسانية كلها من ذلك.

187. الحرب كعلاج.

يمكن أن ننصح الشعوب التي تتعرض قواها لاستنزاف يدعو للرثاء أن تتخذ الحرب كعلاج، إذا افترضنا أنها تريد فعلا أن تستمر حية، لأن هناك الآن معالجة صدامية لضنى الشعوب. وتعتبر الإرادة الأبدية للحياة دون الموت، مع ذلك، علامة على شيخوخة المشاعر، كلما عشنا حياة كاملة وبقوة كلما كان استعدادنا سريعا لأن نمنح حياتنا من أجل شعور واحد جيد. الشعب الذي يحيا ويشعر بهذا الشكل لا يحتاج إلى حروب.

188. التطعيم الجسدي والمعنوي كعلاج.

الحضارات المختلفة مناخات مختلفة، وكل مناخ منها مضر أو صحي بالنسبة لهذا الجسم أو ذاك. يعتبر التاريخ في شموليته، باعتباره معرفة بمختلف الحضارات، هو الصيدلة وليس علم المعالجة ذاته. إن ما يزال ينقصنا بالخصوص هو الطبيب الذي يستخدم هذا الأقراباذين* ليرسل كل واحد إلى المناخ الذي يلائمه ـ مؤقتا أو دائما. العيش في الحاضر، في حدود حضارة واحدة، غير كاف كعلاج عالمي، إذ سيموت به عدد كبير من أصناف الرجال المفيدين جدا الذين لا يستطيعون التنفس فيه بشكل صحي. يجب، من خلال التاريخ، أن نعطيهم الهواء ونحاول الإبقاء عليهم، حتى رجال الحضارات المتخلفة لهم قيمتهم. ـ ولمصاحبة علاج العقول هذا يجب على الإنسانية، من جهة الجسد، أن تجهد في اكتشاف انحطاطات النوع والأمراض التي تسببها كل منطقة من مناطق الأرض، وبالعكس، اكتشاف عوامل الشفاء التي تقدمها، ويجب عندها تطعيم الشعوب والعائلات والأفراد ما تطلب الأمر ذلك ليتغلبوا على العيوب الجسدية الوراثية. وفي نهاية المطاف ستصبح الأرض كلها عبارة عن مجموعة كاملة من المؤسسات الصحية.

189. شجرة الإنسانية والعقل.

إن اكتظاظ الأرض بالسكان الذي تخشونه بقصر نظركم يمنح أكثر الناس تفاؤلا مهمتهم الكبرى : يجب أن تصير الإنسانية يوما ما شجرة تغطي هذا الكوكب بظلها، بملايير الملايير من الزهور التي ستعطي، واحدة بجانب الأخرى، ثمارها، كما يجب تهيىء الأرض ذاتها لتغذي هذه الشجرة. العمل على أن يزداد المشروع الحالي، الذي لايزال متواضعا، قوة ونسغا، أن يسري النسغ متدفقا في مجاري لا تحصى ليغذي الكل

والجزء، من هذه المهام ومثيلاتها سنستخلص المعيار الذي نحدد به إن كان رجل من رجال العصر الحاضر نافعا أم لا. هذه المهمة كبيرة وجريئة بشكل لا يوصف، وسنساهم جميعا في إنجازها لكيلا تفسد الشجرة قبل الوقت. لا ريب أن العقل التاريخي سينجح في أن يضع تحت أنظاره الطبيعة والنشاط الإنسانيين على مر السنين، مثلما لدينا تحت أنظارنا عالم النمل بمساكنه المبنية بشكل فني. إذا حكمنا من حيث الظاهر فإننا قد نقول أن الإنسانية ستتيح لنا الفرصة إجمالا، مثل النمل، لنتحدث عن «الغريزة». وعند التدقيق نتنبه إلى أن شعوبا وقرونا بأكملها تجهد في اكتشاف وتجريب وسائل جديدة قد تحقق بها ازدهار تجمع إنساني واسع، وفي النهاية ازدهار شجرة الإنسانية المثمرة في شموليتها، ومهما تكن الخسارة التي قد يتعرض لها الأفراد والشعوب والعصور إثر هذه التجارب فإنها تكون في كل مرة، بالنسبة لبعض الأفراد، خسارة تجعلهم حكماء، وببطء تنتشر حكمتهم لتشمل الإجراءات المتخذة من طرف شعوب وقرون بأكملها. النمل كذلك يخطئ ويخطئ في التمييز بين بعضه البعض، والإنسانية قد تنضني وتهزل قبل الأوان بسبب بلادة الوسائل، وليست هناك غريزة تقود النمل أو الإنسان بأمان. إن ما ينبغي فعله هو بالأحرى مواجهة هذه المهمة الكبيرة التي هي تهييء الأرض لتتلقى هذه النبتة بخصوبة قصوى ومرحة، ـ إنها مهمة الرشد بالنسبة للعقل.

190. أصل امتداح الغيرة.

منذ سنوات كانت هناك خصومات بين زعيمي قبيلتين جارين، كان كل واحد منهما يتلف زرع الآخر و ينهب قطعانه و يحرق منازله، ونتائج ذلك تفوق الوصف لأن قوتهما تكاد تكون متساوية. وكان هناك سيد قبيلة ثالث يقف محايدا في تلك الخصومات بفضل الموقع المعزول لأملاكه، ولكنه كان مع ذلك يخشى اليوم الذي يتفوق فيه أحد ذينك الجارين الخصمين، لذلك انتهى بالتدخل بينهما بإحسان وإجلال، وأعطى وزنا كبيرا لاقتراح السلام الذي تقدم به وذلك بأن جعل كل واحد منهما يفهم، حين حدثه على انفراد، أنه قد يقف مع الآخر ضد الذي قد يتمرد على السلم. واجتمعا بحضوره ووضعا، وهما يترددان، يديهما في يده، تلك اليدين اللتين كانتا حتى ذلك الحين وسائل الحقد، وغالبا ما كانت سببه، ـ وذاقا طعم السلم حقا. وقد رأى كل واحد منهما، باندهاش، ازدهاره ورفاهيته يزدادان فجأة، رأى أن جاره قد صار الآن تاجرا مستعداً للبيع أو الإشتراء بدل ذلك المجرم المحتال أو الوقح علانية، وأنهما يستطيعان، في حالة حدوث ضائقة غير متوقعة، أن يخرجا منها عوض أن يستغلاها إلى أقصى حد مثلما كانا دائما يفعلان من قبل، بل أكثر من ذلك، يبدو أن

النوع البشري قد صار أجمل في تينك البلدتين، لأن العيون قد أبصرت، والجبين لم يعد مقطبا، وصار الكل واثقا من المستقبل، ـ ولا شيء يفيد جسد الناس وروحهم مثل هذه الثقة. وصار الأسياد ورجالهم يلتقون كل عام يوم التحالف، وذلك بحضور الوسيط الذي يحظى تصرفه بالإعجاب والتقدير من طرفهم نظرا لضخامة المغنم الذي يدينون به له. كانوا يصفون تصرفه بأنه نزيه، ـ لقد كانت أنظار كل واحد مركزة على المنافع الشخصية التي تم جنيها منذ تم التصالح وليس على تصرف الجار لترى فيه شيئا آخر غير كون وضعه لم يتغير مثل وضعه هو، لقد ظل كما هو، وبدا بذلك أن الرجل لم يضع مصلحته نصب عينيه. ولأول مرة يقولون أن النزاهة فضيلة، لا شك أن أشياء مماثلة قد حدثت لديهم مرات عديدة، بشكل مصغر ومنفرد، ولكنهم لم يتنبهوا لهذه الفضيلة إلا حين كتبت على الحائط بحروف كبيرة ومقروءة للجماعة كلها. المزايا الأخلاقية التي تم الإعتراف بأنها فضائل، وأطلق عليها إسم، وصارت موضع احترام، وتم النصح بتبنيها، لم تصر كذلك إلا بدءاً من اللحظة التي حددت فيها بوضوح سعادة وتعاسة مجتمعات بأكملها، ونجد في الواقع أن كثافة الإحساس وتهييج القوى الإبداعية الداخلية كبيرين لدى الكثيرين إلى درجة أنهم يقدمون لهذه الفضيلة هدايا يأخذها كل واحد من أفضل ما لديه. الرجل الجدي يضع جديته عند قدميها، الكريم كرامته، النساء رقتهن، الشبان كل ممالك الأمل والمستقبل في كيانهم، و الشاعر يمنحها الكلمات والأسماء، مثلما يفعل الفنانون، بالتدله بالموضوع الذي ابتكره خياله كما بمعبود، ـ كما يعلم الناس التدله به. وهكذا يشتغل فيها حب وشكران الكل كما يشتغلان في صنع تمثال، وفي النهاية تصير الفضيلة مجموعة من الأشياء الجميلة والمبجلة، تصير ما يشبه معبدا وشخصا مقدسا في نفس الوقت. لقد صارت ترتدي زي فضيلة متميزة، زي كائن موجود بذاته، وهو ما لم تكنه حتى الآن، وصارت تمارس حقوق وسلطة فوإنسانية مقدسة. ـ لقد كانت المدن، لدى الإغريق المتأخرين، تعج بمثل هذه المجردات الإله ـ إنسانية (معذرة عن هذا المصطلح الفريد بسبب فرادة المفهوم)، لقد اتخذ الشعب، على طريقته، « سماء أفكار » أرضها أفلاطونية، ولا أظن أن السكان قد شعروا من جراء ذلك أنهم أقل حياة من أي إله هوميروسي قديم.

191. ساعات معتمة.

نسمي « ساعات معتمة »، في النرويج، تلك الساعات التي لا تشرق فيها الشمس: ولا تفتأ الحرارة حينها تنخفض. ـ إنها أجمل صورة بالنسبة لكل المفكرين الذين اختفت، بالنسبة لهم، شمس المستقبل مؤقتا.

192. فيلسوف.

جنينة، بعض التينات، بعض جبنات صغيرة، وثلاثة أصدقاء أو أربعة، تلك كانت عند أبيقور مأدبة غنية.

193. مراحل العمر.

مراحل العمر الحقيقية هي تلك اللحظات القصيرة التي يكون فيها توقف، بين مخامرة فكرة أو شعور قويين لنا وبين زوالهما. ثمة يحصل مرة أخرى إشباع : والباقي كله جوع وعطش ـ أو اشمئزاز.

194. الحلم.

أحلامنا هي، حين يحدث استثناء أن تكون موفقة وكاملة (لأن الحلم عادة ما يكون عملا مسفسفا)، اطراد رمزي من المشاهد والصور المرادفة للغة الشعر السردية، تصف هذه الأحلام تجارب حياتنا وآمالها وأوضاعها بجرأة ودقة شعريتين كبيرتين بحيث أننا دائما نندهش من أنفسنا عند الصباح حين نتذكرها. إننا نستهلك في أحلامنا مادة فنية كبيرة ـ لذلك نفتقر إليها أثناء النهار.

195. الطبيعة و العلم.

في العلم، تماما كما في الطبيعة، تكون المناطق الرديئة والأقل خصوبة هي التي يتم حرثها أولا، ـ لأن وسائل العلم في بداياته الأولى تكفي هذه المناطق بالكاد. فحرث المناطق الأكثر خصوبة يتطلب طرقا هائلة القوة ومطورة بعناية، تتطلب نتائج تم الحصول عليها بشكل منفصل، وزمرة منظمة من العمال، وزمرة عمال تم تكوينهم تكوينا جيدا، ولا يجتمع كل هذا إلا لاحقا، ـ الجزع و الطموح يسعيان في الغالب إلى وضع اليد على هذه المناطق الأكثر خصوبة، ولكن النتائج تكون حينها صفرا. في الطبيعة تتم معاقبة المستوطنين على مثل هذه المحاولات بالمجاعة.

196. الحياة ببساطة.

لقد صار شكل الحياة البسيطة الآن شيئا صعبا: إنها تستوجب من التأمل والتفكر والإبداعية أكثر مما نجده لدى الأذكياء. وربما يقول الأكثر صدقا من بينهم :« ليس لدي الوقت للتفكير فيها مليا. شكل الحياة البسيطة يشكل بالنسبة لي هدفا ساميا، وسأنتظر أن يعثر عليها من هم أحكم مني.»

197. أسنان حادة.

الخصوبة الضعيفة والعنس، والبرود الجنسي بشكل عام، لدى المفكرين السامقين والأكثر تحضرا، تماما كما التي لدى الطبقات التي ينتمون إليها، كلها أساسية لبنية الإنسانية. العقل يعترف بأن خطر خلف عصبي كبير جدا عند نقطة قصوى من التطور الفكري وينتفع بذلك: لأن أفراد ذلك الخلف هم أسنان الإنسانية الحادة، ـ ولا يجب أن تطول لتصير أكثر رقة وحدة.

198. الإنسان لا يقفز.

مهما يتطور الإنسان ويبد أنه يقفزعبر الموانع فإننا سنكتشف، إذا ما دققنا ملاحظاتنا، الوصلات التي يفترق فيها الصرح الجديد عن القديم. ثمة تكمن مهمة كاتب السيرة الغيرية، وهو ملزم بتصور الحياة حسب المبدأ القائل أنه ليس هناك أي إنسان يقفز.

199. نظيف ولا شك.

الذي يرتدي أسمالا نظيفة يكون مكسوا بشكل مناسب، ولكنه يبقى مكسوا بأسمال، رغم ذلك.

200. الوحيد يتكلم.

الأجرة التي نحصل عليها مقابل كثير من النفور، من الغم، ومن الضجر (كل الأشياء التي تتضمنها بالضرورة وحدة لا أصدقاء فيها ولا كتب ولا واجبات أو هوايات)، هي تلك الفسح الزمنية من التوحد العميق مع الذات ومع الطبيعة. الذي يتحصن ضد الضجر إنما يتحصن ضد نفسه : إذ لن يتاح له أبدا تناول أكثر الجرعات المنشطة من نبعه الداخلي الخاص.

201. شهرة مزيفة.

إنني أكره هذا الجمال المزعوم الذي ليست له أية دلالة، في الواقع، إلا من خلال المعرفة الجغرافية، ولكنه يبقى في ذاته فقيراً بالنسبة لفكر متعطش للجمال : مثل بانوراما جبل القمة البيضاء (mont blanc) منظورا إليه من جنيف ـ إنه شيء تافه لولا النجدات الفورية التي تقدمها فرحة المعرفة، وهي فرحة عقلية*، فالجبال الأخرى كلها هناك أجمل وأبلغ في التعبير، ـ ولكنها « ليست أعلى، شتان ما بينها وبينه »، تضيف هذه المعرفة المنافية للعقل على سبيل التلطيف. العين تناقض المعرفة، والحالة هذه : وكيف يمكنها في هذه المناقضة أن تشعر بمتعة حقيقية.

202. في رحلة ترفيهية.

إنهم يتسلقون الجبل مثل حيوانات، أغبياء وعرقى، لقد نسي الآخرون أن يقولوا لهم بأن هناك مناظر جميلة على طول طريقهم.

203. قليل وقليل جدا.

لقد صار الناس يعيشون أكثر الآن، ولكنهم يفكرون قليلا جدا، إنهم يشعرون بجوع شديد وبمغص في نفس الوقت، بحيث أنهم لا يفتأون يزدادون نحافة رغم كل ما يلتهمونه. ــ بليد من يقول اليوم: « لم يصبني شيء ».

204. النهاية والهدف.

ليست كل نهاية هدفا. فنهاية اللحن ليست هدفه، ومع ذلك، إذا لم يبلغ اللحن نهايته فإنه لن يكون قد حقق هدفه. هذا غموض.

205. حياد الطبيعة.

يعجبنا حياد الطبيعة (في الجبل، في البحر، في الغابة وفي الصحراء)، ولكن لبعض الوقت فقط، ثم نتبرم من ذلك. « أليس لدى هذه الأشياء حقا ما تقوله لنا؟ ألا ترى أننا هنا ؟» وينجم عن ذلك شعور بأن ذلك جريمة ترتكب في حق جلالة الإنسان.

206. نسيان النوايا.

عادة ما يجعلنا السفر ننسى الغاية من ورائه. كل المهن تقريبا يتم اختيارها وممارستها كوسيلة لتحقيق غاية ما، ولكن يتم الإستمرار في ممارستها كغاية أخيرة. نسيان النوايا هو أكثر حماقة نرتكبها مراراً وتكرارا.

207. مسار الفكرة الشمسي.

حين تبدو فكرة ما في الأفق عادة ما تكون الروح باردة جدا. وشيئا فشيئا تزيد الفكرة من حرارتها، وتكون ملتهبة (يكون لها أكبر الأثر) في الوقت الذي تكون فيه الفكرة آيلة للأفول.

208. كيف نجعل الكل يقف ضدنا.

لو أن أحدا تجرأ في الوقت الحاضر وقال: « كل من ليس معي فهو ضدي »، لوجد في الحين كل الناس ضده. ــ هذا الشعور يشرف قرننا.

209. خجل المرء من غناه.

لا يطيق قرننا سوى صنف واحد من الأغنياء، أولئك الذين يخجلون من غناهم. فإذا ما سمعنا أحدا يقال عنه :« إنه غني جدا » فإننا نشعر في الحين بنفس ما نشعر به لدى رؤية مرض ذي تورمات منفرة، أو بدانة أو استسقاء (hydropisie)، ويجب أن نتذكر إنسانية ذلك الغني لنتمكن من معاشرته دون أن يشعر بشيء من اشمئزازنا. ولكن بمجرد ما ينتفع قليلا بغناه فإنه يهتم بشعورنا بدهشة تكاد تكون شفوقة لدى رؤيتنا هذه الدرجة العالية من الغباوة الإنسانية حتى إننا لنرغب في أن نرفع الأيدي إلى السماء ونصرخ :« أيها الرجل المسكين المشوه، الرازح تحت عبء ثقيل، الراسف في مآت الأغلال، الذي تأتيه، أو قد تأتيه، كل ساعة بشيء مزعج، الذي ينعكس في أعضائه أدنى حدث يعرفه عشرون شعبا مختلفا، كيف ستجعلنا نصدق أنك بخير في مثل هذه الحال! في كل مرة تظهر فيها للعموم في مكان ما نعلم أنك تمر بمقارع، تحت أنظار لا تكن لك سوى الضغينة، عدم التحفظ، والسخرية المضمرة. قد تكون مكاسبك أسهل من مكاسب الآخرين، ولكنها مكاسب لا طائل من ورائها، فهي تمنح القليل من المتعة، وطريقتك في الحفاظ على ما اكتسبته هي الآن على كل حال أشق من أي عمل لكسب القوت. إنك تعاني باستمرار، لأنك تخسر باستمرار. ماذا يجديك هذا الدم الاصطناعي الذي يحقنونك به دون توقف أو استراحة : ــ ولكن، لا نكونن جائرين، إنه من الصعب عليك، إن لم يكن مستحيلا، ألا تكون غنيا، إنك مجبر على الحفاظ على ما لديك، مجبر على الكسب باستمرار، هذا الميل الوراثي في طبعك هو النير الذي ترزح تحته، ــ ولكن لا تخدعنا مع ذلك، اخجل بكل صدق ووضوح من هذا النير، بما أنك في قرارة نفسك ضجر منه وساخط عليه. فهذا الخجل ليس مخزيا.»

210. الإفراط في الإدعاء.

هناك ناس مغرورون جدا لحد أنهم لا يعرفون كيف يمدحون شخصية بارزة يظهرون إعجابهم بها أمام الملأ إلا بإبرازها كمرحلة تمهيدية، كقنطرة تؤدي إليهم هم.

211. على أرض الخزي.

الذي يريد أن يجرد الناس من فكرة ما لا يكتفي عادة بدحضها وإخراج دودة اللامنطق الموجودة فيها، إنه يرمي بالثمرة كلها في الوحل بعد أن يكون قد قتل الدودة، وذلك ليحط من قيمتها في أعين الناس ويجعلهم يشمئزون منها. إنه يعتقد أنه بهذا قد وجد الوسيلة لجعل « بعث اليوم الثالث »، الشائع بشأن الأفكار التي تم دحضها،

مستحيلا. ــ ولكنه مخطئ، لأن نواة الفكرة سرعان ما تنبت فسائل جديدة على أرض الخزي، وسط القاذورات. ــ إذن لا يجب علينا إطلاقا أن نشين ونوسخ ما نريد إلغاءه بشكل نهائي، ولكن أن نضعه باحترام في الثلج، ونعيد وضعه فيه بدون كلل، معتبرين أن للأفكار حياة عنيدة. يجب هنا أن نتصرف حسب الحكمة القائلة :« الدحض لا يدحض شيئا.»

212. مصير الأخلاقية.

بما أن عبودية العقول تتقلص فإن الأخلاقية (طريقة التصرف الوراثية، التقليدية والغريزية، تبعا للأحاسيس الأخلاقية) تتقلص هي الأخرى بكل تأكيد، ولكن ليس الفضائل المتميزة مثل الإعتدال والعدل وطمأنينة الروح، ــ لأن أكبر حرية للفكر تقود إليها بشكل تلقائي أولا ثم توصي بها على أنها نافعة.

213. ضمانة المتطرف في الإرتياب.

الشيخ : تريد أن تجرب المهمة الفائقة الحد، مهمة تعليم الإنسانية العظيمة ؟ أين ضمانتك ؟ ــ بيرون (Pyrrhon) : ها هي : أريد أن أجعل الناس على حذر مني، أريد أن أعترف أمام الملأ بكل عيوب طبعي وأكشف لكل الأنظار أحكامي المتسرعة، تناقضاتي وغباوتي. لا تسمعوني، سأقول لهم، ما لم أصر مثل أكثركم تواضعا، بل أكثر تواضعا منه، ثوروا على الحقيقة ما استطعتم بسبب اشمئزازكم من الذي يبشر بها. سأغويكم وأخدعكم ما وجدتم في أدنى بريق من الشرف والكرامة. ــ الشيخ : إنك تعد بأكثر مما قد تستطيع الوفاء به. ــ بيرون : إذن سأقول للناس أيضا أني ضعيف وعاجز جدا عن الوفاء بوعودي. فكلما كانت دناءتي كبيرة كلما ارتابوا في الحقيقة إن صدرت عني. ــ الشيخ : تريد إذن أن تعلمهم الإرتياب في الحقيقة ؟ ــ بيرون : الإرتياب الذي لم يعرفه العالم أبدا من قبل. الإرتياب في كل شيء. إنها السبيل الوحيدة المؤدية إلى الحقيقة. لا ينبغي للعين اليمنى أن تثق في العين اليسرى، ولابد أن يسمى النور ظلمة لفترة ما : هذه هي السبيل التي عليكم اتباعها. لا تعتقدوا أنها ستقودكم إلى الأشجار المثمرة والحقول الجميلة. سوف تجدون فيها بذورا صغيرة قاسية، ــ تلكم هي الحقائق. سيكون عليكم خلال عشرات السنين أن تبتلعوا حفنات من الكذب، وأنتم تعلمون أنه كذب، لئلا تموتوا جوعا. وتلك البذور سيتم بذرها وطمرها، وربما سيكون هناك يوم حصاد، لا أحد يستطيع الوعد بذلك عدا المتطرف. ــ الشيخ : أيها الصديق! كلماتك هي أيضا كلمات متطرف! ــ بيرون : أنت على حق! سأرتاب في كل الكلمات. ــ الشيخ : إذن سيكون عليك أن تلزم الصمت.

ـ بيرون : سأقول للناس أنه علي أن ألزم الصمت وأن عليهم الاحتراس من صمتي. ـ الشيخ : هل تتراجع وتتخلى عن مشروعك ؟ ـ بيرون : ليس الأمر كذلك... ها قد أريتني الباب الذي علي أن أمر منه. ـ الشيخ : لست أدري... ألازلنا نتفاهم جيدا ؟ ـ بيرون : ربما لا. ـ الشيخ: حسبك أن تفهم نفسك أنت جيدا ! ـ بيرون يستدير ويضحك. ـ الشيخ: آه يا صديقي! أن تضحك ثم تصمت... أتلك هي الفلسفة كلها الآن ؟ ـ بيرون : إنها لن تكون بذلك هي الأسوأ...

214. كتب أوربية.

حين نقرأ مونطيني، لا روشفوكو، لا برويير، فونتنيل (وخاصة حوارات الموتى)، ڤوڤنارغ، وشومفور، فإننا نكون أقرب إلى القدم (antiquité) منه حين نقرأ أية مجموعة من ستة مؤلفين من الأمم الأخرى. لقد بعث هؤلاء الستة روح القرون الأخيرة من العهد القديم، ـ إنهم يشكلون جميعا حلقة مهمة في سلسلة النهضة، وهي سلسلة كبيرة لم تنقطع بعد. كتبهم تسمو على تغيرات الذوق القومي وعلى الفروق الفلسفية التي يتقزح بها عادة كل مؤلف، في الوقت الحاضر، وهو ما يجد صاحبه نفسه مرغما على فعله إن هو أراد له الشهرة : إن كتبهم تضم من الأفكار الحقيقية أكثر مما تضمه كتب الفلاسفة الألمان مجتمعين، وهي أفكار من الصنف الذي ينتج أفكارا، والذي... إني أشعر بالحرج، لذا لن أكمل تعريفي، يكفي أنهم يبدون لي مؤلفين لم يكتبوا لا للأطفال ولا للمتحمسين، لا للعذارى ولا للمسيحيين، لا للألمان ولا لـ... أجد نفسي محرجا مرة أخرى، لذا لن أكمل لائحتي. ـ وهذا هو التقريظ الدقيق الذي اقترحه : لقد كانوا جديرين بأن يكتبوا باللغة الإغريقية ويفهمهم الإغريق. حتى أفلاطون ماذا كان سيستطيع إجمالا أن يفهمه من أعمال أفضل المفكرين الألمان، غوته أو شوبنهاور مثلا، حتى لا نقول شيئا عن النفور الذي سيشعر به من أسلوبهم بما يتضمنه من غموض وتفخيم، ومن هزالة أحيانا، ـ وهي عيوب يعاني منها غوته وشوبنهاور بشكل أقل، ولكنهما مع ذلك يعانيان كثيرا (حين يتحول غوته إلى مفكر فإنه يلذ له أكثر من اللائق أن يعانق السحاب، وشوبنهاور يتحرك باستمرار، وإن كان ذلك يعذبه كثيرا، بين صور الأشياء عوض أن يتقدم بين الأشياء ذاتها). ـ على العكس من ذلك نجد لدى هؤلاء الفرنسيين وضوحا ودقة رشيقة كبيرين. حتى الإغريق ذوي السمع المرهف كانوا سيجدون أنفسهم مرغمين على تذوق هذا الفن، وهناك فيه ميزة كانوا سيعجبون بها ويتدلهون بها، إنها روحية التعبير، وهو شيء كانوا يحبونه كثيرا دون أن يكونوا بارعين فيه.

215. الموضة والعصري .

حيثما يزدهر الجهل والوسخ والخرافة، حيثما تكون المبادلات ضعيفة، الزراعة فقيرة، ورجال الدين أقوياء، تتواجد كذلك الأزياء القومية. في المقابل، تسود الموضة هناك حيث توجد أمارات عكس هذا. الموضة إذن ترافق مزايا أوربا الحالية، فهل تكون هي جانب الظل منها ؟ ـ قبل كل شيء، يظهر الزي الرجالي، الذي صار موضة ولم يعد قوميا، أن الذي يرتديه، أي الأوربي، لا يريد أن يظهر كفرد ولا كعضو في طبقة أو أمة، أنه قد اتخذ لنفسه قانونا ليخنق عن قصد أشكال الغرور هذه، ثم أنه عامل وقلما يجد الوقت ليتأنق في لباسه ويتبهرج، أنه يجد أثمن وأفخر ما في الثوب وفي طريقة ارتدائه مناقضا لعمله، وأخيرا أنه بلباسه يشير إلى مهن أكثر علمية وفكرية من تلك التي هو قريب، أو يود القرب، منها باعتباره أوربيا، بينما نجد أن قاطع الطريق، الراعي أو الجندي هم الذين يبرزون عبر الأزياءالقومية التي ماتزال قائمة الوجود، بوصفهم الحالات المرغوبة والمنظمة لعادات المجتمع. وفي إطار الموضة الرجالية العام تأتي بعد ذلك تلك التنوعات الصغيرة التي يثيرها غرور الشباب والمتأنقين والعاطلين في المدن الكبرى، أي أولئك الذين لم ينضجوا بعد كأوربيين. ـ أما النساء الأوربيات فقد فعلن ذلك بشكل أقل بكثير بحيث أن التنوعات أكبر لديهن، هن أيضا لا يردن الطراز القومي ويكرهن، كألمانيات وفرنسيات وروسيات، أن يعرفن من زيهن، ولكنهن يحببن أن يتم تمييزهن فرديا. كما أن الأمر يتعلق بألا يتركن أحدا يشك، من خلال ثيابهن، أنهن ينتمين إلى طبقة اجتماعية معتبرة (إلى طبقة « جيدة » أو « راقية »، أو إلى طبقة «الأعيان»)، ويردن كذلك الإخطار بالأحرى، من هذا الجانب، أنهن لسن، أو فقط بالكاد، من تلك الطبقة. ولكن الشابة لا تريد أن ترتدي شيئا مما ترتديه المرأة المتقدمة في السن قليلا لأنها تعتقد أنها ستفقد احترام الناس إن خطر ببالهم أنها مسنة، أما المسنة فتريد خداع الناس أطول وقت ممكن من خلال تزينها، ـ وينتج عن هذا التنافس دائما، لبعض الوقت، موضات يظهر فيها الشباب الحقيقي بشكل واضح جدا وغير قابل للتقليد. حين تنتشي روح الإبتكار لدى الفنانين الشباب، لبعض الوقت، بمثل استعراضات الشباب هذه، أو، لكي نقول كل الحقيقة، حين يطلعون مرة أخرى على الروح الإبداعية في الحضارات القديمة المهذبة مثلما يطلعون على الروح الإبداعية التي ماتزال قائمة من أمم سابقة، وبشكل عام، على البلدان التي يرتدي سكانها الملابس، وبربطهم مثلا بين الإسبان والأتراك والإغريق القدامى فيما يتعلق بلون بشرتهم، فإنهم ينتهون إلى أنهم لم يفهموا مصلحتهم أفضل ما يمكن، وأن لعبة التخبئة cache) (cache مع الجسم أسعد حظا من الصدق العاري أو شبه العاري من حيث التأثير في

الناس، وهكذا تدور عجلة الذوق والغرور في الإتجاه المعاكس، فالنساء المسنات قليلا يعتقدن أن عهدهن قد حان، ومن جديد يشتعل الصراع بين الكائنات الفاتنة والبليدة. ولكن كلما كبرت النساء باطنيا وكففن فيما بينهن، مثلما حدث حتى الآن، عن منح التفوق لطبقات العمر الأقل نضجا، كلما قل هذا التنوع في زينتهن، وكلما صارت حليتهن بسيطة، ولا ينبغي أن نحكم على هذه من خلال النماذج القديمة، أي حسب قواعد اللباس لدى سكان الضفاف الجنوبية*، ولكن أخذا بعين الاعتبار للظروف المناخية في المناطق المتوسطة والشمالية من أوربا، وإجمالا، تلك المناطق التي اختارتها موطنا لها تلك العبقرية التي تبتكر روح أوربا وأشكالها. ـ إجمالا، لن تكون العلامة المميزة للموضة والعصري هي التغيير، الذي هو علامة تخلف، الخاص بالأوربيين، رجالا ونساء، الذين لم ينضجوا بعد، بل ستكون هي رفض الغرور، سواء كان قوميا، طبقيا، أو فرديا. وبمقتضاه يمكننا أن نهنئ أنفسنا، لأنه اقتصاد للقوة وللزمن أن تتصور بعض مدن ومناطق أوربا أشكال اللباس. وليس مطمحا عاليا جدا أن تدعي باريز، ما دامت هذه التنوعات، أنها المبتكر والمجدد الوحيد في هذا الميدان. وإذا ما أراد ألماني حاقد على ادعاء باريز هذا أن يتزيا بشكل مخالف، مثلا كما كان يلبس ألبرت دورر (Dürer)، فإنه عليه أن يفكر جيدا في كونه سيرتدي حينها زيا كان الألمان يرتدونه فيما مضى، ولكنهم لم يكونوا هم من ابتكره، ـ لم يكن هناك أبدا زي يميز الألمان، وسيمكنه، علاوة على ذلك، أن يرى كيف سيبدو في ذلك الزي، هذا إن لم يعترض أحد الوجوه العصرية، بكل القسمات والتجاعيد التي نحتها عليه القرن التاسع عشر، على التزيي على طريقة دورر. ـ هنا، حيث يكاد يتساوى مفهومي «عصري» و«أوربي»، نعني بأوربا أرضا أكبر مما تضمه أوربا الجغرافية التي تشبه جزيرة صغيرة من آسيا : فأمريكا جزء من أوربا نظرا لأنها ابنة حضارتنا. من جهة أخرى، لا تشمل فكرة الحضارة « الأوربية » أوربا كلها، ولكن فقط تلك الشعوب والأجزاء من الشعوب التي لها ماض مشترك في الهلينية، في اللاتينية، في اليهودية والمسيحية.

216. « **الفضيلة الألمانية** ».

لا مراء أن أوربا قد عرفت تيارا من النهضة الأخلاقية منذ نهاية القرن الماضي. وفي هذا الوقت عادت الفضيلة فصيحة من جديد، لقد تعلمت أن تعثر على سلوكات السمو والإنفعال التلقائية، وكفت عن الخجل من نفسها وصاغت فلسفات وأشعارا لمجدها. إذا بحثنا عن أصل هذا التيار نجد أولا روسو، ولكن روسو الأسطوري الذي تخيلناه من خلال الإنطباع الذي خلفته لدينا أعماله (ونكاد نقول من خلال أعماله

التي فسرت أسطوريا) ومن خلال الإشارات التي أعطاها لنا هو نفسه (هو وجمهوره يصوغان باستمرار هذه الشخصية المثالية). نقطة الإنطلاق الأخرى هي إحياء الأسلوب الرواقي* الروماني الرفيع، هذا الإحياء الذي تابع به الفرنسيون غاية ما تكون المتابعة عمل النهضة. وبنجاح باهر مروا من إعادة ابتكار الأشكال القديمة إلى إعادة ابتكار الميزات القديمة، بحيث أنه سيكون لهم الحق إلى الأبد في الأمجاد الرفيعة نظرا لكونهم هم الشعب الذي أعطى الإنسانية الحديثة إلى حد الآن أفضل الرجال. إننا نرى كيف كان تأثير هذا النموذج المزدوج، نموذج روسو الأسطوري ونموذج الروح الرومانية التي تم إحياؤها، على الجيران الضعفاء من خلال مثل ألمانيا، فإثر انطلاقتها الحديثة وغير المعتادة نحو العظمة الصارمة عظمة الإرادة والتحكم في الذات انتهت ألمانيا إلى الإندهاش من فضيلتها الجديدة وإطلاق مفهوم « الفضيلة الألمانية »، وكأنه ليس هناك شيء أصيل ووراثي أكثر منها. العظماء الأوائل الذين أخذوا على عاتقهم هذا الحث الفرنسي على العظمة الواعية، عظمة الإرادة الأخلاقية، كانوا أمناء ولم ينسوا الشكران. ما مصدر أخلاقية (moralisme)* كانط ؟ إنه يلحن بذلك باستمرار : روسو ونهضة الرواقية الرومانية. وأخلاقية شيلر : نفس المصدر، ونفس التمجيد لهذا المصدر. وأخلاقية بتهوڤن في الموسيقى : إنه الثناء الأبدي على روسو، على الفرنسيين الذين يحذون حذو القدماء، وعلى شيلر. « الشباب الألماني » كان أول من نسي الإعتراف بالجميل، لأنه في غضون ذلك أصغى للذين يدعون إلى الحقد على الفرنسيين بينما كان هو للحظة يحتل مقدمة المسرح بجدارة أكثر مما يسمح به للشبان الآخرين. بشروعه في البحث عن أجداده كان له الحق في التفكير في قرابة شيلر، فيخت، وشليرماخر، وقد كان عليه أن يبحث عن أجداده في باريز أو جنيف، أما الإعتقاد مثلما كان يفعل هو بأن الفضيلة لم يكن عمرها يتعدى ثلاثين سنة فهو رؤية قصيرة النظر. حينها اعتاد الناس التطلب أن تثير كلمة « ألماني »، بالتبعية، فكرة الفضيلة، ـ ولاتزال هذه العادة سارية حتى الآن. ــ ولنسجل بلا إلحاح أن هذا الإنبعاث الأخلاقي الذي ذكرناه لم يجلب لمعرفة الظواهر الأخلاقية، مثلما قد تكونون حزرتم، سوى أضرار وميول نكوصية. ما هي الفلسفة الأخلاقية الألمانية كلها، بدءاً من كانط، ومعها مجموعة الكتاب والمقلدين لها من أصل فرنسي، انجليزي، وإيطالي ؟ إنها مؤامرة شبه لاهوتية ضد هلفتيوس*، رفض للمنظورات الحرة التي تم اكتسابها بشكل بطيء وشاق، للإشارات التي أحسن جمعها وإعلانها والتي تبين الطريق القويم. لايزال هلفتيوس إلى اليوم هو أكثر الأخلاقيين الجيدين والرجال الطيبين الذي تم شتمه في ألمانيا.

217. كلاسيكي ورومانسي.

ينمي ذوو الميول الكلاسيكية أو الرومانسية (وهما صنفان يوجدان في نفس الوقت) رؤية مستقبلية، الأوائل باعتمادهم على قوة عصرهم، والأواخر على ضعفه.

218. تعليم الآلة.

تعلمنا الآلة من خلال طريقة عملها كيف تحشد جماعات من الرجال في عمليات تقوم فيها كل جماعة بشيء واحد فقط. إنها تعطي نموذج تنظيم الأحزاب وتسيير الحرب. ما لا تعلمه، في المقابل، هو ضبط النفس. إنها تجعل من عدد كبير من الناس آلة واحدة، ومن كل فرد أداة ذات غاية وحيدة. والتأثير العام الذي يكون لها هو تعليم الناس فائدة التجمع.

219. غير حضري.

يقطن المرء المدينة الصغيرة عن طيب خاطر، ولكنها من حين لآخر، حين تصير شفافة كثيرا بالنسبة له، تدفعه للذهاب إلى حضن الطبيعة المتوحدة التي قلما استكشفها الإنسان.وأخيرا، ولكي يشفى من تلك الطبيعة، يذهب إلى المدينة الكبيرة. بعد أن يتجرع منها بضع جرعات يستشعر ثمالة تلك الكأس، ـ وتبدأ الدورة من جديد متخذة من المدينة الصغيرة نقطة انطلاق. ـ وهكذا يحيا العصريون : وهم، في كل الأشياء، أعمق كثيرا بحيث لن يكونوا حضريين مثل رجال العهود الماضية.

220. رد فعل ضد حضارة الآلة.

لا تستخدم الآلة، التي هي نتاج الملكة الفكرية العليا، لدى الذين يستخدمونها سوى الطاقات الدنيا وليس الفكر. وبفعلها ذلك تطلق كمية هائلة من الطاقة التي لولاها لظلت كامنة، هذا صحيح، ولكنها لا تدفع المرء إلى التسامي، إلى القيام بما هو أفضل، لأن يصبح فنانا. إنها تجعله نشطا مكرراً نفس العمل بانتظام، ـ ولكن هذا يثير على التمادي رد فعل، يثير في الروح ضجرا يائسا تتعلم من خلاله أن تطمح إلى تسليات الكسل.

221. الجانب الخطير في فلسفة الأنوار.

تشكل مجموعة من الملامح شبه المعتوهة، المسرحية، الفظة بشكل بهيمي، الشهوانية، وخصوصا ذات العاطفة الدائمة الإستعداد للإنتشاء من ذاتها، تشكل الملك الثوري الخاص، وكانت قد تجسدت، قبل الثورة، في شخص روسو وعبقريته : والحالة

أن الشخص الذي تعرفه قد عرف، بحماس خادع، كيف يضع فلسفة الأنوار على رأسه المتعصب، وصارت هذه الفلسفة تشع وكأنما جملتها هذه الهالة، تلك الأنوار التي كانت مجهولة لديه في الواقع والتي، بتصرفها من تلقاء ذاتها، كانت ستخترق الغيوم بهدوء مثل شعاع ساطع، راضية لمدة طويلة بإصلاح الفرد فقط، بحيث أنها كانت ستصلح عادات ومؤسسات الشعوب كذلك، وإن كان ذلك سيتم ببطء. ولكنها صارت منذ تلك اللحظة عنيفة ووحشية نظرا لارتباطها بظاهرة عنيفة ووحشية. وصار الخطر الذي تمثله تقريبا أكبر من عنصر التحرير والتنوير، وهو عنصر مفيد، الذي أدخلته في الحركة الثورية الواسعة. ومن يدرك هذا سوف يدرك كذلك اللبس الذي يجب إخراجها منه والقذارة التي يجب تطهيرها منه، قصد متابعة عمل الأنوار بعد ذلك، بالنسبة لها، وخنق الثورة في المهد، بعد برهة، وكأنها لم تكن.

222. الهوى في العصر الوسيط.

كان العصر الوسيط عصر الأهواء الكبيرة. فلا القدم ولا عصرنا لهما حجم الروح الهائل هذا، لقد بلغت أقصى مداها في ذلك العصر، القوة البدنية، حيوية الغابة البدائية غابة الشعوب المتوحشة والعيون المشعة، اليقظى، الصبوية، وكذلك النضج المفرط، إرهاق العمر، وحشية السبع وتهذيب الروح حد اللطف المتكلف إبان القدم المتأخر، ـ لم يكن نادرا أن يجتمع كل هذا في شخص رجل واحد، وحين كان الهوى يتملك شخصا ما، في هذه الظروف، يكون على سيول الروح أن تكون أعنف من أي وقت آخر، على الدردور أن يكون أكثر غموضا، وعلى الشلال أن يكون أعمق. ـ سنتجرأ، نحن المحدثون، على تحمل نصيبنا من الخسارة التي أصابتنا هنا.

223. النهب والإدخار.

كل تيارات الفكر تمضي قدما حين يأمل، من ورائها، الكبار أن يسرقوا، والصغار أن يدخروا. وهذا هو ما جعل الإصلاح الألماني يتقدم.

224. أرواح فرحة.

لقد كان يكفي التلميح، ولو من بعيد، إلى الشرب، إلى النشوة وإلى نوع منفر من الفجور لتصير روح الألمان القدامى فرحة، ـ أما بقية الوقت فيكونون حزانى، ويكون لهم في الحزن نوع خاص بهم من الذكاء الكبير.

225. الفسق في أثينا.

حتى حين وجد سوق السمك في أثينا شعراءه ومفكريه استمر الفسق الإغريقي في الإحتفاظ بمظهر غزلي ومهذب أكثر من مظهر الفسق الروماني أو الألماني. لقد بدا فيه صوت جوفينال (Juvénal) الرنان مقعرا، وأجابته ضحكة لطيفة وشبه طفولية.

226. حكمة الإغريق.

بما أن الرغبة في الإنتصار والهيمنة هي إحدى سمات الطبيعة التي لا تقاوم، وهي أقدم وأكثر بدائية من احترام المساواة والتمتع بها، فإن الدولة الإغريقية قد أقرت المصارعة الرياضية والشعرية بين الأنداد، أي تحديد حلبةيمكن فيها إشباع هذه الغريزة دون تهديد النظام السياسي. ومع انحطاط المصارعة الرياضية والشعرية غرقت الدولة الإغريقية في الاضطرابات والتفسخات الداخلية.

227. « أبيقور الخالد »*.

لقد عاش أبيقور في كل العصور، ولايزال يحيا حتى الآن، مجهولا من طرف أولئك الذين قالوا، ويقولون، عن أنفسهم أنهم أبيقوريون، وغير مشهور لدى الفلاسفة. وقد نسي هو أيضا كل شيء، حتى اسمه : وهو أثقل متاع تخلص منه.

228. أسلوب التفوق.

نجد أصل الألمانية المدرسية، التي هي لغة الطالب الألماني، لدى الطلاب الذين لا يدرسون، الذين يعرفون كيف يحققون نوعا من التفوق على زملائهم المجدين من خلال اكتشافهم لما قد يكون من تصنع في الثقافة، في الأخلاقية، في التنقيب، في القاعدة، في الإعتدال، وبجعلهم على طرف لسانهم تلك الكلمات التي أخذوها من هذه الميادين، تماما مثل النخبة والمتعلمين، ولكن مع مكر في النظرة ومداجاة مصاحبة لها. والحالة هذه، فإن رجال الدولة والنقاد الذين يعملون في الصحافة يتكلمون عن غير قصد لغة التفوق هذه ــ وهي وحدها الأصلية في ألمانيا ــ، إنها عبارة عن سلسلة لا تنقطع من الإستشهادات الساخرة، من الغمزات غير المباشرة يمنة ويسرة، غمزات قلقة وعدوانية، إنها ألمانية المزدوجتين (guillemets) والتقطيبات.

229. المدفونون.

إننا نأوي إلى السر، ليس بسبب غم شخصي، مثل عدم رضانا عن الأوضاع السياسية والإجتماعية في الوقت الحاضر، ولكن لأننا نريد، من خلال خلوتنا، أن ندخر

ونراكم طاقات ستحتاجها الحضارة حتما فيما بعد، أما الحاضر فيقوم هو نفسه بمهمته. إننا نكون رأسمالا ونسعى لحمايته، ولكننا نفعل ذلك، كما في العصور التي تعرف خطرا داهما، من خلال دفنه.

230. طغاة العقل.

في عصرنا الحاضر قد نعتبر مريضا كل من قد يكون تجسيدا صارما لسمة أخلاقية واحدة ووحيدة مثلما هي شخوص ثيوفراست وموليير، وسنتحدث بشأنه عن « فكرة جامدة ». لو أمكننا زيارة أثينا القرن الثالث لبدت لنا آهلة بالحمقى. واليوم تسود ديمقراطية الأفكار في رأس كل إنسان، ـ وسيدها عدد كبير مجتمع من الأفكار، والفكرة المنفصلة التي تريد الهيمنة نسميها الآن، كما أسلفنا، « فكرة جامدة ». هذه هي طريقتنا في قتل الطغاة، ـ في إيداعهم مستشفى المجانين.

231. أخطر الهجرات.

هناك في روسيا هجرة الذكاء : يعبر الناس الحدود ليقرأوا كتبا جيدة أو ليؤلفوها. وهم بهذا يعملون ليجعلوا من بلدهم الذي هجره العقل الفم المتقدم لآسيا التي تود فعلا ابتلاع أوربا الصغيرة.

232. المتعصبون للدولة.

حين انتهت الملكية عند الإغريق انتقل حبهم شبه المقدس للملك إلى الحاضرة. وبما أن الفكرة تتحمل الحب أكثر من الشخص، خاصة وأنها لا تقسو على محبها في الغالب مثلما يفعل المحبوبون (لأنهم كلما عرفوا أنهم محبوبون كلما صاروا قساة، في الغالب، إلى أن يصيروا في النهاية غير جديرين بالحب ويحدثوا قطيعة حقيقية) فقد كان تبجيلهم للحاضرة أكثر من أي تبجيل ناله الأمير. الإغريق هم متعصبوا الدولة في التاريخ القديم، ـ وفي التاريخ الحديث هناك شعوب أخرى.

233. ضد المهملين لعيونهم.

ألن نكتشف، ربما، كل عشر سنوات، لدى الطبقات الأنجليزية المثقفة التي تقرأ التايمز نقصا في الرؤية.؟

234. الأعمال والإيمان.

هذا أنجز أعمالا عظيمة، ورفيقه كان له إيمان كبير بهذه الأعمال. إنهما متلازمان، ولكن من البديهي أن الأول يتوقف على الثاني.

235. الإجتماعي.

« لا أهضم نفسي جيدا » قال أحدهم ليشرح اجتماعيته، « معدة المجتمع أقوى من معدتي، فهي تتحملني.»

236. المفكر الذي يغمض عينيه.

حتى وإن كنا مدربين ومتعودين على التفكير في الفعل فإننا سنكون مرغمين، حين نأتي الفعل (حين نكتب رسالة أو نأكل ونشرب)، أن نغمض عيوننا الداخلية. يجب علينا أن نعرف كذلك، ونحن نجري حوارا مع أناس عاديين، كيف نفكر وعيوننا مغلقة، ـ حتى ندرك الفكرة العادية ونفهمها. وإغلاق العينين بهذه الطريقة فعل ممكن الإدراك، ويمكن القيام به عن قصد.

237. أبشع انتقام.

إذا أردنا الإنتقام من خصمنا فإنه علينا الإنتظار حتى نتوفر على حفنة من الحقائق والتفاصيل الصائبة التي يمكننا استغلالها ضده دون انفعال، بحيث أن الإنتقام يتزامن مع ممارسة العدل. إنه أبشع أنواع الإنتقام، لأنه ليست فوقه أية سلطة يمكن اللجوء إليها. هكذا انتقم ڤولتير من بيرون (Piron) بخمسة أسطر تحكم على حياته كلها، على أعماله وعلى نواياه : الكلمات بقدر الحقائق، وبنفس الطريقة انتقم كذلك من فردريك الكبير (في رسالة وجهها له من Ferney).

238. ضريبة الكماليات.

يشتري الناس من الدكاكين التجارية الأشياء الضرورية التي هم في حاجة ملحة إليها، وعليهم أن يؤدوا ثمنها غاليا لأنهم يؤدون كذلك ثمن الأشياء الأخرى المعروضة للبيع والتي لها مشترون قليلون جدا : الكماليات، الأشياء التي تلبي النزوات. وهكذا تفرض الكماليات ضريبة أبدية على الناس البسطاء الذين يستغنون عنها.

239. لِمَ يبقى المتسولون.

لو أن كل الصدقات كانت تعطى بدافع الشفقة فقط لمات المتسولون من الجوع.

240. لِمَ يبقى المتسولون.

الجبن أكبر المتصدقين.

241. كيف يفيد المفكر من الحوار.

يمكننا أن نسمع الكثير، دون أن نكون مستمعين، إن عرفنا كيف نرى جيدا وكيف نختفي عن الأنظار من حين لأخر. ومع ذلك لا يعرف الناس كيف يفيدون من الحوار، ذلك أنهم يولون اهتماما بالغا لما يريدون قوله أو الرد به، والحالة أن المستمع الجيد غالبا ما يكتفي بالإجابة المؤقتة وبتقديم شيء ما كعربون أدب، حاملا بالمقابل في ذاكرته الدائمة اليقظة ما عرضه الآخر، وكذلك طريقة النبرة والحركة التي عبر بها عنه. ـ في الحوار الجاري يتصور كل متحاور أنه هو الذي يقود الحوار، مثل الباخرتين اللتين قد يعتقد ربان كل واحدة منهما، وقد ابحرتا سويا وتصطدمان ببعضهما عن بعد، أن الباخرة المجاورة تتبع باخرته أو أنه يقطرها.

242. فن الإعتذار.

على الذي يعتذر لنا أن يجيد الإعتذار وإلا جعلنا نبدو نحن هم المخطئون، وينتابنا من ذلك شعور مزعج.

243. معاشرة مستحيلة.

تسحب سفينة أفكارك كثيرا من الماء لتمكنك من الإبحار معها على أمواج هؤلاء الأشخاص المحبوبين، المؤدبين، الودودين. يوجد هاهنا الكثير من المضاحل والأرصفة الرملية، إنك ستكون في ضيق مستمر، لأنك مرغم على أن تنعطف وتدور، وقريبا يقع الآخرون أيضا في حرج بسبب حرجك الذي لن يستطيعوا حزر سببه.

244. أمكر من الثعلب.

الثعلب الحقيقي لا يقول فقط عن العنب الذي لا يستطيع بلوغه أنه حصرم، بل كذلك عن العنب الذي بلغه وأخذه أمام أنظار الأخرين.

245. معاشرة حميمة.

مهما تكن الروابط التي تجمع بعض الناس ضيقة فإن الجهات الأربع تستمر موجودة في أفقهم المشترك، وفي بعض الأوقات يتنبهون لذلك.

246. صمت الإشمئزاز.

مر كاتب ما، بصفته مفكرا وإنسانا، بتغير كبير وعسير، ثم اعترف بذلك أمام الملأ. ولكن مستمعيه لم يتنبهوا لشيء! وظنوه لا يزال كما كان تماما! ـ وقد أثارت هذه

التجربة الشائعة اشمئزاز الكثير من الكتاب، ذلك أنهم خمنوا أن عقلانية (intellectu-ality) الناس رفيعة، ولما أدركوا خطأهم أقسموا أن يلتزموا الصمت.

247. الجد في الأعمال.

إن أعمال كثير من الأغنياء المتميزين هي طريقتهم في الإستراحة من بطالة طويلة جدا تم قضاؤها في العادة، لذلك تراهم يباشرونها بنفس الجدية والشغف اللذين يباشر بهما الآخرون تسليتهم في أوقات فراغهم النادرة.

248. إزدواجية العين.

مثلما تجعل الموجة رعشة فجائية تسري في قدميك فإن هناك في عين الإنسان بعض الشكوك والإزدواجية الفجائية التي تجعلنا نتساءل : أهي رعشة ؟ أم ابتسامة، أم كلاهما معا ؟

249. موجب وسالب.

لا يحتاج هذا المفكر إلى من يدحضه : إنه يكتفي بنفسه للقيام بذلك.

250. انتقام الشباك الفارغة.

علينا أن نحذر كل الذين لهم نفس الشعور بالمرارة الذي لدى الصياد الذي يعود في المساء بشباك فارغة بعد أن قضى يوما شاقا في البحر.

251. عدم ممارسة الحقوق.

ممارسة القوة تكلف العناء وتتطلب الشجاعة. لذلك نجد كثيرا من الناس لا يمارسون أجود وأفضل حق لهم، لأن ذلك الحق نوع من القوة، وهم أضعف أو أجبن من أن يمارسوها. ويغطون نقائصهم بفضيلتين هما التسامح والصبر.

252. أجهزة الإنارة.

لن يعرف المجتمع أدنى شعاع شمس لو لم يسلطه عليه أولئك المتملقون، أقصد أولئك الذين نسميهم لطفاء.

253. الأكثر إحسانا.

يكون المرء أكثر إحسانا حين يكون قد تلقى كثيرا من التشريفات وأكل قليلا.

254. نحو النور.

لا يسارع الناس نحو النور لكي يروا أفضل وإنما لكي يلمعوا أكثر. والذي يلمعون في حضوره يعتبرونه نورا عن طيب خاطر.

255. الموسوس.

الموسوس رجل له ما يكفي من العقل ومن الشهية الفكرية ليذهب حتى عمق معاناته وإحباطه وعيوبه، ولكن الأرض التي يتغذى عليها صغيرة جدا، يستهلك ما عليها تماما بحيث يضطر في الأخير للبحث عن قشها واحدة واحدة. وينتهي به الأمر لأن يصير بذلك غيورا وبخيلا، ـ وحينها يصبح غير مطاق.

256. كيف نرد.

ينصحنا هزيود* بأن نرد للجار الذي ساعدنا، بمجرد ما نستطيع ذلك، أكثر مما ساعدنا به، وأن نجعل ردنا وافرا إن أمكن، وهو ما سيسعده فعلا، لأن سخاءه قد أثمر، ولكنه سيسعد الذي يرد كذلك، إذ سيجعله يسترد بواسطة فائض قليل، بوصفه مانحا بدوره، تلك الإهانة الصغيرة المتمثلة في كونه قبل المساعدة.

257. أدق مما ينبغي.

حين نريد معرفة إن كان الآخرون يدركون نقط ضعفنا فإننا ندقق الملاحظة أكثر مما نفعل مع نقط ضعف الغير، وينجم عن ذلك أن ملاحظتنا تكون أدق مما ينبغي.

258. نوع من الظل المضيء.

توجد بقرب الكائنات الليلية تقريبا دائما روح نورانية منتظمة ، وكأنها مرتبطة بها. وهي، تقريبا، ظلها السالب.

259. أن لا ننتقم ؟

هناك أشكال متعددة وسامية من الإنتقام بحيث أن الذي قد يكون له داع للإنتقام قد يفعل، في الواقع، ما يريد أو قد لا يفعله : وفي غضون بعض الوقت سيتفق الكل على القول بأنه قد انتقم. إذن قلما يتعلق عدم الإنتقام بالإرادة المطلقة لإنسان ما، ولا يجب عليه حتى القول أنه لا يريده، مادام ازدراء الإنتقام يتم تفسيره والإحساس به على أنه انتقام سام ودقيق جدا. ـ وهو ما ينجم عنه أنه ليس هناك شيء غير ضروري.

260. خطأ في الثناء.

يعتقد كل واحد أنه يمتدح المفكر امتداحا مقبولا حين يبين له كيف توصل هو بنفسه إلى نفس الفكرة، بل إلى نفس العبارة، ولكن المفكر نادرا ما تسعده مثل تلك المسارة، إنه يفهم منها، على العكس، شيئا من الريبة بخصوص فكرته أو عبارته، فيقرر سرا أن يراجعها عند الإقتضاء. ـ علينا، حين نريد امتداح شخص ما، أن نحترس من إبداء موافقتنا : لأنها تضعنا معه في نفس المستوى. ـ في كثير من الحالات يكون الإستماع إلى رأي ما وكأنه ليس رأينا، بل أكثر من ذلك، وكأنه يتجاوز أفقنا، يكون ذلك من اللياقة الإجتماعية، مثلا حين يفتح الشيخ المحنك علبة معارفه.

261.الرسالة.

الرسالة زيارة لم يتم الإستعداد لها، وساعي البريد وسيط المفاجآت السمجة. يجب أن تكون لنا في كل ثمانية أيام ساعة نتلقى فيها الرسائل، وعند ذاك نستحم.

262. عداء.

قال أحدهم : إنني متحامل على نفسي منذ طفولتي، لذلك أجد في كل لوم شيئا من الحقيقة، وفي كل مدح شيئا تافها من الغباوة. إنني عادة ما أحط من قدر المدح وأرفع من قدر اللوم.

263. طريق المساواة.

تجعل بضع ساعات من تسلق الجبل من النذل والقديس شخصين متساويين بشكل مقبول. التعب أقصر طريق تؤدي إلى المساواة والإخاء، أما الحرية فيمنحها لنا النوم.

264. افتراء.

إذا ما اكتشفنا آثار اتهام سافل حقا فلا نبحثن أبدا عن أصله لدى أعدائنا الصادقين والحقيقيين، لأنهم إن لفقوا مثل هذا الإتهام فلن تبقى لهم أية مصداقية كأعداء. ولكن هؤلاء الناس الذين كنا مفيدين جدا لهم زمنا ما والذين، لسبب ما، قد يكونون واثقين في قرارة أنفسهم أنهم لن ينالوا منا شيئا، ـ قادرون على إطلاق القول المعيب، إنهم يكتسبون مصداقية أولا لأننا نسلم بأنهم لن يلفقوا اتهاما قد يعانون منه هم أنفسهم، ثم لأنهم عرفونا عن كثب. ـ وقد يعزي الذي كان ضحية فرية كبيرة نفسه كما يلي : الافتراءات هي أمراض الغير التي تظهر في جسدك أنت! إنها تبين أن المجتمع هيأة (أخلاقية) واحدة جد متماسكة بحيث يمكنك أن تعالج نفسك بعلاج يستفيد منه الآخرون.

265. مملكة الأطفال الأبدية.

سعادة الأطفال أسطورة مثلها مثل سعادة الشماليين* الذين كان الإغريق يحكون عنهم. إن كانت السعادة موجودة على الأرض، كانوا يعتقدون، فلا ريب أنها في مكان أبعد ما يكون منا، ربما في أقصى الأرض. نفس الشيء يعتقده المسنون : إن كان بإمكان المرء أن يكون سعيدا بشكل ما، فإن ذلك سيكون أبعد ما يكون من عمرنا، عند تخوم العمر وبداياته. ويعتبر أكثر من شخص رؤية الأطفال، عبر حجاب هذه الأسطورة، أكبر سعادة يمكنه المشاركة فيها، إنه ينفذ حتى فناء المملكة الخالدة حين يقول : « دعوا الأطفال يأتون إلي، لأن مملكة السماء ملك لهم. » وتفعل اسطورة مملكة الأطفال الخالدة فعلها بشكل أو بآخر حيثما وجد في عالمنا الحديث أثر من العاطفية*.

266. المتبرمون.

الرجل الذي في طور التكون هو بالضبط من لا يقر الصيرورة : إنه أكبر منها. لا يريد المراهق أن ينتظر اكتمال لوحة الكائنات والأشياء لديه بعد مدة طويلة من الدراسة والمعاناة والحرمان، وبحسن نية تام يقبل لوحة موجودة وجاهزة تُمنح له كأنما لتمنحه عن طريق الاستباق خطوط وألوان لوحته هو، يرتمي في أحضان فيلسوف أو شاعر فيلفي نفسه مرغما على السخرة وعلى جحود نفسه.إنه يتعلم من ذلك الكثير، ولكن الشاب غالبا ما ينسى ما يجدر به أن يتعلمه ويعرفه من ذلك، أي نفسه، ويظل طيلة حياته تابعا. آه، كم من الضجر يجب التغلب عليه، وكم يلزم من الجهد، قبل العثور على الملو والريشة وقماشة الرسم! ــ وحتى حينها لا يكون المرء سيد فنه في الحياة، شتان بينه وبين ذلك، ــ ولكنه يكون سيد مرسمه على الأقل.

267. ليس هناك مربون.

لا يجب للمفكر أن يتحدث إلا عن تربية نفسه بنفسه. تربية الشباب من طرف الآخرين هي إما تجربة يتم القيام بها على شخص مجهول، لا يمكن معرفته، وإما تسوية للمبادئ المخصصة لمؤالفة الشخص الجديد، أيا يكن، مع العادات والتقاليد السائدة، إذن فهي في كلتا الحالتين شيء لا يليق بالمفكر، إنها مهمة الآباء والمعلمين الذين سماهم أحد الجريئين في صدقه أعداءنا الطبيعيين. ــ ويأتي يوم نكتشف فيه نفسنا، يوم يكون قد مر وقت طويل على تكوننا، حسب رأي الناس، حينها تبدأ مهمة المفكر، أما الآن فقد حان أوان الإستنجاد به ــ ليس بوصفه مربيا، بل كرجل ربى نفسه وأورثه ذلك تجربة.

268. الشفقة على الشباب.

إننا نحزن حين نسمع أن شابا بدأ يفقد أسنانه وأن آخر بدأ يضعف بصره. ولو عرفنا ما يخفيه كيانه من شيء متعذر تغييره ومحزن فكم سيكون حزننا كبيرا إذاك! ــ لماذا نعاني في مثل هذه الحالة ؟ لأننا ننتظر من الشباب أن يكمل ما شرعنا فيه، ولأن كل ما يهدم طاقته أو يأخذ منها سيكون مضرا بعملنا الذي وقع بين يديه. إنه لعناء كبير أن نرى ضمانة خلودنا تافهة، وإن كنا نشعر أننا منفذو مهمة الإنسانية فإنه لأسف كبير أن توضع هذه المهمة بين أيد أضعف من أيدينا.

269. مراحل العمر.

تعتبر مقارنة فصول السنة مع مراحل العمر الأربعة حماقة كبيرة. فلا العشرون سنة الأولى من العمر ولا الأخيرة تقابل فصلا من الفصول إذا لم نكتف، في المقارنة، ببياض الشعر والثلج وما شابه ذلك من الألوان. العشرون سنة الأولى هي إجمالا تمهيد للحياة، لمدة الحياة كلها، إنها تشبه يوم رأس سنة طويل، والعشرون الأخيرة تعانق بنظرة واحدة، تستبطن، تربط وتوافق بين كل ما عشناه من قبل، مثلما نفعل ذلك بشكل مصغر عند انصرام كل سنة. ولكن بينهما توجد مرحلة توحي بالمقارنة مع الفصول، إنها مرحلة ما بين العشرين والخمسين (إننا نعد هنا بالعقود، وعلى كل واحد أن يحدد، حسب تجربته، هذه الإشارات التقريبية). هذه العقود الثلاثة تقابل فصولا ثلاثة : الصيف والربيع والخريف، أما الشتاء فلا تعرفه حياة الإنسان، إلا أن نشاء إطلاق شتاء الإنسان على مراحل المرض المرة، الباردة، الوحيدة، الموحشة، العقيم، التي غالبا ما تدخل، مع الأسف، في حياته. العشرينيات : سنوات ملتهبة، مرهقة، عاصفة، غزيرة، منهكة، نقدر أثناءها اليوم عند المساء، حين ينتهي، ونحن نمسح جبيننا، إنها سنوات يبدو لنا العمل فيها شاقا مضنيا ولكن ضروريا، ــ هذه السنوات بين العشرين والثلاثين هي صيف العمر. ومن الثلاثين إلى الأربعين، في المقابل، هي ربيع العمر : جوها تارة شديد الحرارة، وتارة شديد البرودة، دائما مضطربة ومنشطة، حيوية متدفقة، في كل مكان ترى فيضا من الأوراق، من الإزهرار العطر، تعرف الكثير من الصباحات والليالي الساحرة، وعملا توقظنا إليه أغاريد الطيور، عملا حقيقيا نمارسه وقلبنا مفعم بالسرور، نعتبره نوعا من الإستمتاع بقوتنا يدعمه شعور مسبق بالأمل. وأخيرا تأتي الأربعينات : سنوات غامضة، ككل ما لا يتحرك، شبيهة بهضبة عليا شاسعة وجبلية تهب فيها ريح باردة، سماؤها صافية وترقب النهار حتى قلب الليل دائما بنفس الرقة : إنه زمن جني الثمار وزمن المرح القلبي، ــ إنه خريف العمر.

270. عقل النساء في المجتمع الحالي.

نُخمن ما تظنه النساء اليوم بشأن عقل الرجال من واقع كونهن لا يفكرن، حين يتزين، في إبراز روح سحنتهن أو ملامح وجههن الروحية، إنهن يخفين ذلك ويعرفن في المقابل، من خلال تنسيق الشعر على الجبين مثلا، كيف يعطين أنفسهن مظهر شبقية حادة، شرهة ولا فكر فيها، بالضبط حين لا يكون لديهن من هذه المزايا إلا الشيء القليل. يقينهن بأن العقل لدى النساء يرعب الرجال يذهب بعيدا جدا لحد أنهن يجحدن طواعية حدة الحس المعقلن ليتكلفن عن قصد بشهرة الحس لديهن، إنهن يعتقدن ولا شك أنه بذلك سيكسبن ثقة الرجال أكثر: يبدو الأمر وكأن ظليلا نديا مغريا ينتشر حولهن.

271. عظيم وزائل.

إن ما يؤثر في المتأمل حتى يجعله يبكي هو نظرة السعادة المنتشية التي تركزها شابة جميلة على زوجها. حينها نشعر بكآبة الخريف بسبب عظمة السعادة الإنسانية وبسبب كونها عابرة.

272. روح التضحية.

هناك أكثر من امرأة تملك روح التضحية، ولن تكون أبدا سعيدة بحياتها إن رفض زوجها أن يضحي بها، لأنها لا تعرف حينها ما تفعله بذكائها، وفجأة تتحول من ضحية إلى مقدم القرابين نفسه.

273. الجزء غير الأنثوي.

« بليد كالرجل »، تقول النساء. « جبان كالمرأة »، يقول الرجال. البلادة، لدى المرأة، هي الجزء غير الأنثوي فيها.

274. مزاج الذكر والأنثى والوفاة.

إن مصدر كون مزاج الذكور أسوأ من مزاج الإناث هو كون الأطفال الذكور معرضين للوفاة أكثر من غيرهم، بكل وضوح لأنهم « يسمنون كثيرا » بسهولة : ويفاقم توحشهم وتصلبهم كل الأمراض إلى حد قاتل.

275. زمن المنشآت العملاقة.

إننا لن نوقف دمقرطة أوربا، والذي يقف في طريق ذلك يحتاج إلى الوسائل عينها التي كانت فكرة الديمقراطية أول من وضعها بين يدي كل الناس، وعليه أن يجعل هذه

الوسائل سهلة الإستعمال وفعالة، أما خصوم الديمقراطية اللدودون (أعني الثوريين) فيبدو أنهم موجودون ليدفعوا بشكل أسرع فأسرع، بسبب الخوف الذي يثيرونه، مختلف الأحزاب إلى طريق الديمقراطية. والحالة أن الخوف قد يتملكك عند رؤية الذين يعملون بتبصر وصدق من أجل هذا المستقبل : تعلو وجوههم مسحة حزن ورتابة، والغبار الرمادي يبدو وكأنه قد تطاير حتى أعماق مخهم. ومع ذلك فقد تسخر الأجيال القادمة من خوفنا ذات يوم وتتصور العمل الديمقراطي لأجيال متتابعة تقريبا كما نتصور نحن بناء حواجز حجرية أو أسوار دفاعية ـ وهو عمل ينثر بالضرورة كثيرا من الغبار على الملابس والوجوه، ولا شك أنه يصير العمال حتما بلداء شيئا ما، ولكن من ذا الذي سيتمنى بسبب ذلك لو أن هذا العمل لم ينجز! يبدو أن دمقرطة أوربا حلقة في سلسلة التدابير الوقائية الضخمة التي هي فكرة العصور الحديثة والتي نعارض بها العصر الوسيط. هذا هو عصر المنشآت العملاقة! متانة الأسس حتى يتسنى للمستقبل كله أن يشيد عليها دون خطر! استحالة أن يتم تخريب أراضي الحضارة الخصبة بين عشية وضحاها من طرف الهمجيين أو السيول الجبلية! حواجز حجرية وأسوار دفاعية ضد المتوحشين، ضد الأوبئة، ضد الاستعباد الجسدي والروحي! يتم كل هذا بالحرف وعلى وجه التقريب، ولكن شيئا فشيئا يصاحبه تسام روحي أكثر فأكثر بحيث تبدو كل التدابير المذكورة هنا استعدادا بارعا عاما وضعه فنان كبير في البستنة، فنان لا يستطيع الشروع في إنجاز مشروعه إلا بعد أن تكتمل هذه الإستعدادات! ولنقلها، نظرا للمراحل الكبيرة الفاصلة بين الوسائل وتحقق الغاية، ونظرا للعناء الكبير الذي يستولي على طاقة وذكاء قرون بأكملها ويعد ضروريا لابتكار كل واحدة من هذه الوسائل منفردة أو للحصول عليها، فإننا لا نملك الحق في الحكم بقسوة على عمال الحاضر إن أعلنوا جهارا أن الحائط والتعريشة (espalier)* هما وحدهما الغاية الأخيرة، ذلك أنه لا أحد يرى بعد البستاني والأشجار المثمرة التي من أجلها وضعت التعريشة.

276. حق الاقتراع العام.

لم يمنح الشعب لنفسه حق الاقتراع العام، بل تلقاه، حيثما هو الآن ساري المفعول ومقبول بشكل مؤقت، وله الحق، على أية حال، في أن يرده إذا لم يجد فيه ما كان يأمله. ويبدو الأمر هكذا في كل مكان حاليا، لأنه حين لا يذهب إلى صناديق الإقتراع إلا ما يناهز الثلثين، وربما أقل من أغلبية المسجلين، حين تكون هناك مناسبة لاستخدام هذا الحق، فإن ذلك يعتبر في مجمله تصويتا ضد النظام الإنتخابي برمته. ـ بل يجب

هنا أن نحكم بصرامة. فالقانون الذي يقول بأن الأغلبية هي التي ستقرر في نهاية المطاف بشأن رفاهية الكل لا يمكنه أن يقوم على نفس هذا الأساس الذي يضعه: يلزمه حتما أساس أوسع، وذلك هو الإجماع. لا يجب أن يكون الإقتراع العام فقط تعبيرا عن إرادة الأغلبية، لا بد من إرادة كل سكان البلد. كما أن معارضة أقلية ضئيلة جدا كفيلة باستبعاده باعتباره غير قابل للتنفيذ، والإمتناع عن التصويت معارضة تقوض النظام الإنتخابي كله. « حق النقض المطلق » الذي يملكه الفرد، وحتى لا نقع في الحقارة، حق النقض الذي يملكه آلاف المنتخبين، معلق على هذا النظام، وإنه لمنطق العدل : في كل مرة يتم فيها الإقتراع العام يجب على هذا النظام، حسب نوعية المشاركة، أن يبين أولا أن وجوده لايزال له مرتكز قانوني.

277. الإستدلال الخاطئ.

كم يخطئ المرء في الإستدلال في ميادين غير مألوفة لديه، حتى وإن كان معتادا، بصفته رجل علم، أن يستدل مثلما يشاء! إنه لشيء مخجل! ومن الواضح إذن أن هذا الإستدلال الخاطئ هو الذي يقرر في الحياة العامة، في أمور السياسة، في كل الأحداث الفجائية والمستعجلة التي تطرأ كل يوم تقريبا، لأنه لا أحد يجد كل جديد يطرأ بين عشية وضحاها مألوفا لديه حقا، وما العمل السياسي، حتى لدى رجال الدولة الكبار، سوى ارتجال حالفه التوفيق.

278. تباشير قرن الآلـة.

الصحافة، الآلة،السكة الحديدية، التلغراف، كلها تباشير لم يجرؤ أي أحد على استخلاص ما سينتج عنها بعد ألف سنة.

279. حَصَّار الحضارة.

حين نسمع : هنا ليس لدى الرجال وقت يخصصونه للأعمال الإنتاجية لأن التداريب العسكرية تستغرق يومهم كله، وعلى باقي السكان أن يغذوهم ويكسوهم، ولكن لباسهم جذاب، وغالبا ما يكون مبرقشا ويحمل أمارات التبذير. وهناك لا يعترف الناس إلا ببعض الخاصيات المميزة، هناك يتشابه الأفراد فيما بينهم أكثر منه في أي مكان أخر، أو تتم معاملتهم على الأقل كأنداد، يتطلبون هناك خضوعا أعمى ويخضعون : يصدرون الأوامر، ولكنهم يحترسون من الإقناع، العقاب هناك قليل، ولكنه يكون قاسيا ويبلغ أقصاه بسرعة، إنه يكون فظيعا للغاية. الخيانة هناك هي أعظم جريمة، والشجعان وحدهم هم من يجازف بانتقاد ولو مجرد التجاوزات. ليست حياة

المرء هناك بغالية، وشكل الطموح الشائع هناك هو جعل هذه الحياة في خطر، ـ من يسمع كل هذا سيقول على الفور :« إنها لوحة مجتمع متوحش وفي خطر. » وربما يضيف :« أنها صورة اسبارطة ». ولكن شخصا آخر، متأملا، قد يرى أن الموصوف هنا هو نظامنا العسكري الحديث مثلما تعرفه حضارتنا ومجتمعنا الذي له طبيعة مختلفة، والذي هو مفارقة تاريخية، صورة، كما قلنا، لمجتمع متوحش ومهدد، عمل بعدي من أعمال الماضي الذي هو بمثابة حَصَّار لعجلات الحاضر. ـ والحضارة تحتاج أشد الحاجة، من حين لآخر، إلى حصار، وذلك حين يكون الإنحدار أو، كما في حالتنا ربما، الصعود سريعا جدا.

280. مزيدا من الإحترام لأصحاب المعرفة.

أثناء المنافسة بين المنتجين والبائعين يتم جعل الجمهور حكما على المنتوجات، والحال أن هذا الجمهور ليست له أية معرفة موضوعية صرفة ويحكم من خلال ظاهر الجودة، وبالتالي سيتنامى فن العرض (وربما الذوق) تحت سيطرة المنافسة، ولكن جودة كل السلع الغذائية، في المقابل، ستتدهور، وستنتهي بالتالي، إذا لم يفقد العقل (raison) قيمته، إلى أن نجعل حدا، يوما ما، لهذه المنافسة التي سيتفوق عليها مبدأ آخر. وحده المنتج سيكون حكم السلعة، وسيتعلق الجمهور حينها بثقته في شخص الحكم واستقامته. وبناء عليه، كفى من الإنتاج المجهول منتجه! لا بد أن يكون هناك على الأقل خبير واحد ليضمنه ويمنحه اسمه كضمانة، إن كان اسم المنتج غير مذكور أو غير مشهور. يعتبر رخص سلعة ما، بالنسبة للجاهل، مظهرا آخر من المظاهر الخداعة، إذ وحدها مزايا الدوام تقرر إن كانت سلعة ما رخصة، وإلى أي حد، ولكن الحكم على هذه المزايا صعب ويستحيل على الجاهل. ـ إذن فالذي يبهر العين وله ثمن بخس هو الراجح الآن في الميزان، ـ وسيكون بالطبع منتوج الآلة. وفي مقابل ذلك تشجع الآلة من جهتها، نظرا لكونها سببا لسرعة وسهولة الإنتاج، الجودة الأكثر مبيعا: وإلا فلن يتم جني فائدة كبيرة منها وسيتم تشغيلها قليلا وتوقيفها أغلب الوقت. ولكن الجمهور هو من يقرر السلع الأفضل مبيعا، مثلما رأينا، إنها السلع التي تخدع أكثر، أي التي تبدو ذات جودة في الأول ثم تبدو رخصة الثمن كذلك. وليكن أمرنا في مجال الإنتاج : « مزيدا من الإحترام لأصحاب المعرفة! »

281. الملوك المهدَّدون.

تستطيع الديمقراطية، دون اللجوء إلى العنف، فقط بضغط شرعي مستمر، أن تفرغ الملكية والإمبراطورية إلى أن يبقى منهما صفر فقط، أو ربما، إن شئنا، دلالة الصفر

الذي، وإن لم تكن له قيمة في حد ذاته، يضاعف قيمة الرقم عشر مرات إذا ما وضعناه على اليمين. وستبقى الإمبراطورية والملكية زينة بهية على رداء الديمقراطية البسيط والعملي، ستظلان هما الجمال الزائد الذي ستسمح به لنفسها، بقية الزخرف التاريخي الجليل من العهد الغابر، بل رمز التاريخ نفسه، ونظرا لفرادتهما في هذا فإنهما ستظلان عنصرا فعالا جدا شريطة ألا يمثل نفسه، بل يوضع في المكان المناسب. ـ ولكي يمنع الملوك حدوث هذا التفريغ فإنهم يدافعون الآن عن كرامتهم باستماتة، كأمراء محاربين، لذلك يحتاجون إلى الحروب، أي إلى حالات استثناء يتوقف خلالها هذا الضغط الشرعي التدريجي الذي تمارسه القوى الديمقراطية.

282. الأستاذ، شر لا بد منه.

ينبغي أن يكون هناك أقل عدد ممكن من الأشخاص بين العقول المنتجة والعقول المتعطشة والقابلة للتأثر! لأن الوسطاء يزيفون، بشكل شبه تلقائي، الغذاء الذي ينقلونه ثم يطالبون لأنفسهم، كتعويض عن وساطتهم، بكثير من الأشياء التي ينتزعونها بذلك من العقول المنتجة والأصيلة، أي الفائدة، الإعجاب، الزمن، المال، وأشياء أخرى. إننا سننظر إلى الأستاذ إذن، مهما يكن الأمر، على أنه شر لا بد منه، على غرار التاجر، كشر يجب جعله أضأل ما يمكن. ـ إن كان السبب الرئيس لبؤس شروط المعيشة الحالية في ألمانيا، ربما، هو كون الكثير من الناس يعيشون فيها من ممارسة التجارة، ويريدون أن يكون عيشهم منها رغدا (بكونهم يسعون إلى تخفيض الأثمنة التي يؤدونها للمنتج ما أمكنهم ورفع ثمن البيع للمستهلك ما أمكنهم، وذلك للإفادة من أكبر خسارة تلحق هذا وذاك)، فإنه يمكن أن نرى بكل تأكيد أن السبب الرئيس لفقرنا الثقافي هو ذلك العدد الضخم من الأساتذة : وإنه سبب نعرفه قليلا وبشكل رديء.

283. ضريبة الإحترام.

نؤدي طواعية أغلى ثمن ممكن، وأحيانا أكثر مما تسمح به وسائلنا، لأحد الذين نعرفهم، أو نقدرهم، كالطبيب أو الفنان أو الصانع التقليدي الذي يؤدي لنا خدمة، وعلى العكس من ذلك نؤدي أقل ثمن ممكن لمن لا نعرفه، إنه صراع يقاوم فيه كل واحد ويرغم الآخر على المقاومة من أجل كل شبر من الأرض. في العمل الذي يقوم به لأجلنا من نعرفه هناك شيء لا يقدر بثمن، إنها الحيوية والإبتكار اللذين ينجزه بهما لأنه لنا، ونظن أننا لا نستطيع التعبير عن الشعور الذي يغمرنا من ذلك إلا بنوع من التضحية المقبولة. ـ إن أكبر ضريبة نؤديها هي ضريبة الإحترام. كلما اتسع مجال المنافسة واشترينا ممن نجهلهم، أو عملنا لهم، كلما نقصت هذه الضريبة، في حين أنها هي معيار مستوى التعامل الأدبي بين الناس.

284. وسيلة سلم حقيقية.

ليست هناك حاليا أية دولة تعترف بأنها تتعهد جيشها لتلبية رغبة محتملة في القيام بغزو، بل تقول أنه معد للدفاع. وتدعم قولها بالأخلاق الشهيرة التي توافق على الدفاع الشرعي عن النفس. والحالة أن هذا يعني تخصيص أنفسنا بالأخلاقية والجار باللاأخلاقية مادام علينا أن نتخيله عدوانيا ومتلهفا للغزو إن أردنا أن تفكر دولتنا حتما في ضمان الدفاع الشرعي عن النفس، وعلاوة على ذلك، فهو حين ينفي مثل دولتنا أية رغبة في العدوان ويزعم أنه لا يحتفظ بالجيش إلا لغرض الدفاع الشرعي عن النفس نصفه، من خلال تفسيره هذا لسبب احتياجه إلى جيش، بأنه منافق ومجرم ماكر غايته مهاجمة ضحية مسالمة وعديمة المهارة فجأة دون أن يلقى منها أية مقاومة. هكذا تتواجه كل الدول الآن : تسلم بسوء النية لدى الجار وبحسن النية لديها. ولكن هذه المسلمة سمة من سمات اللاإنسانية، خطرة مثل الحرب، بل أخطر منها، إنها تشكل في الواقع حثا على الحرب، سببا للنزاع، مادامت تعزو، مثلما رأينا، اللاأخلاقية إلى الجار وبذلك يبدو أنها تثير العداوة في مشاعره وأفعاله. يجب أن نتخلى تماما عن نظرية اعتبار الجيش أداة للدفاع عن النفس ونتخلى كذلك عن الرغبة في الغزو. وسيأتي يوم عظيم على شعب عظيم بحروبه وانتصاراته، بالدقة المتناهية لتنظيمه وعبقريته العسكريين، والذي تعود على تقديم أكبر التضحيات في هذه الميادين، ليصيح بتلقائية : « فلندمر سلاحنا » ـ وسيدمر قواته المسلحة تدميرا شاملا. تخلي دولة ما عن الأسلحة، بدافع سمو الإحساس، والحال أنها كانت أكثر الدول إقداما يوم كان لها جيش، ـ هذه هي وسيلة السلام الحقيقي الذي لا يمكن أن يرتكز إلا على سلام العقول، أما السلام المسلح، مثلما يسمونه، الذي ينتشر في كل الدول الآن، فهو صنيع نفس قلقة ليست لها ثقة في نفسها ولا في جارها ولا تريد، بدافع نصفه بغض ونصفه خوف، أن تضع السلاح. الهلاك أفضل من البغض والخوف، والهلاك مرتين أفضل من جعل الغير يبغضني ويخشاني، ـ هذه يجب أن تكون الحكمة السامية لكل مجتمع منظم سياسيا. نوابنا الليبراليون، كما نعلم، ليس لهم وقت لتأمل الطبيعة الإنسانية، وإلا لكانوا عرفوا أنه لا جدوى من عملهم لأجل « تخفيض تدريجي للنفقات العسكرية ». وحين يبلغ هذا البؤس منتهاه سيكون قريبا جدا جنس الرب الذي بمقدوره هو وحده تقديم يد العون. لا يمكن قطع شجرة الأمجاد الحربية إلا بضربة واحدة، من خلال ضربة برق، والبرق، كما تعلمون، يأتي من الأعلى.

285. إمكانية التوفيق بين الملكية والعدل.

إذا أحس الناس كثيرا بجور الملكية (وقد عاد عقرب الساعة الكبيرة الآن إلى هذه النقطة)، فإن هناك وسيلتين لمعالجة ذلك : أولا توزيع متساو للملكية، ثم إلغاؤها وعودة الممتلكات كلها إلى الملكية الجماعية. إن الذي يقول بهذه الوسيلة الأخيرة هم اشتراكيونا الذين يحفظون الضغينة لذلك اليهودي المعروف الذي قال قديما : لا تسرق. إنهم يرون أن الوصية السابعة يجب أن تقول بالأحرى : لا تمتلك أي شيء. وقد كانت هناك في العهود القديمة محاولات تستلهم الوسيلة الأولى، دائما بشكل مصغر، ولكنها أخفقت إخفاقا يجب أن يكون درسا لنا نحن أيضا. «حصص متساوية من الأرض»، ما أسرع ما نقول هذا، ولكن كم من المرارة تثيرها القسمة والتفريق الضروريان آنذاك، يثيرها فقدان ممتلكات استأثرت بالإجلال لمدة طويلة، كم من التقوى تتم التضحية بها! يتم اقتلاع الأخلاقية بنفس المعزقة (bêche)* التي تقتلع بها الأرفة*. ثم، كم من المرارة تكون بين المالكين الجدد، كم من الحسد والنظرات الشزراء، لأنه لم تكن هناك أبدا قسمتان متساويتان حقا، وحين تكون فإن حسد المرء لجاره لن يصدق تساويهما. وكم من الوقت ستدوم هذه المساواة المريضة، المسمومة حتى الجذور! هنا نجد قسمة قد انتقلت في غضون بضعة أجيال، بفعل الوراثة، بين خمسة أشخاص، وهناك نجد خمس حصص قد آلت إلى شخص واحد، وحين كانت هناك قوانين صارمة لانتقال الملكية تمنع حدوث ذلك فقد كانت الحصص متساوية، ولكن هنا وهناك نجد معوزين ومستائين لا يملكون شيئا خلا حسدهم لأقاربهم وجيرانهم ورغبتهم في ثورة عامة. ــ وإذا شئنا، حسب الوسيلة الثانية، أن نعيد الملكية إلى الجماعة ونجعل من الفرد فلاحا مؤقتا فقط، فإننا نخرب الأرض نفسها، لأن الإنسان لا يعرف اتخاذ الإحتياطات والتضحية من أجل ما يملكه بشكل مؤقت فقط، إنه تحت تصرفه ليستغله بوصفه قاطع طريق أو مبذرا ماجنا. حين يؤكد أفلاطون أن الأنانية ستنتفي بإلغاء الملكية يمكننا إجابته بأنه لن تتبقى من الإنسان، بعد حذف الأنانية، تلك الفضائل الرئيسية الأربعة*، كما أنه علينا القول : لن يضر أسوأ وباء بالإنسانية قدر ما سيضر بها اختفاء الغرور يوما ما. ماذا ستكون الفضائل الإنسانية دون الغرور والأنانية ؟ وهو ما لا يعني بتاتا أن هذه الفضائل مجرد أسماء وأقنعة. يقوم اللحن الأساسي للمدينة الفاضلة الأفلاطونية، الذي يستمر الإشتراكيون اليوم في ترديده، على معرفة خاطئة بالإنسان : كانت تنقص أفلاطون معرفة تاريخ الأحاسيس الأخلاقية*، ومعرفة أصل المزايا الجيدة والنافعة في النفس الإنسانية. لقد كان يؤمن، مثل القدماء كلهم، بالخير والشر كما بالأبيض والأسود، وبالتالي بوجود فرق جوهري بين الأخيار

والأشرار، بين المزايا الحسنة والسيئة. ـ ولكي تعود الملكية إلى الإيجاد بالثقة وتصير أخلاقية أكثر يجب أن نترك مفتوحة كل السبل التي تؤدي، من خلال العمل، إلى رفاهية متواضعة، وأن نمنع الإغتناء السهل والفجائي، أن ننزع من أيدي الخواص والشركات الخاصة كل فروع التجارة والمواصلات التي تسهل مراكمة ثروات كبيرة، وخاصة تجارة العملة ـ ونعتبر الذين يملكون الكثير والذين لا يملكون شيئا مضرين بالملكية الجماعية على حد سواء.

286. قيمة العمل.

لو أردنا أن نحدد قيمة العمل من خلال ما يخصص له من الوقت، الحماس، الإرادة الحسنة أو السيئة، الإكراه، الإبتكار أو الكسل، النزاهة أو النفاق، فإن ذلك التقييم لن يكون عادلا أبدا، لأن الأمر يتطلب وضع الشخص كله في الميزان، وهو شيء مستحيل. هناك ما يدعو هنا لأن نقول : لا تصدر حكما! ومع ذلك نسمع المستائين اليوم من تدهور قيمة العمل يطالبون بالعدل. وإذا أمعنا التفكير في ذلك وجدنا كل شخص غير مسؤول عما ينتجه، عن عمله : إذن فلن نستطيع أبدا أن نستخلص منه قيمة، فالعمل يكون جيدا أو رديئا مثلما يجب حتما أن يكون ضمن هذه المجموعة الضرورية أو تلك من القوى ومن الضعف، من المعارف ومن الحاجيات. لا يتوقف الأمر على العامل في تقرير ما إذا كان سيعمل، أو كيف سيعمل. المنظورات الوحيدة، سواء كانت واسعة أو ضيقة، التي وضعت أسس تقدير العمل هي منظورات المنفعة. وما نسميه العدالة حاليا هي ولا ريب تحتل المكان اللائق بها، نظرا لكونها منفعة دقيقة جدا لا تكتفي بإقامة الإعتبار فقط للحظة ولانتهاز الفرصة، ولكنها تنشغل بمدة كل الظروف وتفكر في خير العامل ورضاه المادي والمعنوي، ـ لكي يعمل هو وذريته بجد من أجل ذريتنا نحن أيضا، ولنتمكن من الإعتماد عليهم مددا أطول من حياة الإنسان. إننا ندرك الآن أن استغلال العامل كان حماقة، تبذيرا على كل حال، فتكاليف الحفاظ على السلم وإمضاء المعاهدات واكتساب الثقة ستصير باهظة لأن حماقة المستغلين كانت كبيرة ودائمة.

287. عن دراسة الهيأة الإجتماعية.

أسوأ ما يواجه الذي يريد اليوم أن يدرس الإقتصاد أو السياسة في أوربا، وخاصة في ألمانيا، هو كون الأوضاع الواقعية تمثل الإستثناء أو المراحل الإنتقالية أو النتيجة عوض أن تجسد القواعد. لهذا يجب عليه أن يتعلم أولا أن يتغاضى عن المعطيات المادية وأن يوجه نظره بعيدا إلى أمريكا الشمالية، ـ حيث لايزال بإمكان المرء أن يرى بعينيه ويبحث،

شريطة أن يريد ذلك، حركات الهيأة الإجتماعية الأولية والعادية، أما في ألمانيا فيتطلب ذلك دراسات تاريخية صعبة أو، مثلما أشرنا، منظارا.

288. بأي اعتبار تهين الآلة.

الآلة لا شخصية، إنها تجرد القطعة المصنوعة من أنفتها، من تلك الجودة وتلك العيوب الفردية التي تلازم كل عمل غير آلي، ـ إذن من ذلك الشيء الزهيد من إنسانيتها. فيما مضى كان كل شراء من الصناع التقليديين يعتبر طريقة في تمييز بعض الأشخاص وبعض أنواع السلع التي يحيطون بها أنفسهم، وهكذا يصبح الأثاث والملبس علامات احترام متبادل وقرابة شخصية، بينما يبدو أننا نعيش الآن في مجتمع من العبيد، مجتمع مجهول ولا شخصي، ـ لا ينبغي لنا أن نؤدي الثمن باهظا مقابل تخفيف العمل.

289. حَجْر المائة سنة.

تعتبر المؤسسات الديمقراطية إجراءات حجر صحي على وباء الرغبات الإستبدادية القديم، وباعتبارها كذلك فهي مفيدة ومضجرة.

290. أخطر المتحزبين.

أخطر المتحزبين هو ذلك الذي قد تدمر رِدته الحزب كله : أعني أفضل المتحزبين.

291. المصير والمعدة.

مزبدة (tartine) واحدة أكثر أو أقل في معدة فارس السباق (jockey) تقرر أحيانا مصير السباق والمراهنات، إذن مصير سعادة وتعاسة آلاف الناس. وطالما تعلق مصير الشعوب بالدبلوماسيين فستبقى معدات هؤلاء الدبلوماسيين موضوع غم وطني. إلى أي حد في النهاية...

292. انتصار الديمقراطية.

كل القوى السياسية تحاول الآن استغلال الخوف من الإشتراكية لتعزز قوتها. ولكن الديمقراطية وحدها، مع مرور الزمن، هي التي ستستفيد من ذلك : لأن كل الأحزاب مجبرة اليوم على مجاملة « الشعب » ومنحه تسهيلات وحريات من كل صنف ينتهي بأن يصبح بفضلها مطلق السلطة. أما الإشتراكية فتبعد الشعب إبعادا تاما بما أنها نظرية ترمي إلى تعديل الحصول على الملكية، ويوم تتحكم في الضرائب، بفضل أغلبيات برلماناتها، فإنها ستهاجم أقطاب الرأسمالية والتجارة والبورصة، وببطء ستخلق، في

الواقع، طبقة متوسطة قد تنسى الإشتراكية وكأنها مرض تم الشفاء منه لحسن الحظ. وستكون النتيجة العملية لهذه الدمقرطة التي تكتسح كل البلدان هي أولا تكون فيدرالية الشعوب الأوربية التي سيكون فيها لكل شعب على حدة، داخل حدوده التي تحددها قواعد جغرافية غايتها المنفعة، وضع المقاطعة (Canton) وامتيازاتها، وسوف لن يهتم الناس إلا قليلا، والحالة هذه، بذكريات الشعوب التاريخية مثلما كان حتى ذلك الحين، لأن الإحساس بالحب نحوها سيكون قد تم استئصاله جذريا تحت سيطرة المبدأ الديمقراطي المولع بالجديد وبالتجارب. وسيتم إجراء التغييرات الحدودية التي ستبدو ضرورية بحيث تخدم مصلحة المقاطعات الكبيرة وفي نفس الوقت مصلحة الفيدرالية كلها، ولكن ليس تخليدا لذكرى ماض متداع، وسيكون إيجاد صيغة إجراء هذه التغييرات من مهمة دبلوماسيي المستقبل الذين عليهم أن يكونوا عارفين بالحضارات، وفي نفس الوقت، اقتصاديين وخبراء في المواصلات، وسوف لن تكون وراءهم جيوش بل دواعي المنفعة. وآنذاك فقط سترتبط السياسة الخارجية ارتباطا وثيقا بالسياسة الداخلية، بينما اليوم تجري هذه الأخيرة دائما وراء سيدتها المتعجرفة، وتلتقط في سلتها البالية السنابل الهزيلة المتبقية من حصادها.

293. غاية الديمقراطية ووسيلتها.

تريد الديمقراطية أن تمنح الاستقلالية وتضمنها لأكبر عدد ممكن من الناس، استقلالية الرأي ونمط الحياة والشغل. ولأجل هذا يعتبر من الضروري لها أن ترفض حق التصويت السياسي للمعوزين وللأغنياء جدا، إنهما طبقتان غير شرعيتان يجب عليها أن تعمل باستمرار على إزالتهما لأنهما لا تفتآن تضعان مهمتها موضع سؤال. وعليها كذلك أن تمنع كل ما يبدو أنه يرمي إلى تنظيم الأحزاب. لأن أعداء الإستقلالية الثلاثة الكبار، بمعناها الثلاثي الذي ذكرناه، هم المعدمون والأغنياء والأحزاب. إنني أتحدث عن الديمقراطية كما عن شيء لازلنا ننتظر مجيئه. أما ديمقراطية اليوم فإنه لا يميزها عن الأشكال القديمة للحكومة إلا الجياد الجديدة التي تجرها : الطرق هي نفس طرق الماضي، والعجلات هي نفس العجلات القديمة. ـ فهل يكون الخطر أقل مع العربات الحالية عربات رفاهية الشعوب ؟

294. الإتزان والنجاح.

الإتزان، هذه الميزة التي هي فضيلة الفضائل في الواقع، هي أصلها وتاجها، لا يحالفه الحظ دائما في الحياة اليومية، والذي يكون النجاح هو ما يدفعه للسعي إلى الإتزان سيجد نفسه مخدوعا. ويعتبر النفعيون الإتزان ميزة مشبوهة ويخلطون بينها

وبين الإخفاء والمكر النفاقي، أما الذي ينقصه الإتزان بشكل واضح، على العكس ـ أعني الرجل الذي يقول كل شيء بصراحة، مع احتمال أن يخطئ مرة، فيدعمه الرأي المسبق بأنه بشوش يمكن الوثوق به، فالنفعيون إذن لا يحبون المتزن، إنهم يعتقدونه خطرا عليهم. ومن ناحية أخرى يعتبر الناس المتزن رجلا مضطربا، متحذلقا، ومشبوها، ـ أما الأقل نفعية الذين يطلبون اللذة بالضبط فيجدونه صعب الإحتمال، لأنه لا يعيش مثلهم بلا ترو، دون أن يفكر في سلوكه وواجباته، إنه يظهر وسطهم مثل تجسيد لضميرهم، وإذا رأوه شحب في عيونهم ضوء النهار الساطع، وإن استوحش النجاح والحظوة فإنه قد يعزي نفسه بقوله : « هذا هو قدر الضرائب الذي عليك أن تؤديه مقابل امتلاك أغلى ملك يقدره الرجال، ـ يستحق الإتزان كل هذا!»

295. وأنا في أركاديا.

وأنا نازل كان نظري يخترق هضاباً متموجة، بمحاذاة بحيرة لونها أخضر لبني، عبر أشجار التنوب والصنوبر القديمة القائمة، وحولي كانت أكوام حجرية من كل صنف، والأرض مبرقشة بالأزهار والعشب. كان قطيع يمضي أمامي، ينتشر ويمتد، وبعيدا، هناك تحت الضوء المسائي الكثيف، بجانب غيضة الصنوبر، كانت بعض الأبقار، فرادى أو جماعات، وكانت بعض الأخريات أقرب، في الظل، وكان هدوء المساء وكماله يخيمان على كل شيء. كانت ساعتي تشير إلى الخامسة والنصف تقريبا، دخل ثور القطيع السيل ذا الدرادير التي تعلوها رغوة بيضاء وصار يصعد ببطء مقاوما تارة ومستسلما تارة أخرى للتيار المندفع : لا ريب أنه كان يجد فيه نوع اللذة الهائجة التي تناسبه. وكان الراعيان ذوي بشرة سمراء داكنة، من أصل برغامي (berga-masque)، كان لباس الفتاة تقريبا مثل لباس الرجل. على اليسار منحدرات صخرية وحقول ثلج تعلو أحزمة غابوية شاسعة، وعلى اليمين شعفتان هائلتان يكسوهما الجليد، شامختان في السماء، سابحتان في غيم شمسي مشبع بالبخار، ـ كل شيء عظيم، مشرق، منور. كان هذا الكم الهائل من الجبال المتراكم يجعل قشعريرة مقدسة تسري في الجسم ويدفعنا إلى تدله صامت بلحظة تجليه تلك، ومن غير أن نشعر، وكأن ذلك شيء طبيعي للغاية، نتخيل أبطالا إغريقيين في عالم الضوء الصافي والخالص ذاك (عالم لا شيء فيه يذكر بالحنين، بالإنتظار، بالنظر الموجه إلى الأمام أو إلى الخلف)، إننا لا نملك إلا أن نشعر به على طريقة بوسان (Poussin) وتلاميذه : بطوليا وغزليا في نفس الوقت. ـ بهذا الشكل عاش بعض الناس كذلك، هكذا شعروا باستمرار داخل العالم، شعروا بالعالم داخلهم، وضمنهم واحد من أعظم الرجال، مبتكر أسلوب بطولي وغزلي في نفس الوقت في ميدان الفلسفة : أبيقور.

296. الحساب والقياس.

رؤية الكثير من الأشياء، وزن توافيقها، حساب موانعها، واستخلاص نتيجة سريعة من ذلك كله، استخلاص جمع أكيد، هذا ما يجعل من السياسي، أو ربان السفينة، أو التاجر، شخصا عظيما : إنها السرعة إذن في شكل من أشكال الحساب الذهني (cal-cul mental). أما ما يصنع البطل والمتعصب فهي رؤية شيء واحد والعثور فيه على الدافع الوحيد إلى الفعل، على قاعدة الفعل، أيا يكن هذا الفعل : إنها قابلية إذن لقياس كل شيء بمقياس واحد.

297. عدم السعي لرؤية الشيء في غير محله.

يجب علينا ونحن نعيش حدثا ما أن نعيشه بكل جوارحنا ونغض الطرف، أي ألا نلعب دور الملاحظ الداخل في تجربة، لأن ذلك سيعكر هضم الحدث : فنخرج منه بعسر الهضم عوض الحكمة.

298. مستخلص من ممارسة الحكيم.

لكي يصبح المرء حكيما يجب عليه أن يريد المرور ببعض التجارب، أي الإرتماء في فمها. وهو شيء شديد الخطورة بكل تأكيد، لأن ذلك الفم قد التهم أكثر من «حكيم».

299. فتور العقل.

إن لامبالاتنا وفتورنا العرضيين تجاه بعض الأشخاص، واللذين يفسران على أنهما قسوة أو نقص في أدب المعاملة، ليسا في الغالب سوى فتور يصيب العقل : في هذه الحالة لا نبالي بالآخرين ونشعر أنهم متعبون لنا مثلما لا نبالي بأنفسنا ونشعر أننا متعبون لأنفسنا.

300. « شيء واحد ضروري ».

إذا كنت ذكيا فإن الشيء الوحيد الذي عليك الإهتمام به هو أن تكون مرحا. مع الأسف، أضاف أحدهم، إذا كنت ذكيا فإن أفضل ما تستطيع فعله هو أن تكون حكيما.

301. دليل حب.

قال أحدهم :« هناك شخصين لم أسبر غورهما : وذلك هو دليل حبي لهما.»

302. كيف نحاول تصحيح حجج خاطئة.

هناك من يلقي بجزء من شخصيته في إثر حججه الرديئة وكأنما ليجعلها بذلك تأخذ مجرى أصوب وتصير حججا جيدة، تماما مثل لاعبي الأوتاد* الذين يحاولون، بعد رميهم بالقطعة الخشبية، أن يوجهوها الوجهة الصحيحة بقوة التومئات وتقلصات الوجه.

303. استقامة.

لا يكفي أن يكون المرء مثالا في ما يتعلق بالحقوق والملكية، ألا يكون، وهو طفل، قد أخذ بعض الفواكه من بساتين الآخرين، أو ألا يكون، وقد بلغ مبلغ الرجال، قد داس الحقول غير المحصودة، ـ ليدعي بأن الأشياء التافهة، كما هو معلوم، تبرهن على هذه الخاصية النموذجية أفضل من الأشياء العظيمة. إن ذلك لا يكفي، لأن هذا الشخص لا يكون حينها سوى « شخصية قانونية »، مع درجة من الأخلاقية تستطيعها كذلك « جماعة » أو جمهرة من الناس.

304. إنسان!

ماذا يمثل غرور الرجل الأشد غرورا إذا ما قورن بغرور الرجل الأكثر تواضعا حين شعوره بأنه « إنسان » وسط الطبيعة والعالم!

305. الترويض الضروري للغاية.

إذا لم نسيطر على أنفسنا سيطرة ضئيلة فإن القدرة على تحقيق سيطرة كبيرة تضعف. اليوم الذي لا نرفض فيه شيئا ضئيلا على الأقل يكون دائما يوما أسيء استغلاله ويشكل خطرا على الإنسان، ويعتبر هذا الترويض شيئا لا غنى عنه إذا نحن أردنا الإحتفاظ بلذة أن نكون أسياد أنفسنا.

306. التيه الذاتي.

فقط حين يجد المرء نفسه يكون واجبا عليه أن يعرف كيف يتيه من حين لآخر،لكي يجدها مرة أخرى، إن كان مفكرا. لأن التقيد بنفس الشخص دائما شيء مضر بالمفكر.

307. لحظة الإنصراف.

عليك أن تنصرف، ولو لبعض الوقت، عما تريد أن تعرفه وتقيسه، لأنك لن ترى مقدار ارتفاع أبراج المدينة فوق المنازل إلا بعد أن تكون قد غادرتها.

308. عند منتصف النهار.

من يجد نفسه نشطا ومضطربا ذات صباح من صباحات الحياة فإن رغبة غريبة في استراحة قد تدوم شهورا وسنوات تراوده عند منتصفها. يسود الصمت حوله، تبتعد الأصوات أكثر فأكثر، وتهبط عليه أشعة الشمس عمودية. في مظاءة الغابة يرى Pan* الكبير نائما وقد نامت معه كل الكائنات وأمارة الخلود على الوجه ـ أو على الأقل هذا ما يبدو له. إنه لا يريد شيئا، لا يشغله شيء، قلبه متوقف، بصره وحده هو الحي، ـ إنه ميت، وعيناه يقظتان. حينها يرى المرء كثيرا من الأشياء التي لم يرها أبدا، ومهما يكن البعد الذي يبلغه نظره فإنه يراها كلها جاثمة وكمدفونة في شبكة من نور. إنه يشعر بذلك أنه سعيد، ولكنه وزون (lourd)، وكونه وزونا هي سعادته. ـ وأخيرا تهب الريح بين الأشجار، لقد مضى منتصف النهار، وتجره الحياة لتستعيده، الحياة العمياء، وخلفها موكبها يتزاحم : الرغبة، الوهم، النسيان، اللذة، الإفناء، والزوال (fugacité). وهكذا يأتي المساء، عاصفا ومتشاغلا أكثر من الصباح. ـ تبدو لحظات المعرفة الطويلة شيئا ما للرجل النشيط شبه مقلقة ومرضية، ولكن غير مزعجة بتاتا.

309. الإحتراس من الرسام.

الرسام الكبير الذي يحدق، في الصورة القلمية التي انجزها لشخص ما ويكتشف فيها سيماء ذلك الشخص واللحظة الغنية التي يمكن أن يخلقها، سيعتقد تقريبا دائما، إذا ما رآه فيما بعد، أنه لا يرى منه سوى رسم ساخر (caricature).

310. مبدأ الحياة الجديدة.

المبدأ الأول : يجب تنظيم الحياة حسب ما نراه في الأفق أكيدا، قابلا للبرهنة، وليس، كما كان الأمر حتى الآن، حسب ما نراه بعيدا وغامضا. المبدأ الثاني : يجب حصر تراتبية الأشياء القريبة نوعا ما، الأكيدة شيئا ما، قبل تنظيم الحياة وتوجيهها وجهة أخيرة.

311. نزق خطير.

يبدو الموهوبون الكسالى دائما نزقين شيئا ما إذا ما وفق أحد أصدقائهم في مؤلف جيد. يستيقظ حسدهم، ويخجلون من كسلهم ـ أو بالأحرى يخشون أن يزدريهم الآخر، النشيط جدا، الآن أكثر من ذي قبل. في ظل هذه الظروف ينتقدون العمل الجديد ـ ويتحول انتقادهم إلى انتقام، مخلفا اندهاشا كبيرا لدى المؤلف.

312. تحطيم الأوهام.

الأوهام ملذات باهظة الثمن بكل تأكيد، ولكن تحطيمها أبهظ ثمنا منها، إذا اعتبر لذة هو بدوره، وإنه لكذلك ولا شك لدى الكثيرين.

313. رتابة الحكيم.

أحيانا نجد لدى الأبقار سيما دهشة توقفت في منتصف السؤال. ومقابل ذلك يمتد الإعجاب بالعدم* (le nil) في عين الذكي غاية الذكاء كرتابة سماء خالية من الغيوم.

314. إياك والمرض الطويل.

احذر أن تمرض وقتا طويلا جدا، لأن الذين يعودونك سوف يتبرمون من واجب إظهار الشفقة المعتاد، لأن دوامهم على تلك الحال مدة طويلة يسبب لهم عناء كبيرا ـ ثم إنهم سيفكرون مباشرة في الإشتباه في طبعك، وستكون خلاصتهم :« إنك تستحق أن تكون مريضا، ونحن لم نعد في حاجة إلى الإجتهاد في إظهار الشفقة.»

315. تنبيه المتحمسين.

على الذي يلذ له أن ينتشي ويود أن يصعد في خفة إلى الأعالي أن يحرص على عدم إثقال نفسه كثيرا، أي ألا يتعلم العلم مثلا، وخصوصا ألا يدع العلم يملأه. العلم يجعل المرء وزونا! ـ فاحذروا أيها المتحمسون!

316. معرفة مفاجأة نفسك.

على الذي يريد رؤية نفسه كما هو أن يعرف كيف يفاجئ نفسه بنفسه والمشعل في اليد. لأن ما ينطبق على البدني ينطبق على المعنوي : فالذي تعود أن ينظر إلى نفسه في المرآة ينسى قبحه دائما، والرسام، حين يرسمه، هو الذي يترك لديه الإنطباع بقبحه، ولكنه يتعود على صورته فينسى قبحه مرة ثانية. ـ وذلك طبقا للقانون العام القائل بأن الإنسان لا يطيق القبح الثابت، وإن فعل فللحظة فقط، إنه ينساه أو ينكره في كل الحالات. ـ على الأخلاقيين أن يعتمدوا على تلك اللحظة ليجرؤوا على تقديم حقائقهم.

317. آراء وأسماك.

يملك المرء آراءه مثلما يملك الأسماك، ـ أي إذا كان يملك بركة فيها أسماك. عليه أن يذهب لصيد السمك وأن يكون محظوظا، ـ حينها تكون له أسماكه وآراءه.

أتحدث هنا عن الآراء الحية وعن الأسماك الحية. هناك من يرضى أن تكون له مجموعة من الأحافير (fossiles)، ـ وأن تكون في رأسه « يقينيات ».

318. دلائل الحرية والتبعية.

تلبية المرء قدر المستطاع لحاجياته الضرورية بنفسه، ولو بشكل ناقص، ينحو به نحو حرية العقل والشخص. وتركه الغير يلبي له الكثير من حاجياته، ولو غير الضرورية، وعلى التمام ما أمكنه ذلك، يؤدي به إلى التبعية. السوفسطائي هيبياس (Hippias)، الذي اكتسب بنفسه، وصنع بنفسه كل ما كان يملكه باطنا وظاهرا، يوافق بذلك معنى حرية العقل والشخص السامية. ليس المهم هو أن يكون كل شيء على ما يرام ومصوغا بإتقان : فالأنفة ستصلح ما ليس مثلما ينبغي.

319. الثقة بالنفس.

في عصرنا الحاضر نحترس من كل من يثق بنفسه، أما فيما مضى فقد كان ذلك يكفي لجعل الناس يثقون به. هذه هي الوصفة لتحظوا بالثقة اليوم :« لا تحترس! إن أردت، تنير رأيك جيدا فابدأ بإحراق كوخك! »

320. غني وفقير في ذات الوقت.

أعرف شخصا اعتاد، وهو ما يزال طفلا، أن يحسن الظن بذكاء الرجال، أي بتفانيهم الحقيقي بخصوص كل ما يتعلق بأمور العقل، بإيثارهم النزيه لما يعرفون أنه حق، وهلم جرا، كما اعتاد، في المقابل، أن يكون فكرة متواضعة، بل وضيعة، عن رأسه هو (بحكمه وذاكرته وبديهته وخياله). وكان لا يقيم لنفسه وزنا حين يقارن نفسه بالآخرين. وقد أرغم كثيرا مع مرور السنين على تغيير رأيه في هذا الأمر ـ وقد يعتقد الناس أن ذلك أسعده وأرضاه كثيرا. أجل، كان الأمر كذلك شيئا ما، ولكن «امتزجت بذلك، كما قال هو ذات يوم، مرارة شديدة لم أعهدها من قبل في حياتي، لأنه منذ بدأت أنصف الناس ونفسي في أحكامي صار عقلي يبدو لي أقل نفعا، لا أعتقد كثيرا أنني لازلت أستطيع أن أبدي بعض الطيبة بفضله، لأن عقل الآخرين لا يعرف كيف يتقبلها، لقد صرت أرى دائما هاوية سحيقة تفصل الذي يمد يد العون عن الذي هو في حاجة إلى مساعدة. وهكذا يعذبني عناء توفري على عقل خاص بي وكوني مجبر على الإستمتاع به وحدي ليوفر بذلك المتعة للآخرين. ولكن العطاء يجعلني سعيدا أكثر من الإمتلاك، وماذا يكون أغنى رجل في بيداء موحشة!»

321. كيف نهاجم.

لا تكون دواعي الإيمان أو عدم الإيمان بشيء ما أقوى ما يمكن إلا لدى رجال شديدي الندرة. إننا لن نحتاج عادة، لكي نزعزع الإيمان بشيء ما، إلى حشد مدافعنا في الميدان قصد الهجوم، كثير من الناس من قد نبلغ منهم الهدف إذا انتقلنا إلى مهاجمتهم بإحداثنا ضجيجا لحد أنه تكفينا في الغالب بعض المفرقعات. أما الشديدو الغرور فيكفي أن تتظاهر بالهجوم الكاسح عليهم : إذ حين يرون جديتك يستسلمون طواعية.

322. المـوت.

قد يمزج احتمال الموت المحقق بكل حياة قطرة لذيذة وعطرة من الخفة ـــ وها قد جعلتم منه يا من لكم نفوس العطارين الغريبة، قطرة سم مقززة تحول الحياة كلها إلى إشمئزاز.

323. التوبـة.

لا تفسح المجال للتوبة أبدا، بل قل على الفور : توبتي تعني بكل بساطة إضافة حماقة ثانية إلى الأولى. ــ إن كنت قد فعلت شرا فلأفكر في فعل الخير. ــ إن عوقبت على أعمالي فلأتحمل ذلك وأنا أشعر أنني بذلك أفعل خيرا : إذ سأمنع الآخرين، وقد تملكهم الرعب، من ارتكاب نفس الحماقة. قد يشعر كل شرير تم عقابه أنه محسن إلى الإنسانية.

324. أن تصير مفكرا.

أنى للمرء أن يصير مفكرا إذا لم يكن يقضي على الأقل ثلث اليوم بعيدا عن الأهواء والناس والكتب ؟

325. أفضل علاج.

قليل من الصحة من هنا وهناك هو أفضل علاج للمريض.

326. ممنوع الإهتمام!

هناك أناس مرعبون عوض أن يحلوا مشكلة ما يعقدونها ويجعلون حلها صعبا على كل من يريد تكريس وقته لها. إنهم يدعون كل من لا يدرك الحل من الوهلة الإولى إلى عدم الإهتمام بذلك.

327. الطبيعة المنسية.

إننا ننسى أنفسنا حين نتحدث عن الطبيعة : نحن هم الطبيعة مع ذلك. ــ وبناء عليه فالطبيعة شيء مخالف تماما لما نشعر به حين نتلفظ باسمها.

328. العمق والضجر.

يلزم الشيء الذي يقع في فكر الرجال العميقين، كما في الأبار العميقة، وقت طويل كي يبلغ القعر. والمشاهدون، الذين عادة ما لا ينتظرون كثيرا، يعتبرون مثل هؤلاء الرجال خاملين وجامدين... بل مضجرين.

329. لحظة الإخلاص للنفس.

أحيانا نتيه في اتجاه فكري مناقض لملكاتنا الطبيعية، ولوقت معين نقاوم الموج والريح ببطولية، ونحن في الواقع نقاوم أنفسنا، يصيبنا التعب، نلهث، ولا يمنحنا ما نحققه أي فرح، فنعتقد أننا قد خسرنا كثيرا في نجاحاتنا. بل أسوأ من ذلك، نيأس من خصوبتنا، من مستقبلنا، ربما في أوج انتصارنا. وأخيرا، أخيرا نعود أدراجنا ــ فتهب الريح حينها مواتية لأشرعتنا وتوجهنا الوجهة الخاصة بنا. يا للسعادة! كم نشعر بنفسنا واثقين من النصر! حينها فقط نعرف من نحن وما نريد، حينها نقسم على الإخلاص لأنفسنا، ولنا الحق في ذلك، عن خبرة.

330. أنبياء الزمن.

مثلما الغيوم في السماء تكشف لنا اتجاه الرياح هناك في الأعالي فإن العقول الدقيقة والحرة تنبئنا، من خلال اتجاهاتها، ما سيكون عليه الطقس. ليست لريح الوادي ولا للآراء التي تعرفها الساحة العمومية اليوم أية دلالة بشأن ما سيأتي، وإنما فقط بشأن ما قد كان.

331. إسراع ثابت.

أولئك الذين يبدأون ببطء ويجدون صعوبة في التأقلم مع شيء ما يمتازون أحيانا فيما بعد بخاصية الإسراع الدائم، ــ بحيث لا يعرف أي أحد إلى أين قد يجرهم الموج.

332. الأشياء الجيدة الثلاثة.

الصمت والعظمة والشمس، تحتوي هذه الأشياء الثلاثة كل ما يرغب فيه المفكر ويطلبه لنفسه : آماله وواجباته، طموحاته في الميدان الفكري والأخلاقي، بل حتى في

أسلوب حياته اليومي، وحتى لما يتعلق بطبيعة مسكنة. وتقابلها أولا أفكار ترفع، ثم أفكار تهدئ، وثالثا أفكار تنير، ـ ورابعا أفكار من صنف هذه الميزات الثلاث، والتي يبلغ فيها الوجود الأرضي درجة التجلي* : إنه الملكوت الذي تسود فيه ثلاثية المرح.

333. الموت من أجل « الحقيقة ».

إننا لن نحترق من أجل آرائنا : لأننا غير واثقين جدا منها. وربما نحترق من أجل أن تكون لنا آراء ويكون لنا حق تغييرها.

334. أن تكون لك قيمتك.

إذا رغبت أن تساوي قدر كينونتك فلا بد أن يكون لك ثمنك. ولكن وحدها السلعة الرائجة لها ثمنها. وهكذا تكون هذه الرغبة إما نتيجة تواضع فطن ـ وإما نتيجة سفاهة بليدة.

335. موعظة للمهندسين المعماريين.

يجب نزع الإسقالة (échafaudages) حين يكتمل بناء المنزل.

336. صوفوكلية*.

من ذا الذي وضع في خمرة من الماء أكثر مما وضعه الإغريق! الصحو واللطافة هما الإمتياز الأرستقراطي للأثيني الذي عاش زمن بيركليس وبعده. فليقلده من شاء! في حياته وأعماله!

337. البطولة.

تقتضي البطولة أن يقوم البطل بشيء عظيم (أو ألا يقوم به، ولكن بطريقة تنم عن العظمة) دون أن يشعر أنه في منافسة مع الآخرين أو متقدم عليهم. وحيثما يذهب البطل فإنه يأخذ معه البيداء والنعيم المنيعين.

338. الطبيعة صنوتنا.

إننا نعيد اكتشاف أنفسنا ، برعشة ممتعة ،في كثير من المشاهد الطبيعية ، إنها أجمل صنوة لنا على الإطلاق . ـ كم سيكون سعيدا ذلك الذي يخامره هذا الإحساس هنا، في جو أكتوبر المشمس دائما، وسط هبات النسيم الفارهة والسعيدة طيلة اليوم، في هذا الصفاء الخالص وهذه البرودة المعتدلة، في الأناقة البسيطة لهذه الربى والبحيرات والغابات التي هي خاصية هذه الهضبة العليا الممتدة في غير خوف

عند منحدر الثلوج الأزلية المرعب، هنا حيث تزاوجت إيطاليا وفنلندا وحيث يبدو المكان وكأنه مهد كل النبرات الغنية في الطبيعة، ـ سعيد ذاك الذي يمكنه القول: «من المؤكد أن هناك مناظر طبيعية أعظم وأجمل، ولكني أجد هذا المنظر حميما ومألوفا لدي، إنه من دمي، بل وأكثر.»

339. دماثة الحكيم.

يكون الحكيم دمثا، بشكل تلقائي، في معاشرته للآخرين، مثل أمير، ويعاملهم كأنداد بكل عفوية، رغم كل الإختلافات في الموهبة، في الظروف وفي السلوك، ولكنهم بمجرد ما يتنبهون لهذا يحقدون عليه.

340. الذهب.

كل ما يلمع ليس ذهبا. إذ خاصية المعادن الأصيلة هي الإشعاع الخفي.

341. العجلة والحصار.

للعجلة والحصار أدوار مختلفة، ولكن لهما دورا مشتركا : مبادلة الآخر الأذى.

342. المفكر المنزعج.

على المفكر أن يلقي نظرة هادئة على كل ما يقطع عليه تفكيره (يعرقله، كما يقال) كما لو على موديل* جديد يجتاز عتبة الباب ليضع نفسه بين يدي الفنان. هذه المقاطعات هي الغربان التي تأتي المتوحد بغذائه.

343. النباهة الكثيرة.

النباهة الكثيرة تحفظ الشباب : ولكن عليك حينها أن تتحمل اعتبار الناس لك رجلا مسنا أكثر مما أنت فعلا. لأن الناس يقرأون في الخطوط التي ينحتها العقل كثيرا من آثار تجارب الحياة، أي أنها ناتجة عن كونك عشت كثيرا وعانيت في ذلك، عرفت المعاناة والتيه والتوبة. وهكذا نبدو لهم، حين نملك نباهة كثيرة ونظهرها، مسنين وأقبح مما نحن.

344. كيف تنتصر.

لا يجب أن نرغب في النصر إن كنا ننوي فقط أن نتوفق على خصمنا تفوقا يسيرا. على النصر المبين أن يهيء المهزوم للفرحة، يجب أن يكون فيه شيء سام جدا يوفر عليه الخجل.

345. وهم العقول المتفوقة.

هناك وهم تجد العقول المتفوقة صعوبة في التخلص منه : تعتقد أنها تثير حسد العقول الرديئة وأن الناس يرون فيها استثناء. والحقيقة أنهم يرون فيهم شيئا غير ضروري لن يشعروا، لو غاب، أنهم حرموا منه.

346. تطلب النظافة.

يعتبر بعض الناس تغيير الأراء، مثل تغيير الثياب، واحدا من متطلبات النظافة، ويعتبره أخرون، على العكس، متطلبا من متطلبات غرورهم فقط.

347. جدير ببطل كذلك.

هذا بطل لم يفعل شيئا سوى زعزعة الشجرة حين نضجت ثمارها. أترون هذا قليلا ؟ إذن ابدأوا بتدقيق النظر في الشجرة التي زعزعها.

348. بماذا نقيس الحكمة؟

يمكننا معرفة قدر ازدياد الحكمة بدقة من خلال قدر نقص الحقد.

349. قول الخطأ بطريقة كريهة.

لا يستسيغ كل الناس أن نقول الحقيقة بطريقة مستساغة. لكن لا يعتقدن أحد أن الخطأ يصير حقيقة حين نقوله بطريقة كريهة.

350. بحروف من ذهب.

لقد فرضت الكثير من القيود على الإنسان لجعله يقلع عن عادة التصرف مثل الحيوان، وبالفعل صار أكثر وداعة وذكاء وفرحا ورزانة من سائر الحيوانات. ولكنه مايزال يعاني من تقييده بهذه الأغلال مدة طويلة، بحرمانه مدة طويلة من الهواء النقي ومن حرية الحركة، والحالة أن هذه القيود، ولن أكف عن ترديد هذا، هي أخطر وأدق أخطاء الأفكار الأخلاقية والدينية والميتافزيقية. فقط حين يتم الشفاء من مرض القيود يكون الهدف الكبير الأول قد تحقق : انفصال الإنسان عن الحيوان. ــ إننا الآن في منتصف عملنا لتحرير الإنسان من قيوده، ويلزمنا في ذلك حذر كبير جدا. لا ينبغي أن تعطى حرية العقل إلا للإنسان الذي صار نبيلا، فهو وحده من يرى اقتراب تلطيف الحياة، وهو بلسم لجراحه، إنه أول من يستطيع القول أنه يحيا فقط لأجل الفرح لا غير، وفي كل الأفواه الأخرى يصير شعاره خطرا : السلم حولي والإستمتاع بكل الأشياء

الحميمة. ـ ويذكره شعار بعض المتوحدين هذا بكلمة قوية ومؤثرة قيلت في الماضي، لنا نحن، ولكنها ظلت فوق الإنسانية كلها شهارا ورمزا قادرين على إهلاك كل من يزين بهما رايته قبل الأوان، ـ وقد اهلكا المسيحية. يبدو أنه لم يحن بعد الأوان الذي سيسمح فيه لكل الناس بمعرفة مصير أولئك الرعاة الذين رأوا السماء تضيء فوقهم وسمعوا هذه الكلمة: «على الأرض السلام وللناس البهجة.» ـ لايزال الزمن زمن أفراد متوحدين.



الظل: إن ما أعجبني أكثر من بين كل ما قلته هو الوعد الذي أعطيته : سوف تعودون جيرانا طيبين للأشياء الحميمة. سنستفيد من ذلك نحن أيضا معشر الظلال. فقد افتريتم علينا كثيرا حتى الآن، اعترفوا بذلك.

المسافر: افترينا عليكن ؟ ولم لم تدافعن عن أنفسكن إذن ؟ لقد كانت آذاننا قريبة جدا منكن.

الظل: لقد بدا لنا أن قربنا الشديد منكم لم يترك لنا داعيا لنحدثكم عن أنفسنا.

المسافر: يا للرقة! واها، إني أرى جيدا أنكن، أيتها الظلال، « رجال أفضل » منا.

الظل: ومع ذلك كنتم تصفوننا بأننا « مزعجات »، نحن اللواتي نتقن شيئا واحدا على الأقل، أن نصمت وننتظر ـ ليس هناك أي انجليزي يتقن هذا. صحيح أننا غالبا ما نرى في إثر الإنسان، ولكننا لا نكون أبدا في تبعية له. حين يفر الإنسان من النور نفر نحن من الإنسان : إلى هذا الحد تبلغ حريتنا.

المسافر : مع الأسف، إن النور يفر من الإنسان كثيرا، وبالتالي تغادرنه أنتن أيضا.

الظل: لطالما غادرتك وأنا أتألم، أنا الذي أرغب في المعرفة، لقد ظلت أشياء كثيرة في الإنسان غامضة بالنسبة لي، لأنني لا أستطيع أن أكون دائما بالقرب منه. إنني مستعد لأن أجعل من نفسي عبدا لك مقابل معرفة الإنسانية معرفة تامة وشاملة.

المسافر: وما يدريك، و ما يدريني، أنك ستتحول حينها بغتة من عبد إلى سيد؟ أو أنك ستحيا، إن بقيت عبدا محتقرا لسيده، حياة المهانة والنفور ؟ فلنرض كلانا بالحرية التي بقيت لك... لك أنت ولي أنا! لأن رؤية قن تفسد علي أكبر أفراحي، وأشعر بالإشمئزاز من أفضل أملاكي إن أجبر أحد على تقاسمه معي، ـ لا أريد عبيدا حولي. للسبب نفسه أكره الكلب، هذا الحيوان الطفيلي الخامل المبصبص بذيله، والذي لم يصر « كلبا » أكثر إلا بكونه عبدا للناس، وهم يذهبون إلى حد الثناء على وفائه لسيده واتباعه مثل...

الظل: مثل ظله، هكذا يقولون. وربما أكون قد تبعتك مدة طويلة هذا اليوم ؟ لقد كان يوما طويلا، ولكننا في آخره، صبرك فقط لحظة صغيرة. العشب مبلل، وإني أرتعش.

المسافر: أوه، هل حان وقت افتراقنا ؟ ها قد آذيتك مرة أخرى في النهاية، لقد رأيت كيف صرت أكثر قتامة.

الظل: إنما خجلت باللون الذي استطيعه. وسبب ذلك الفكرة الفجائية بأني كنت أرقد عند قدميك مثل كلب وأنك...

المسافر: فهل أستطيع فعل شيء لأرضيك ؟ هل لديك رغبة ؟

الظل : لا رغبة لدي، ربما فقط تلك الرغبة التي كانت لذلك الفيلسوف «الكلب »* أمام الإسكندر الأكبر : تنح قليلا عن شمسي، إني أشعر ببرد شديد.

المسافر : ماذا علي أن أفعل ؟

الظل : امض تحت هذا الصنوبر وانظر إلى الجبال وراءك، فالشمس قد مالت نحو المغيب.

المسافر : أينك ؟ أينك ؟

ثبت الأعلام والشذرات التي وردت فيها

سوف أشير بـ I للكتاب الأول و II للكتاب الثاني.

العلم	الصفحات
إبكتيت	386-324 I
أبولون	222 I
أبيقور	295-227-192-711 II / 408-224 I
أجاكس	30 II
أرسطو	87 II
أرغوس	223 I
آريا	75 II
أفلاطون	285-214-152 II / 408-271 I
المسيح.	98-96-33 I
أوهلاند.	324 I
أوديب.	174 II
إيروس.	222-95 I
إيكرمان.	109 II
باخ.	149 II / 298 I
باسكال.	408-5 I
بالسترينا.	171 I
بتهوفن.	216-152 II / 298-171-170-126 I
بسمارك.	324 I
بلوتارخ.	20 II
بونتشي بيلاطي.	8 I
بونتيزيلي.	100 I
بولس القديس.	85 II
بيريكليس.	336 II
ثوسيديد.	144-31 II
ثيوفراست.	230 II
ثيوقريط.	173 I
جوفينال.	225 II / 224 I
دورر ألبرت.	215 II
ديدرو.	113 I
ديموستين.	110 II / 219 I
ديوجين.	18 II
راسين.	173-171 I
رفائيل.	73 II
روسو.	221-216 II / 408 I
روسيني.	171 I
سانت بوف.	125 II
سبينوزا.	408 I
سقراط.	86-72-6 II
سيمونيد.	219 I
شاول.	85 II
شتراوس. المقدمة	1
شيرن.	113 I
شكسبير.	162 I
شلير ماخر.	216 II
شوبان.	159 II
شوبرت.	155

شوبنهاور. المقدمة -271-408 / 214-17 II 185-170-33-5 I / 1
شومان. 161 II
شومفور. 214 II
شيشرون. 110-107 II
شيلر. 216-125-123-99 II / 170 I
صوفوكليس. 336-136 II / 173-170-162 I
صولون. 301 I
طاسيت. 144 II
عوليس. 408-219 I
غوته. -173-227-285-298-302-324-408 170-113-99 I - 214-125-124-118-109- 107-99-90-89 II
غوتفريد. 109 II
غورجيا. 219 I
ڤاغنر. المقدمة 1-3 / 171-134 I
فاوست. 168-124-42 II / 324-170 I
فريريك الكبير. 237 II
فريمي. 81 II
ڤولتير. 237 II / 4 I
فونتنيل. 214 II
فيخت. 216 II
فيدياس. 177 I
ڤيلاند. 125-107-90 II
كالديرون. 173-170 I
كالفين. 85 II
كانط. 216-118 II / 27 I
كروزوي روبنسون. 54 II
كلوبسطوك. 125 II / 150 I
كوتزبو. 170 I
كونتاريني. 226 I
لاروشفوكو. 214 II
لابروير. 214 II
لشتنبرغ. 125 II / 219 I
لوثر. 66 II / 226 I
لوران كلود. 177-171 I
لويس الرابع عشر. 63 II / 171 I
ليسين. 125-103 II
ليوباردي. 159 II
مايكل انجلو. 144 I
ملتون. 150 I
مندلسون. 157 II
موزار. 165-152 II / 298-171 I
موسى. 182 II
موليير. 230-63 II
مونطيني. 214-86 II / 408 I
نيوبي. 30 II
هاندل. 150 II / 298-171 I
هايدن. 151 II
هردر. 125-118 II
هرقليتس. 223 I
هزيود. 256 II / 188 I
هلفتيوس. 216 II
هوراس. 86 II / 276-49 I
هوميروس. -220-221 / 140-122-113-6 II 219-212-189-173 I
هيبياس. 318 II
هيجل. 170 I
يوحنا بولس. 99 II
يونغ ستيلين. 109 II

دليـــل عـــربي فرنـــسي

نقيضة Antithèse:

غموض Ambiguité:

إرادة مطلقة – رغبة Bon plaisir:

هزلي. ملهاتي Comique:

تصور Concept:

تقليد Convention:

كلبية (انظر II آخر صفحة) Cynisme:

تبعية Dependance:

لا شخصنة Depersonnalisation:

صيرورة Devenir (le):

جدل Dialectique:

وثوقي Dogmatique:

مأساوي – تمثيلي Dramatique:

الشي في ذاته En-soi (L'-):

جوهر Entité:

مماثل – مطابق Identique:

لا ألمية Impassibilité:

لا مشروط Inconditionnel:

عقلانية Intellectualité:

استبطان Interiorisation:

حرية الإختيار Libre-arbitre:

أخلاقية Moralisme:

ضـــرورة Necessité:

ظلامية (انظر I 27) Obscurantisme:

عرضي Occasionnel:

محاكاة ساخرة Parodie:

مادية الثقافة (انظر المقدمة 1) Philistinisme:

شعرنة Poetisation:

بعدي Posthume:

الشيء لذاته Pour-soi (Le-):

تمدية (جعل الشيء ماديا) Reification:

تخلي Renoncement:

نكوصي Rétrograde:

استعادي Rétrospectif:

شكوكية Scepticisme:

مشابهة Semblance:

عاطفية (انظر II 265) Sentimentalité:

مغالطة منطقية – سفسطة Sophisme:

أرواحية (انظر I 12) Spiritisme:

رواقية (انظر II 216) Stoicisme:

فوحيوان Suranimal:

تناظر Symetrie:

أطروحة Thèse:

مأساوي Tragique:

إرادة الحياة Vouloir-vivre:

استلاحة (مشابهة الحق) Vraisemblance:

هوامــش الكتاب مرتبـة على أرقـام الشـذرات

مقدمة

1- جرمانية.

12- الإعتقاد بأن أرواح الموتى تتصل بالأحياء، من خلال وسيط. (م)

26- صانع الملوك : شخص له نفوذ كبير في اختيار المرشحين للمناصب السياسية. (المورد)

27- نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة.

29- الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس، وترمز للعذاب الروحي أو العقلي. (م)

95- إله الحب عند الإغريق.

100- Penthésilée ملكة الأمازونيات (وهن نساء محاربات من بلادسكيثيا) التي قتلها أخيل إبان حصار طروادة. (م)

144- أسلوب ساد في أوربا من أواخر قرن 16 حتى أوائل قرن 18. وأهم ما يميزه في المعمار دقة الزخرفة وغرابتها والأشكال المنحرفة. أما في الأدب فيتميز بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة. (م)

155- Orgue de Barbarie : أرغن صغير يمكن حمله. (م)

159- جزيرة يونانية، موطن عوليس (Ulysse). (م)

171- أسلوب معماري ازدهر في أوربا من قرن 12 إلى قرن 16، ويتميز بالأقواس الحادة الرأس، بالدعامات الخارجية للجدران، بالزخرفة التشجيرية وبغنى في التفاصيل. وقد رأى الرومانسيون أنه يمثل شيئا بدائيا، طبيعيا وحرا. (م)

177- Phidias أشهر نحات إغريقي. عهد إليه بيريكليس بتجميل أثينا.

220- المنادون بالمذهب الطبيعي القائل بأن العلم مؤهل لتعليل جميع الظواهر. (المترجم)

222- cella : جزء محجوب من معبد إغريقي أو روماني. (م)

consécrateur : الذي يجعل أو يعلن الشيء مقدسا. (م)

223- Argus عملاق ذو مائة عين كان مكلفا بحراسة إيو ابنة إناخوس التي حولها جوبيتر إلى عجلة، وقد حولت عيونه بعد موته إلى ذيل الطاووس. (م)

224- Juvénal : يعتبر أكبر شعراء الهجاء عند الرومان. (المورد)

Vénus : إلهة الحب والجمال عند الرومان. (المورد)

Hadès : مثوى الأموات في الميثولوجيا الإغريقية. (المورد)

انطبعت بطابع الحضارة الرومانية الفاتحة. (م)

226- الذي يقوم به واحد نيابة عن الآخرين. (المترجم)

227- يعمل في استقلال عن الآخرين، في غير خضوع لنظام ما. (م)

230- له علاقة بحفلات تكريس الأعضاء الجدد في جمعية ما وإطلاعهم على أسرارها. (م)

256- الإيمان بأن الفضيلة هي الخير الوحيد وأن جوهرها ضبط النفس. (المترجم)

301- سياسي ومشرع أثيني مشهور، عرف بنزعته الإصلاحية. وهو أحد حكماء اليونان السبعة. (م)

382- جوية : وحدة ضغط تعادل الهواء عند سطح البحر. (م)

401- Léthé : نهر في الجحيم تمحو مياهه ذاكرة الماضي، عند الإغريق. (م)

11- مذهب الذرة القائل بأن المادة مؤلفة من جواهر فردة، وأن الأجسام تتكون وتفسد باجتماع هذه الجواهر وافتراقها.

30- زوجة Amphion الذي بنى طيبة ناقلا الأحجار بالعزف على قيثارته. (م)

35- casuistique : دراسة أحوال الضمير وقضاياه.

60- لكلمة Vanitas في اللاتينية عدة معان منها : غرور، تفاهة، لا منفعة. (م)

73- procession : طواف بأشياء مقدسة داخل الكنيسة أو خارجها.

75- هي زوجة بيتوس كاسينا الذي تم إعدامه أيام الإمبراطور كلود اليوناني. (م)

81- الفريسيون : طائفة من يهود عهد المسيح عرفوا بالتمسك بالطقوس والتقوى الكاذبة.

85- Saul : اضطهد المسيحيين بشدة ولكنه اهتدى من بعد وخدم الكنيسة. (م)

149- contrepoint : لحن يضاف إلى آخر على سبيل المصاحبة.

scolastique : الفلسفة التي سادت القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، وقد بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة، كما أخضعت الفلسفة للاهوت.

161- Lied : الليدة أغنية ألمانية.

182- Sirocco ريح جنوبية شرقية حارة.

183- interieur : متعلق بالشؤون النفسية والأخلاقية.

188- pharmacopée : دستور الصيدلة أو الأدوية.

201- cérébrale : تتطلب انتباها شديدا وتركيزا قويا.

215- يقصد سكان أوربا الجنوبية، خاصة جنوب فرنسا.

216- الرواقية مذهب فلسفي أنشأه زينون حوالي 300 ق.م ويقضي بتحرر الحكيم من الإنفعال أو التأثر بالفرح أو الترح وبخضوعه من غير تذمر لحكم الضرورة.

التمسك بالفضيلة بوصفه شيئا متميزا عن الدين.

Helvétius : فيلسوف فرنسي من قرن 18 قال بأن النشاط البشري قائم على المصلحة الشخصية. (م)

227- فيلسوف يوناني قال بأن المتعة هي الخير الأسمى، والفضيلة وحدها هي مصدر المتعة.

256- شاعر يوناني من قرن 8 ق.م، يعرف باب الشعر التعليمي عند اليونان. (م)

265- Hyperboréens : شعب سعيد اعتقد الإغريق أنه يقيم في منطقة شمالية تنعم بأشعة الشمس على نحو سرمدي.

Sentimentalité : الميل إلى التأثر بالعاطفة لا بالعقل. (م)

275- جدار أو دعائم تسند بها الأشجار. (المترجم)

285- أداة حديدية يقلب بها التراب. (لسان العرب)

فصل ما بين الدور والضياع. (لسان العرب)

الشجاعة والعدل والحكمة والإعتدال. (المنهل)

انظر الكتاب الثاني في المجلد الأول من إنساني مفرط في إنسانيته، الصادر عن أفريقيا الشرق، ترجمة محمد الناجي.

302- لعبة البولينج.

308- Pan : إله الحياة الغابوية والمراعي عند الإغريق، له قوائم وقرون تيس، وهو مبتكر الناي ذي السبع قصبات المسمى ناي بان. (المترجم)

313- nihil = nil في اللاتينية، ومعناها لا شيء أو عدم. (المترجم)

332- التجلي (Transfiguration) يعني تغير هيأة السيد المسيح على الجبل. يقابل نيتشه السماوي بالأرضي هنا في إطار هدمه القيم المسيحية وتأسيس قيم أخرى. (م)

336- نسبة إلى صوفوكليس، أحد أعظم المسرحيين المأساتيين الإغريق. (المترجم)

342- شخص يجلس أمام الفنان أو النحات ليستعين به على إبداع الصورة أو التمثال. (المورد).

الحوار الأخير بين الظل والمسافر

يقصد ديوجين، الفيلسوف اليوناني الذي دعا إلى التقشف وعاش في برميل. وقد عاصر الإسكندر الأكبر، وتوفيا كلاهما سنة 323 ق.م. كان كلبيا، أي مؤمنا، مثل الفلاسفة الكلبيين الآخرين، بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وأن جوهرها هو ضبط النفس. (المترجم)



الفهـــرس

مقدمــة 5
الكتاب الأول : آراء وحكم مختلطة 11
الكتاب الثاني : المسافر وظله 113
ثبت الأعلام والشذرات التي وردت فيها 222
دليل عربي فرنسي 224
الهوامش 225

NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

إنسان مفرط في إنسانيته

كتاب العقول الحرة

II

لا تستخدم الآلة ، التي هي نتاج الملكة الفكرية العليا ، لدى الذين يستخدمونها سوى الطاقات الدنيا وليس الفكر . وبفعلها ذلك تطلق كمية هائلة من الطاقة التي لولاها لظلت كامنة ، هذا صحيح ، ولكنها لا تدفع المرء إلى التسامي ، إلى القيام بما هو أفضل ، لأن يصبح فنانا . إنها تجعله نشطًا مكررًا نفس العمل بانتظام ، ولكن هذا يثير على التمادي رد فعل ، يثير في الروح ضجرًا يائسًا تتعلم من خلاله أن تطمح إلى تسليات الكسل .

نيتشه



Robert Motherwell

لوحة دون عنوان 1967

ISBN 9981-25-193-3



ردمك 9 789981 251939